مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أوشو

حتى تموت

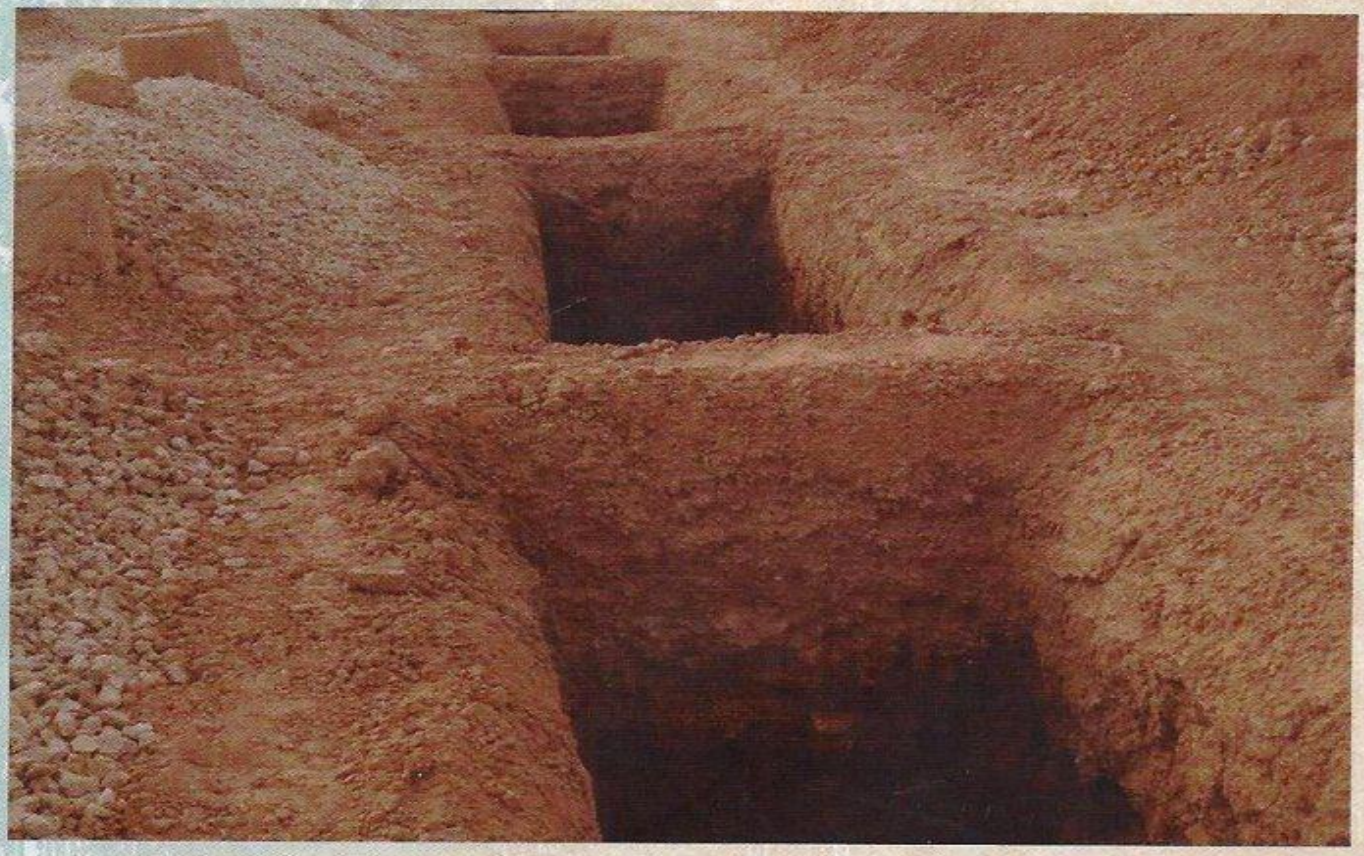

نقله إلى العربية
أيمن أبو ترابي

دار المعرفة

أوشو

حتى تموت

نقله إلى العربية

أيمن أبو ترابي

تحويل وإهداء

إهداء وتحويل من كتاب ورقي إلى كتاب مصوَّر: «**مهيمن الأسدي**»..

وإهداء تحويل من كتاب مصوَّر إلى كتاب نصّي للكيندل والمراجعة الكاملة: «**محمد حسين**»..

هذا الكتاب إهداءً لكم أجمعين، لعل الله يتقبَّل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينتفع به العالمين من كل كفيفٍ وذوي الأبصار.

الفصل الأوّل:
حتى تموت

على المرء أن يموت قبل أن يموت

كان في بخاري رجل غني وكريم، وبما انه كان يحظى بمرتبة مالية ضمن جماعة روحية خفيّة، فقد كان يلقّب برئيس العالم.

كان يعطي كل يوم قطعة ذهبية لصنف من المحتاجين، كالمرضى، والأرامل.. إلخ. غير انه لم يكن يعطي شيئاً لمن يتفوّه بكلمة، ولا لمن يظلّ صامتاً.

ذات يوم، جاء دور المحامين لاستلام حصّتهم من المنحة، غير ان أحد المحامين لم يتمكن من كبح نفسه عن الكلام فأخذ يستغيث بأقصى ما يمكنه، فلم يحصل على شيء. ومع ذلك، فلم تكن هذه آخر محاولاته. ففي اليوم التالي، تم تقسيم المساعدة للمقعدين، فتظاهر المحامي بأن رجلاه مكسورتان، غير ان الرئيس عرفه، ولم يحصل على شيء.

لقد حاول مراراً وتكراراً، حتى انه تنكّر في زيّ امرأة، فلم يصل أيضاً إلى أيّة نتيجة.

في نهاية المطاف، عثر المحامي على متعهد لدفن الموتى، وطلب منه أن يلف جسده بكفن، قائلاً: "عندما يمرّ الرئيس بجانبي، فربما يفترض ان هذه جثّة، فيرمي ببعض النقود على مدفني، وبعدها سأعطيك قسماً منها.

وهذا ما حصل بالضبط، لقد رمي الرئيس بقطعة من الذهب علي الكفن، فسارع المحامي الى وضع يده عليها، ذلك أنه خشي من أن يستولى عليها المقاول اولاً، ثم قال للمحسن الكبير: "لقد رفضت أن تعطيني منحة، فانظر كيف حصلت عليها. فأجابه الرجل السخي قائلاً: "لن تحصل منّي على شيء، حتى تموت".

هذا هو معنى العبارة المبهمة: "على المرء ان يموت قبل ان يموت". بعد هذا "الموت" تأتي المنحة وليس قبله. ولكن حتى هذا "الموت": لا يمكن من دون مساعدة.

هنالك أديان عديدة، لكن التصوّف هو الدين.. إنه جوهر الدين، وقلبه، وروحه.

التصوّف ليس جزءاً من الإسلام، بل على العكس تماماً: الإسلام هو جزء من التصوّف، ذلك أن التصوّف موجود قبل الإسلام، وسيظل موجوداً بعده.

الأديان تظهر وتزول، أمّا التصوف فباق، ومستمر، لأنه ليس معتقداً، بل هو قلب التديّن وجوهره.

ربما لم تسمع عن التصوّف من قبل، لكنك قد تكون صوفيّاً بالفعل– هذا إذا كنت متديّناً حقّاً.

لقد كان كريشنا شخصاً متصوفاً، وكذلك المسيح، وماهافير، وبوذا، وهؤلاء لم يسمعوا بهذه الكلمة ابداً، ولم يعرفوا بوجود التصوّف.

عندما يكون الدين مفعماً بالحياة، فلأن التصوّف لا زال حيّاً في داخله، ولكن عندما يفقد الدين حيويّته، فذلك يُظهِرُ بوضوح أن روحه، أي الصوفية، قد غادرته، وفي هذه الحالة لن يعود موجوداً سوى الجثة فقط – مهما كان مزخرفاً، ومهما كانت فلسفته، وسمة فلسفته الماورائية، ومعتقداته، وتعاليمه. عندما يغادر التصوف الدين، فتنبعث منه رائحة الموت الكريهة.

لقد حدث ذلك مرّات عديدة، وهذا ما يحدث بالفعل في كل أنحاء المعمورة تقريباً، لذا ينبغي على المرء أن يكون مدركاً لهذا، وإلاّ سيستمر في التعلّق بجثث ميّتة.

لا يوجد في المسيحية ايّ تصوف الآن، وهي بسبب ذلك ديانة ميّتة، والكنيسة هي التي قتلتها، ذلك أنه عندما تصبح الكنيسة ضخمة جداً، فينبغي للتصوف أن يترك ذلك الجسد، لأنه لا يستطيع البقاء إلى جانب المعتقدات. يمكنه البقاء مع الروح الراقصة المفعمة بالحياة، ولكن ليس مع المعتقدات. لا يمكنه التواجد مع نظام لاهوتي، إذ ليس هذا بالصحبة الجيّدة، ومن المستحيل أن يوجد التصوّف مع القساوسة والباباوات في مكان واحد، لأنه نقيضهما تماماً. التصوف لا يحتاج للباباوات، ولا للقساوسة، ولا يحتاج للمعتقدات، ذلك أن التصوّف لا علاقة له بالرأس، بل ينتمي إلى القلب، والقلب هو الكنيسة، ولكن ليس كنيسة منظّمة، لأن كل تنظيم مصدره العقل، وبمجرّد أن يهيمن العقل، فعلى القلب أن يهجر ذلك المنزل بالكامل. فالمنزل يصبح ضيّقاً جداً بالنسبة للقلب، ولأن القلب يحتاج إلى السماء بأكملها، ولن يفعل أقلّ من هذا.

لا يمكن للتصوّف أن ينحصر في كنائس، لأن الوجود بأكمله كنيسته الوحيدة. يمكن أن ينبض تحت السماء، وبحرّية، لكنه يموت عندما يصبح كل شيء نظاماً، أو قالباً منظّماً، أو طقساً دينياً، وببساطة: تزول حالة التصوّف من تلك الأشياء المنظمة.

الكنيسة هي التي قتلت المسيح، ولم يقتله اليهود. صحيح أنهم صلبوه، لكنهم أخفقوا في قتله. فبصلبه بقي حيّاً. هذا هو معنى قيامة المسيح، ليس لأن المسيح بقي حيّاً جسديّاً، بل لأن الصلب أثبت فشله. لم يتمكن اليهود من قتل المسيح –لقد حاولوا بالطبع– لكنه بقي حيّاً.

غير أن المسيحية نجحت، حيث فشل اليهود.

لقد قتله المسيحيّون من دون صلب: قتلوه من خلال الصلاة، ومن خلال العقيدة، ومن خلال المنظّمة. لقد نجح الأتباع، ونجح الحواريون، حيث فشل الأعداء.

المسيحية الآن دين ميّت، لأنها لا تسمح للصوفية بالوجود في داخلها، فهي تخشى منها. والحقيقة إن كل عقيدة تخشى دائماً من الصوفية، لأن الصوفية تعني: الحريّة المطلقة.. من دون تقييد، ومن دون تحديد. إنها أشبه بالحب، وليس بالقياس المنطقي. إنها أشبه بالشِّعر، وليس بالنثر، لأنها لا تنتمي لعالم المنطق.

هذا هو سبب خشية كل نظام لاهوتي منطقي من الصوفيّة. لأنك بمجرّد أن تفسح المجال لغير المنطقي، فلن تعرف أين أنت،

وتذكّر: إن الله لا يُدرَكُ بالمنطق، ومن الجمال أن يكون هكذا، وإلاّ لكان أستاذ فلسفة في إحدى الجامعات، أو بابا، أو قسّيس، ولكن ليس الوجود.

لقد ماتت الصوفية مرّات كثيرة في العديد من الأديان: فاليانية دين ميّت، ذلك الدين الذي ازدهر ذات يوم بشكل جميل عندما أنجب صوفيّاً عظيماً مثل مهافير. بعد ذلك اختفى النهر فجأة، ولم يبقَ سوى مجرى النهر الجاف، حيث لا توجد الآن أنهار تتدفّق، ولا توجد خُضرة على ضفّتها. لقد تحولت إلى أرض قاحلة، مهجورة تماماً. فماذا حصل؟

لقد أصبح أتباع اليانية عقلانيون، ورياضيّون، ومنطقيون بشكل مفرط. ومن أحجية ماهافير: خلقوا العقائد، والمجادلات، وأصبحوا بارعين للغاية في ذلك، فقُتِلَت الروح.

في المسيحية، كان على الصوفيّة أن تغادرها، لأن الكنيسة أصبحت طقوسية بشكل مفرط. وفي اليانية، كان على الصوفيّة أن تغادرها أيضاً، لأن اليانية أصبحت منطقية جداً، وبسبب اعتمادها نظاماً لاهوتياً، وفلسفياً بشكل مفرط.

وتَذكّروا هذا: إن التصوّف ليس كنيسة، ولا ينتمي لأيّ دين، بل إن كل الديانات –عندما كانت حيّة– كانت تنتمي له. إنه سماء شاسعة لنوعيّة خاصّة من الوعي.

كيف حدث هذا؟ وكيف يصبح المرء صوفيّاً؟

في الحقيقة يصبح المرء صوفيّاً، ليس بانتمائه إلى جماعة معيّنة، بل بأن يهبط من الرأس متّجها نحو القلب.. وهكذا يصبح صوفيّاً.

تستطيع أن تعيش بطريقتين: فإمّا أن تعيش كشخص موجّه من قِبَل الدماغ – وعندئذٍ ستنجح في العالم الخارجي، وتكدّس ثروة كبيرة، وهيبة، وسلطة، وتكون شخصاً ناجحاً في السياسة، وتكون في نظر العالم هَرماً يُقتَدى به، إنّما من الداخل ستكون فاشلاً تماماً. والإنسان الموَجّه من قِبَل الرأس لا يمكنه الولوج إلى الباطن على الإطلاق، ذلك أن الرأس يتحرّك نحو الخارج، وهو منفتح نحو الجهة الأخرى. أمّا القلب فهو منفتح نحو الداخل: نحو نفسك. إذن، إمّا أن تعيش كشخص موَجّهٌ من قِبَل الرأس، أو كشخص موَجّهٌ من قِبَل القلب. ولكن عندما تهبط طاقة الحياة لديك من الرأس إلى القلب: فتصبح صوفيّاً.

إن الصوفي يعني أنه رَجُلُ القلب.. رَجُلُ الحب.. إنه إنسان لا يكترث من أين يأتي هذا الكون، ومن الذي خلقه، وإلى أين ينتهي. وفي الحقيقة، هو الإنسان الذي لا يسأل أية أسئلة، وبدلاً من ذلك فإنه يبدأ في الحياة.

فالوجود قائم، ووحدهم الحمقى من يتساءلون من أين يأتي الوجود. وهنا أقول: الحمقى فقط. ربما كفّنوا أنفسهم بكلمات فلسفية ماكرة جداً، لكنهم حمقى. إن الشخص الحكيم هو من يعيش الوجود، هنا وفي هذه اللحظة! فلماذا يكترث بأمر الكون، ومن أين أتى. بل ما أهمية أن تعرف من أين أتي الكون؟

سواء خلقه شخص ما، أم لا، فذلك لا علاقة له بالمسألة. إنك موجود هنا، وتنبض بالحياة. وترقص مع الوجود!

عش الوجود، بل كن أنت الوجود، واسمح له في أن يحدث في داخلك بكل غموضه.

والحقيقة أن هذه هي المعجزة: وهي الشخصُ الذي لا يأبه من أين أتى الكون الشخص الذي لا يسأل أيّة أسئلة، بل يتلقّى الأجوبة. ليس فضوليّاً، بل شخص يبتهج لأيّ شيء موجود، وفي أي حالة كان. من ثم يصبح فجأة مدرِكاً لمصدر الكون

ذاته، وللذرة ذاتها، حيث تجتمع البداية والنهاية في داخله، ذلك أن الإنسان نفسه لغز.

الآن، لم يعد اللغز شيئاً موجوداً كهدف يجب أن تبحث عنه هنا وهناك، أو هدفاً تنظر إليه وتراقبه. كلاّ، لأنها ليست الطريقة المناسبة لكي تعرفه، بل هي طريقة لكي تتوه عن معرفته. قد تبحث في كل مكان، وتدور حوله، لكنك لن تدركه أبداً. فمن أين لك أن تعرف؟ إنك تضرب حول الهدف. إنك تهاجم محيط الدائرة.

بدلاً من هذا: اخترقه، وامضي إلى الداخل. اذهب إلى المركز، وكن أنت المركز، وإنك لتستطيع ذلك.. تستطيع أن تصبح المركز، لأنك جزء منه، وهو جزء منك.

حينها تذوب كل التساؤلات فجأة، ويظهر الجواب فجأة وذلك ليس لأن جميع مشاكلك قد حُلّت، كلاّ، فليست هناك مشاكل على الإطلاق. ولكن عندما لا تكون هناك مشاكل مطلقاً، فسوف ستصبح للمرّة الأولى قادراً على أن تعيش اللغز الذي هو الحياة. ستصبح قادراً على أن تعيش الله، وقابل لتكون آلهة.

ثمة صوفي كبير، لابد أنك سمعت باسمه، وهو الحلاّج والذي قتله المسلمون لأنه قال: "أنا الحق، أنا الله".

عندما تنفذ إلى لغز الحياة، فذلك ليس لأنك مراقب، فالمراقب يكون في الخارج دائماً، بل لأنك تصبح أنت واللغز واحد. وليس معنى ذلك أنك تسبح في النهر وتطفو على سطحه، وليس لأنك تكافح في داخله، كلاّ، بل لأنك تصبح أنت والنهر واحد. إنك تدرك فجأة أن الموجة هي جزء من النهر، كما يصحّ العكس أيضاً: فالنهر هو جزء من الموجة. ومثلما أننا جزء من الله، فالله أيضاً هو جزء منّا.

عندما اكّد الحلاّج قائلاً: "أنا الله"، فقتله المسلمون. لقد كان التصوّف يُقتَل على يد المتديّنين دائماً، أو بالأحرى ما يسمّى بالمتديّنين، ذلك أنهم لا يستطيعون تحمّل التصوّف، ولا يستطيعون تحمّل شخص يقول إنه الله؛ لأن غرورهم يتأذّى. فكيف يمكن أن يكون الإنسان إلهاً؟ والحقيقة أن الحلاّج عندما قال: "أنا الله"، فهو لم يقل: "أنا الله وأنت لست كذلك". لم يقل: "أنا الله، وهذه الأشجار ليست كذلك". لم يقل: "انا الله، وهذه الحجارة، ليست كذلك"، بل يقول: "أنا الله"، ويؤكد أن كل الوجود إلهيّ ومقدَّس.

امّا هؤلاء المتعصّبين، الذين يؤمنون بالمعتقدات، فقد قالوا إن الله خلق الإنسان، إذن الإنسان مخلوقٌ، وليس خالقاً. بهذا يكون قول الحلاّج تجديفاً، بل هو قمة التجديف أن يقول: "أنا الله"، فعمدوا إلى قتله.

ولكن ما الذي كان يقوله الحلاج عندما قتلوه؟

نظر إلى السماء وقال بصوتٍ عالٍ: "إلهي! لا يمكنك أن تضللني، لأنني أراك حتى في هؤلاء القتلة.. لا يمكن أن تضللني. إنك موجود في هؤلاء القَتَلة، فبأي شكل أتيت يا ربي، فسوف أعرفك، لأنني عرفتك".

إن الصوفية لا تفكر بالوجود، لأنها الوجود. الصوفية لا تفكّر، ولا تفعل شيئاً حيال الوجود. إنها ليست فعلاً ولا تفكيراً، بل وجود.

الآن، يمكنك أن تكون صوفيّاً من دون أيّ مجهود. إذا توقّفت عن التفكير، وإذا تخلّيت عن فكرة عمل أيّ شيء، وأقلعت عن فكرة كونك الفاعل والمفكّر، وكنت ببساطة راضياً بأن تكون كما أنت: فجأة، ستجد نفسك صوفيّاً.

هذا ما سوف أسعى إليه من خلال حديثي عن التصوّف: لا أسعى إلى تلقينك مذهباً معيّناً، ولا لأن أجعلك أكثر معرفة،

بل لكي أجعل منك صوفيّاً.

إن الصوفيّون يُنشِدون، ولا يُعطون المواعظ، ذلك أن الحيان أشبه بالإنشاد، وليس بالوعظ.

إن المتصوّفة يُنشِدون ويرقصون، ولا يتحدّثون عن المعتقدات، لأن الرقص أكثر حياة، وأكثر شبهاً بالوجود.. وبالطيور وهي تغرّد على الأشجار، وأكثر شبهاً بالريح وهي تتخلل أشجار الصنوبر.. الحياة أشبه بالشلاّل، أو بالسُحُب الممطرة، أو بالأعشاب وهي تمو. الحياة كلّها رقصٌ، تنبض وتتذبذب مع الحياة المطلقة.

الصوفيون يحبون الرقص، ولا يهتمّون بالمعتقدات. كما أنهم يروون قصصاً جميلة، لأن الحياة أكثر شبهاً بالقصة منها إلى التاريخ، لذلك أبدعوا قصصاً جميلة، وهذه القصص قد تبدو قصصاً عادية لو نظرت إليها نظرة سطحيّة، ولكن إذا تمعّنت فيها بعمق، فسوف تتبيّن مغزاها وأهميتها، وستكتشف أنها مفعمة بالدلالة على المطلق. لذلك سأروي لكم بعضاً من هذه القصص، وأناقشها لكي أساعدكم على النفاذ إلى مضمونها، وهذا فقط لكي أجعلكم تفهمون بضعة أشياء عن القلب، ولكي أدفع طاقاتكم، وكيانكم برمّته، نحو رحلة جديدة إلى القلب، لأنكم ستكونون خائفين.

إن القلب هو أخطر شيء على الإطلاق، فكل ثقافة، وكل حضارة، وكل "دين"، يعمل على طعن الطفل في قلبه، لأن القلب هو الأكثر خطورة، لا بل إن كل ما هو خطر: يأتي من القلب. أمّا العقل فهو أكثر أماناً، لأنك مع العقل تعرف أين أنت، أمّا مع القلب، فلا أحد يعرف. مع العقل: كل شيء محسوب، وموزون، ومخطط له، وبذلك تشعر أن الحشد معك دائماً. إن معظم البشر يتحركون من خلال العقل، فهو طريق سريع، ومتين، وصلب، وهو يمنحك شعوراً بالطمأنينة. أمّا مع القلب فتكون وحيداً، ولا أحد يقف بجانبك، فيستولي عليك الخوف، فإلى أين تذهب؟ الآن لم تعد تعرف، لأنك عندما تسير في طريق الحشد، فأنت تعرف إلى أين تمضي لأنك تعتقد أن الحشد يعرف وجهته.

الجميع في الوضع ذاته، إذ يعتقد كل شخص أن الكثير من الناس يسيرون، فلابد أننا نسير إلى مكان ما، وإلاّ لماذا يسير العديد من الناس، بل الملايين منهم؟ لابد أنهم يتجّهون إلى مكان ما". الجميع يفكّرون بالطريقة ذاتها، لكن الحقيقة هي أن الحشد لا يسير إلى أيّ مكان، ولم يصل حشد قط إلى أي مكان، أو إلى أي هدف، إنّما يواصل السير فحسب.

لقد ولِدتَ وأصبحت جزءاً من الحشد، وهذا الحشد يسير في الأساس قبل أن تولَد، وسيأتي اليوم الذي تموت فيه والحشد يواصل السير، ذلك أنه دائماً يولد أناس جدد.

الحقيقة هي أن الحشد لن يصل إلى أيّ مكان، لكنه يمنحك شعوراً بالراحة، والطمأنينة، والدفء. وبما أنك محاط بالعديد من الذين هم أعقل منك، وأكبر سنّاً منك، وأكثر تجربة، فلابد أنهم يعرفون إلى أين يسيرون! بيد أنك في اللحظة التي تبدأ فيها بالسقوط نحو القلب– وهو سقوط بكل من الكلمة: سقوط يشبه السقوط في هاوية، ولهذا السبب نقول عن شخص عاشق إنه وقع في الحب. إنه سقوط– العقل يقول إنه سقوط– إنه شخص أضل طريقه، وسقط".

عندما تسقط نحو القلب، فسوف تصبح وحيداً، حيث الآن لم يعد هناك أحد إلى جانبك. فتقبع في وحدة مطلقة، خائفاً، ومرعوباً.

الآن، لن تعرف إلى أين تذهب، لأنه ما من أحد موجود، ولا توجد معالمٌ على الطريق.. وفي الحقيقة، ليس هناك طريق صلب ومعبّد، فالقلب لا خارطة له، ولا ميزان، وسيكون هناك خوف مريع.

إن كل مسعاي هو أن أساعدكم على ألاّ تكونوا خائفين، لأنكم لن تولدوا مجدداً إلاّ من خلال القلب فقط. ولكن قبل أن

تولَدوا مجدداً، عليكم أن تموتوا، إذ لا أحد يمكنه أن يولَدَ من جديد قبل أن يموت، وبالتالي، فإن رسالة الصوفيّة برمتها، مثل الزن[1]، والهاسيدية[2] – وهذه أشكال من الصوفية أيضاً – هي كيف تموت، وفن الموت هو الأساس، وأنا لا أعلّمكم سوى كيف تموتوا.

إذا متّم، فستصبحون تحت تصرف مصادر الحياة اللا محدودة. عليكم أن تموتوا، حقيقةً، في شكلكم الحالي، لأنه أصبح ضيّقاً جداً. بالموت ستبقون أحياء –فأنتم لا تعيشون، ذلك أن إمكانية الحياة أصبحت موصَدة بالكامل في وجهكم، وبتّم تشعرون بالضيق، وكأنكم في سجن. تشعرون بالقيود في كل مكان. ستكون هناك جدران وعثرات في طريقكم أينما ذهبتم.

إن كل مسعاي هو تحطيم تلك الجدران، التي هي في الحقيقة ليست مصنوعة من الحجارة، بل من الأفكار، إذ ليس هناك ما هو أصلب من الفكر، لأنه مصنوع من المعتقدات، والكتب المقدّسة التي تحيط بك من كل جانب، وتحملها معك أينما تذهب. إنك سجين ما تحمله معك، وسجنك معلّق في رقبتك دائماً، فكيف تحطّمه؟

إن تحطيم تلك الجدران في الحقيقة سيبدو لك أشبه بالموت، لكن تحطيمها قادم لا محالة، لأنك ستخسر هويّتك الحالية. سوف تضيع منك تلك الهويّة مهما كنت، ولن تعود موجوداً. سيظهر فجأة شيء آخر: كان دائماً يتوارى في داخلك، لكنك لم تكن واعياً. سيكون هناك انقطاع مفاجئ: فالقديم لم يعد موجوداً، وقد دخل إليك شيء جديد تماماً، وهذا الشيء لا يتّصل بماضيك، ولذلك نسمّيه موتة. إنه ليس استمرارية للماضي، بل ستكون هناك فجوة بينك وبين الماضي.

فإذا ألقيت نظرة إلى الخلف، فلن تشعر في هذا الانبعاث أن ما كان موجوداً من قبل كان حقيقة، كلاّ، سيبدو كما لو أنك رأيته في حلم، أو كما لو أنك قراته في مكان ما في رواية خيالية، أو أن شخصاً آخر روى قصته هو، ولا علاقة لك بتلك القصّة أبداً. لقد اختفى القديم تماماً، ولهذا السبب نسمّي ذلك موتاً، فهو ظاهرة جديدة بالكامل تدخل حيّز الوجود. وتذكّر كلمة "بالكامل": إنها ليست شكلاً مُعَدَّلاً عن القديم، ولا صلة لها بالقديم، وإنّما هي انبعاث جديد. بيد أن الانبعاث الجديد غير ممكن إلاّ إذا كانت لديك القدرة على أن تموت. إن التصوّف هو موت وانبعاث. أمّا أنا فأسميه: "الدين".

والآن دعونا نبحر في هذه القصّة الجميلة:

كان في بخاري رجل غني وكريم وبما أنه كان ذا مرتبة عالية ضمن جماعة دينية، فقد كان يلقّب برئيس العالم.

كان في كل يوم يعطي قطعة ذهبية لصنف من المحتاجين كالمرضى، والأرامل... الخ.

غير انه لم يكن يعطوا أيّ شيء لمن يتفوّه بكلمة، ولا لمن بقي صامتاً.

الآن تابعوا معي بتأنٍّ:

كان بخاري رجل غني وكريم..

من الصعب الجمع بين الغني وبين الكرَم، فالفقراء كرماء دائماً، أمّا الأغنياء فليسوا كذلك، ولهذا السبب أصبحوا أغنياء فلو كان الغني كريماً، لحصلت ثورة. إن الشخص الغني يصبح كريماً فقط حينما يتوصّل إلى فهم عميق بأن أولئك الأغنياء لا جدوى منهم. عندما يدرك أن كل ما يمكن أن يعطيه العالم لا يستحق الأخذ، عندئذٍ فقط يصبح الكرم ممكناً.. وتبدأ بمشاركة الآخرين. أمّا خلاف ذلك، فسوف تمضي في تكديس المزيد والمزيد من الثروة، ذلك أن الفكر يستمرّ في طلب المزيد، إلى ما لا نهاية. إذا لم تكن يقظاً، فلن تكفيك كل ثروات العالم، لأن الفكر لا يتضايق مما لديك، وهو ببساطة يقول

باستمرار: "أريد المزيد"!

يقال إنه عندما جاء الإسكندر الكبير إلى الهند، التقى بأحد الصوفيين العظماء، واسمه ديوجين. اعتاد هذا الصوفي أن يعيش عارياً، وكان يتألق جمالاً وهو في عريّه. ذلك إنه من القباحة، وليس من الجَمال، أن نحاول إخفاء عريّنا.

لماذا تحاول إخفاء جسدك عن الآخرين؟ ما العيب فيه؟

الحقيقة إن المجتمع، والثقافة، والحضارة، عملوا تكييف عقلك لكي يعتقد أن هناك شيء خاطئ في الجسد، لذلك تشعر بالذنب إذا ضُبطتَ عارياً. فالقوانين توجَدُ وتسنّ لإجبارك على الاّ تكون عارياً، في حين أن الطبيعة بأكملها عارية، وهي جميلة جداً! الإنسان وحده بات قبيحاً في مكان ما. ولكن يوماً ما، عندما يصبح واعياً، سيكون أقلّ تعلّقاً بالملابس. ربما تستخدم الملابس للوقاية من الطقس البارد، فأنداك بطبيعة الحال، سوف تغطّي جسدك، ولكن عندما يكون الطقس لطيفاً، فبإمكان الشخص أن يكون بسيطاً وبريئاً كالحيوان، بل ينبغي للإنسان أن يكون كذلك. عندما تختبئ بالكامل تحت ملابسك، فسوف يفقد جسدك قدرته على الإحساس. والحقيقة أن جسدك فقد بالكامل لغة الإحساس بملمس أشعة الشمس، والتمتع بها. فقدت الإحساس بالريح وهي تلمس جسدك العاري، مثلما تشعر الأشجار بها وتتراقص. إن ما بقي عارياً، عدا جسدك الذي فقد الإحساس برمّته، هو وجهك، ورأسك فقط.

لقد عاش ديوجين عارياً، لكن عريّه كان جميلاً جداً، لأنه كان بريئاً. بيد أنك تستطيع أيضاً أن تعيش عارياً، وفاسداً، لكنك حينها لن تكون جميلاً. ربما تكون شخصاً استعراضياً، ولكن في تلك الحالة، سيكون ثمة خلل في بنيتك النفسية.

لقد عاش ديوجين عارياً كالحيوانات، وقد قيل إن الاسكندر شعر بالغيرة منه. كان الاسكندر يرتدي أغلى الثياب، ومع ذلك شعر بالغيرة، فكما قيل، عندما رأى ديوجين عارياً، قال بحسد: "يا لجماله"، ثم سأله: "كيف لي أنا أيضاً أن أكون مثلك: في غاية البراءة والجمال؟". فأجاب ديوجين بينما كان يستلقي على ضفة النهر: "لا يوجد شيء أسمه كيف لي".

كان اليوم صباحا، وكانت الشمس ترتفع، ولابد أنه كان يستمتع بأشعة الشمس الدافئة، وبالشِّعر، والرسائل الرقيقة التي تأتي إلى جسده العاري من خلال الرمال.

قال ديوجين: "لا حاجة لأن تسأل كيف؟ فإن ضفّة هذا النهر تتسع لكلانا! اخلع ثيابك واستلق مثلي".

لا توجد كلمة "كيف" لتسأل كيف، بل لماذا تسال كيف؟ يا لها من حيلة يستخدمها العقل للتأجيل. عندما تسأل كيف، فأنت تسأل كيف أؤجّل.. لأنك تقول لابد أن هناك عمل يجب مزاولته، ومزاولة العمل تأخذ وقتاً، وبالطبع، لا يمكنك أن تفعل ذلك الآن، وإن غداً سيأتي، وعندما يأتي يوم غدٍ، فتكون قد انتهيت.

ثم أردف ديوجين قائلاً: "ليست مسألة كيف! عليك إلا أن تتمدد وتستريح! فهذه الضفّة تتسع لكلينا".

فقال الإسكندر: "سأفعل ذات يوم، فقد كنت أحلم دائماً أنه ذات يوم ستكون هناك إمكانية لفعل ذلك.. عندما أغزو العالم بأكمله، وأنا أنتظر ذلك اليوم، حينها، سوف أستلقي وأستريح أنا أيضاً".

فضحك ديوجين وقال: " حينها ستكون غبيّاً، لأن ديوجين يستطيع أن يستلقي ويستريح من دون أن يغزو العالم، فلماذا تضع شرطاً؟ أقول لك إن "حينها" هذه لن تحدثَ أبداً، فالعقل سيطلب المزيد، لأنك عندما تغزو هذا العالم، فسوف يسأل العقل: "هل هناك عالمٌ آخر؟".

وقد سجّلت المدونات التاريخية إنه عندما قال ديوجين: لا يوجد عالمٌ آخر. لكن العقل سوف يسأل: "هل هناك عالم آخر"؟ فشعر الاسكندر بالحزن.

لقد حل عليه الحزن فجأة بمجرّد معرفة أنه لا وجود لعالمٍ آخر. والحقيقة أنك ما إن تنتهي من غزو هذا العالم، حتى تسأل: ماذا سأفعل؟ وبما أنه لا يوجد عالمٌ آخر، فسوف يشعر العقل بإحباط شديد.

إن العقل يستمر في طلب المزيد، وهو لا يكترث بما لديك، فقد تكون متسوّلاً، فيطلب المزيد، وقد تكون إمبراطوراً، فيطلب المزيد أيضاً، ذلك أنه من طبيعة العقل أن يطلب المزيد، وهذا لا علاقة له بما لديك، لأن جوهر طبيعة العقل أن يستمرّ في طلب المزيد. فالغني يستمرّ في طلب المزيد، ويظلّ فقيراً، ثم يستمر في التوق إلى المزيد، ويظلّ فقيراً.

إذن، من الصعب العثور على رجل غني حقيقي.

في الحقيقة لم أصادف في حياتي كلها سوى رجلا غنيّاً واحداً. التقيت بالكثير من الأشخاص الأثرياء، إنّما لم يكن هناك سوى شخص واحد غنيّ فعلاً. ولكن لماذا كان غنيّاً بالفعل؟ لقد كان غنيّاً لأنه فهم عدم جدوى الغنى. فعندما التقيت به أول مرّة، جلب معه ملايين الروبيّات ورماها عند قدمي. فقلت: "حالياً لست بحاجة لهذا المال، وإذا احتجت له ذات يوم، فسوف أبعث لك برسالة".

فاخذ ذلك العجوز يبكي بحرقة، ولم افهم ما الذي حصل. فقال لي: "لا تقل هذا، ذلك انني شخص فقير جداً، ولا أملك شيئاً آخر سوى المال، فإذا رفضت نقودي، تكون قد رفضتني، فأنا لا املك شيئاً آخر.

المال هو ما يمكن أن أقدمه، فهو كل ما أملك، ولا شيء آخر".

هذا هو الرجل الذي فهم أن الثراء ليس غنىً حقيقياً، وأن المرء يظل فقيراً به.

كان في بخاري رجل غني وكريم..

إن "الكَرَم" يعني انه عاش حقيقة من خلال الثراء، واختبر العالم، ثم توصّل إلى قرارٍ بان العالم ليس أكثر من حُلُم، وأن الثروة لا تمنحك سوي وهم الغني، لكنها لا تجعلك غنيّاً بالفعل.

هذا الرجل قد تحرّرَ من الوهم، ولهذا السبب أصبح كريماً، فهو الآن يستطيع مشاركة الآخرين في ثروته، ويستطيع أن يعطي كل شيء من دون أن يطلب المزيد.. بل على العكس من ذلك، فهو يوزّع كل ما يملك، ويشارك الآخرين به.

وبما أنه كان يحظى بمرتبة عالية ضمن جماعة روحيّة خفيّة...

إن مثل هذا الرجل أصبح على الفور ذا منزلة رفيعة في عالم الوعي. فإذا استطعت أن تشارك الآخرين بأيّ شيء تملكه، فسوف ترتقي فجأة ضمن هرمية روحية غير مرئيّة. ربما تبدو في هذا العالم متسوّلاً، أمّا في العالم الآخر، فسوف تصبح إمبراطوراً لأوّل مرّة.

لقد تخلّى بوذا عن قصوره، ومملكته، وثرواته، وغدا متسوّلاً. وعندما عاد إلى مدينته الرئيسية، كان والده يستشيط غضباً.. مثل كل الآباء، لأنه من الصعب أن تجد أباً لا يغضب من ابنه، ولأنك مهما تفعل، فلن يغيّرَ ذلك من الأمر شيئا: قد تصبح مجرماً، فيغضب منك، وقد تصبح قدّيساً، فسوف يغضب منك أيضاً... بل سيغضب منك حتى لو أصبحت بوذا.....

والسبب هو أنك لا تستطيع إرضاء توقعات الآخرين أبداً، فذلك مستحيل، إذ كيف يمكن أن ترضي توقعات أي شخص؟ إنه نفسه لا يستطيع تحقيقها، في حين يتوقع منك أن تحققها، وبالتالي، مهما تفعل، فسيكون ضلالاً.

كان الأب غاضباً جداً، وكان بوذا قد أصبح شخصاً مستنيراً. لقد عاد، لكنه عاد كائناً متغيّراً بالكامل، وقد بُعِثَ من جديد. كان مُحاطاً بالصمت، وبهالة لا متناهية من النور. وقد قيل إنه عندما كان بوذا يتحرك، كانت الأشجار تتحرك أيضاً، إذ حتى الأشجار كانت تشعر بحضوره، وكانت الأزهار تتفتح في غير موسمها. كان يحدث فجأة صمت عميق لمسافة اثنا عشرة ميلاً حوله عندما كان يتنقّل من مكان إلى آخر. أمّا الأبُ، فكان استثناءً: كان في منتهى الغضب، فلم يشعر بالصمت، ولم يشاهد النور المنبعث منه، وإنّما شاهد متشرّداً، ومتسوّلاً. فقال: "هذا يكفي! لقد تسكّعت لغاية الآن بما فيه الكفاية. عُدْ، فأبوابي لازالت مفتوحة. انظر إلى نفسك: ابن الإمبراطور يتسوّل الطعام في عاصمته نفسها؟ انظر إلى وعاء التسوّل الذي تحمله، وإلى ملابسك الممزّقة! تكاد تكون أسمالاً. ماذا تفعل بنفسك؟ إنّي أشعر بالخجل بسببك. بيد انّي لديّ قلب.. وقلبُ أبٍ، وأبوابي لم تُغلق بعد. لقد آذيتني بعمق، ولكن رغم ذلك، فلازال لدي قلب أبٍ. عُد! لا تتنقّل كمتسوّل.. كن إمبراطوراً".

ويقال إن بوذا أجاب والده قائلاً: "لقد كنت متسوّلاً، والآن أصبحتُ إمبراطوراً.. ولكن كيف أقنعكَ؟ كنت متسوّلاً عندما كنت أعيش في القصر. عندما اعتقدتَ أنني سأرث مملكتك: كنتُ متسوّلاً، ومسجوناً. أمّا الآن، فأنا حرّ بالمطلق. وهذه هي المرّة الأولى التي أفهم فيها ماذا يعني أن أكون إمبراطوراً. ولكن كيف أقنعك؟".

في اللحظة التي تبدأ فيها بالمشاركة، فسوف تُظهَرُ أن وعيك وصل إلى مرحلة من التطوّر، حيث الإنسان المتطور يشارك دائماً. أمّا إذا كنتَ متعلّقاً بأشيائك، فأنت لم تنمو، ولم تتطور بعد، بل إنك مجرّد حَدَث. لماذا؟ لأنك تستطيع امتلاك الشيء إذا شاركتَ به فقط، وليس هناك امتلاك بغير مشاركة. إذا تشبثت بالشيء، فهذا يعني أنه أكبر منك، وأكبر من حبّك، وأكبر من كيانك، ولهذا السبب تتشبّث به. فروحك مُمتَلَكة. إذا لم تستطع المشاركة، فلا تستطيع أن تكون كريماً.

وبما أنه كان يحظى بمرتبة عالية ضمن جماعة روحية خفيّة، فقد كان يلقّب برئيس العالم.

الصوفيّون يمنحون مثل هذه الألقاب لمتسوّليهم: "رئيس العالم". ولكن لا تُسيء الفهم! ليس رئيساً بمعنى الرئيس فورد، أو نيكسون، فهؤلاء هم أفقر رجال في العالم، وفي أسفل القائمة، ويعيشون في وهم أنهم الأوائل، في حين ينبغي أن يضعوا أنفسهم في أدنى درجة. وحدهم الذين لم ينخدعوا بهذا العالم، يمكنهم أن يتربّعوا على القمة، وبمقدورهم أن يكونوا في أدنى درجة.

يقول المسيح: "اولئك الذين يأتون في الآخر في هذا العالم، سيكونون الأوائل في ملكوت ربي".

لابد وان المسيح كان يتحدّث عن مثل هذا الرجل: الغني والكريم.

وأنا أقول لكم: إذا كنتم كرماء، فأنتم أغنياء، وإذا لم تكونوا كرماء، فأنتم تعيشون في وهم انكم اغنياء، لكنكم فقراء. إن الكَرَمُ هو الغِنى الحقيقي.

لكي تكونوا كرماء، فعليكم ان تشاركوا الآخرين بكل ما تملكون. قد لا تملكون الكثير، لكن ذلك ليس مهمّاً. فمن الذي يملك الكثير؟ من الذي سبق وأن امتلك ما يكفي؟ الحقيقة ليسوا كثيرين، ولم يكن ذلك كافياً. ربما لا تمتلك شيئاً على الإطلاق، وربما تكون مجرّد متسولٍ على قارعة الطريق، لكنك تستطيع أن تظلّ كريماً. الا يمكنك أن تبتسم عندما يمرّ بجانبك شخص غريب؟ بإمكانك أن تبتسم، وباستطاعتك أن تتقاسم كيانك معه. عندئذٍ تكون كريماً. ألا تستطيع الغناء عندما ترى

شخصاً حزيناً؟ في الحقيقة تستطيع أن تكون كريماً، فالابتسام لا يكلّف شيئاً. غير أنك أصبحت بخيلاً جداً، إلى درجة أنك تفكّر مراراً: هل أبتسم، أم لا؟ هل أغنّ، أم لا؟ هل أرقص، أم لا؟... وفي الحقيقة، المسألة هي أن نكون، أو لا نكون.

شارك بكيانك إذا كنت لا تمتلك شيئاً، فهذا أعظم غِنى، وكل إنسان يولد به. شارك الآخرين كيانك، مُدَّ لهم يدك، توجّه نحوهم بمحبة، ومن صميم قلبك. لا تعتبر أحد غريباً، فلا أحد غريب. إذا شاركت الآخرين، فلن يكون أحد غريب. أمّا إذا لم تشارك الآخرين، فسيكون الجميع غرباء.

ربما تكن شخصاً ثرياً جداً، ولكنك بخيل لا تشارك أحداً، عندها سيكون أطفالك وزوجتك غرباء، إذ كيف يمكن أن تجتمع بإنسان بخيل؟ إنه شخص منغلق. إنه في الأصل شخص ميّت في قبره، فكيف تتوجه نحو شخص بخيل؟ إن فعلت هذا، فسوف يهرب. إنه يخاف دائماً، والسبب هو أنه حينما يقترب منه شخص ما، فستبدأ المشاركة. حتى الأيدي التي تتصافح، تجعل البخيل يشعر بالخطر، لأنه من يدري؟ ... فقد تنشأ من جرّاء ذلك صداقة، وفي ذلك خطر مُحدِق.

إن البخيل شخص حذرٌ دائماً، ومحترس.. لا يسمح لأيّ شخص بالاقتراب منه كثيراً، ولهذا يبقي الآخرين بعيدين عنه. فالابتسامة خطرة، لأنها تُلغي المسافات: إذا ابتسمت لشحّاذ في الطريق، فستلغي المسافة بينك وبينه، ولن يعود شحّاذاً، بل صديقاً. وإذا كان جائعاً الآن، فعليك أن تفعل شيئاً لتطعمه. لذلك من الأفضل أن تمضي من دون ابتسام، فهذا آمن، وأكثر توفيراً، وأقل خطراً.. وليس فيه مجازفة.

في الحقيقة، ليست المسألة أن تشارك بشيء ما، بل المسألة تكمن في المشاركة البسطة بما لديك! فإذا لم تكن تملك شيئاً، فلديك الجسد الدافئ: إذ يمكنك أن تجلس بالقرب من شخص ما، وتمنحه دفأك. يمكنك أن تبتسم.. ويمكنك أن ترقص، أو تغنّي؛ يمكنك أن تضحك، وتساعد الآخرين على الضحك، فعندما يضحك شخصان معاً، يصبح كيانهما واحداً في تلك اللحظة، وعندما يبتسم شخصان لبعضهما البعض: ستختفي المسافة بينهما فجأة.

لذلك، لا تظن أنه يجب أن تكون غنيّاً لكي تكون كريماً، بل على العكس تماماً: إذا أردت أن تكون غنيّاً، فكن كريماً، ذلك أن الثروات مُتاحة دوماً، والكثير من الهدايا التي تجلبها في حياتك، ستأخذها لنفسك بموتك.

يمكنك أن تشارك، ومن خلال المشاركة، ستدرك كيف يجعلك الوجود غنيّاً، وكيف تعيش فقيراً. فكلّما شاركت أكثر، كلما أخذ كيانك يتدفق أكثر. وكلما تدفّق أكثر، كلما ملأت الينابيع النهر مجدداً، فتبقى مفعماً بالحيوية.

وحده الشخص الكريم من يمتلئ بالحيوية، أما غير الكريم، والمنغلق، والبخيل، فيصبح شخصاً قذراً. ولا بد أن يكون كذلك، فهو أشبه بالبئر: فلا أحد يقترب منه، ولا هو مستعدة لأن يعطي ماءه لأي شخص. عندها ما الذي سيحدث للبئر؟ لن تزوّده الينابيع العذبة بالماء، لأنه لا حاجة لذلك. ستصبح الماء القديمة أكثر وأكثر قذارة، وسوف يموت البئر بكامله. أمّا المياه العذبة، والمتجددة، فلا تنتهي إلى هذه النتيجة.

هذا ما يحصل مع الكثير منكم.

فادعوا الناس ليشاركوكم.

ادعوا الناس ليشربوا منكم.

ذلك ما عناه المسيح في قوله: "كلوني، واشربوني". فكلما أكلتموه، كلما كبر المسيح أكثر. وكلما شربتموه، كلما تدفق فيه

الماء العذب المتجدد أكثر. إن الثروات التي منحتَها لك الحياة ليست محدودة، غير أن ذلك لا يعرفه سوى الشخص الكريم. والحقيقة أنها ثروات غير محدودة. إنك لست شركة محدودة المصادر، فخلفك يتوارى الإلهي، ولا أحد يستنفذه. فلتنشد الكثير من الأغنيات قدر ما تستطيع، فلن تُستنفَد، بل على العكس من ذلك: سوف تَحضُرك أفضل الأغاني وأجملها.

قيل أن أحد أعظم الشعراء في الهند، وهو رابيندراناث طاغور، إنه عندما كان يحتضر، جاءه صديق من أحد النقّاد المثقفين وقال له: "تستطيع أن تموت الآن وانت في غاية الرضا لأنك انشدت الكثير من الأغنيات. ذلك أنه ما من أحد انشد هذا العدد الكبير من الأغاني". لقد كتب طاغور ستة آلاف أغنية. امّا الشاعر الكبير شيللي، فكتب الفي أغنية فقط. أمّا طاغور فكتب ستة آلاف قصيدة، وكل قصيدة هي اعجوبة بحد ذاتها، وجوهرة جميلة ونادرة، فكان الصديق محقاً في قوله: "تستطيع أن تموت وانت في غاية القناعة والرضا، فقد أنشدت الكثير من الأغنيات، ولا يمكن أن ينافسك حتى كاليداس او شيللي". كانت الدموع تنهمر من عيني طاغور عندما كان الرجل يقول ذلك. لم يصدّق الرجل هذا، فقال: "أتبكِ! هل تخشى الموت؟ لم أكن لأصدّق أن شخصاً كان يُنشِدُ طوال حياته بأن الموت هو صديق عظيم، أنه يخشى الموت"؟

فقال طاغور: "كلا. لست أخشى الموت، فالموت جميل مثلما الحياة جميلة. إنني أبكي وانحب لأن أفضل الأغاني كانت تأتي متأخرة. لقد كنت طفلاً حتى هذه اللحظة، والآن حدث النضج، والله يزيد من عطاياه لي: فكلما غنيت أكثر، كلما تدفق الغناء أكثر. والحقيقة أن آلتي الموسيقية "الفينا" باتت الأن جاهزة، والوقت يوشك أن ينقضي. إن هذا غير عادل، فانا الان أشعر أنني مستعد للغناء بالفعل"!

بيد أنني أقول لكم: حتى لو عاش طاغور ألف سنة، لكان قد حصل الشيء ذاته، لأن التدفّق شيء أبدي.

فشاركوا، واعلموا أن المشاركة هي تدفّق أبدي. غنّوا، واعلموا أن الغناء قادمٌ أبداً، ولا نهاية له.

حتى بعد ألف سنة، كان سيموت طاغور وتنهمر الدموع من عينيه، وذلك بسبب استمرار تدفق المزيد من أغنياته. والحقيقة أنه لا أحد يمكنه استنفادها. الله لا يُستَنفَد، وفي داخلك إله، فلِما أنت بخيل جداً؟

كن حزيناً فتصبح فقيراً.

كن كريماً فتصبح غنياً.

تستطيع أن تكون كريماً الآن، وأنت في وضعك الحالي، لأنه لا توجد فرصة اخرى لذلك، عليك ببساطة أن تفهم ذلك لتصبح كريماً! لا شيء ينقصك، وكل ما تحتاجه لكي تكون كريماً، هو في الأساس حالة الفهم ذاتها.

ولهذا كان رجل بخاري يُعرَفُ برئيس العالم.

كل يوم كان يعطي قطعة من الذهب لصنف من الناس، المرضي، والأرامل.. إلخ. لكنه لم يكن يعطي شيئاً من بتفوه بكلمة.

وكذلك ليس لكل من ظل صامتاً.

فيا لها من أسطرٍ حبلى بالمعاني العميقة.

لو ذهبت إلى معبد، وأصبحت صلاتك رغبة، فلن تكون مسموعة. لأن الصلاة غير ممكنة إلاّ عندما لا تكون هناك رغبة. إن

الرغبة لن تتحوّل إلى صلاة أبداً، فإن طلبت شيئاً، فسوف تخسر صلاتك، لأنك حينها لا تصلّي، والله يعلم ما أنت بحاجة له.

كان هناك صوفي قدّيس اسمه بايزيد[3]، وكان يقول دائماً: " الله أعلم بحاجتي، ولهذا فما دعوت أبداً.. لأن الدعاء حماقة! فماذا أقول له؟ إنه يعلم أساساً، ومن الحماقة أقول له شيئاً يعرفه.

وإذ حاولت البحث عن شيء لا يعلمه، فتلك حماقة أيضاً، إذ كيف تبحث عن مثل هذا الشيء؟ لهذا السبب لا أكترث أبداً، فمهما تكن حاجتي، فهو يعطيها دائماً.

لكنه في ذلك الحين كان فقيراً جداً، وجائعاً، وكان يُنبَذُ في البلدة التي كان يمرّ بها، ولم يكن أحد مستعداً لأن يقدم له مأوى يبيت فيه. كان الظلام دامساً، وكان يجلس تحت شجرة.، كان الخطر محدقاً خارج البلدة، فقال له أحد الأتباع: "ما هذه الحال؟ إذا كان الله يعلم أن حبيبه بيازيد واقع هكذا مشكلة – وهي أن البلدة رفضته، وبأنه جائع، وبلا طعام، وبلا مأوى، والوحوش الضارية تحيط به، ولا يستطيع حتى النوم – فأي إله هذا الذي تتحدث عنه وهو يعلم بكل حاجاتك؟ فضحك بيازيد وقال: "إنه يعلم بأن هذا ما أحتاجه في هذه اللحظة. إن هذا ما أحتاجها وإلا كيف/ ولماذا هو موجود؟ إن الله يعلم متى تحتاج للفقر، ومتى تحتاج للغنى. كما أن الله يعلم إلى متى عليك أن تستمر في صيامك، ومتي ينبغي لك أن تتناول الطعام. إنه يعرف! هذا ما أحتاج له الآن".

لا يمكنك أن تطلب، فإن طلبت، فلن تُعطي. بل إنك في السؤال بحد ذاته تبرهن على أنك لست قادراً على التلقّي بعد. ينبغي أن تكون الصلاة صامتة، لأن الصمت صلاة. عندما تأتي الكلمات، فسوف تتبعها الرغبات على الفور، ذلك أن الكلمات هي وسيلة لنقل الرغبة. أمّا في الصمت، فكيف يمكنك أن ترغب بشيء؟ هل جرّبت ذلك: كيف يمكن أن ترغب بشيء وأنت صامت؟ ستكون بحاجة إلى لغة تطلب بها.

إن كل اللغات تنتمي إلى عالم الرغبة. لهذا السبب يصرّ كل العارفين على الصمت، لأن الرغبة ستتوقف بالكامل، فقط عندما لا تكون هناك أيّة كلمة في ذهنك، أمّا خلاف ذلك، فستتربص الرغبة خلف كل كلمة.

ومهما تقول، بل حتى لو ذهبت إلى المعبد، أو إلى المسجد، أو إلى الكنيسة وقلت: "لا أرغب بشيء"، فهي رغبة. ما عليك إلاّ أن تنظر، وتراقب، وسوف ترى أن الرغبة تختبئ في مكان ما، لقد سمعتَ أنه ما لم تتوقف عن الرغبة، فلن تعطى، ولهذا السبب تقول: "أنا لا أرغب".. لكي تحصل عليها. غير أن الرغبة تترصّد لك في الخلف، وتتواجد في الظل، وإلاّ فما حاجتك لكي تقول: "أنا لا أرغب بشيء"؟

إذن كن صامتاً، لأن الصمت وحده صلاة.

لهذا فإن كل الصلوات التي كنت تؤديّها كانت زائفة. كل الصلوات التي تم تلقينها لك لم تكن صلوات على الإطلاق، بل كانت طقوساً ميّتة. هنالك صلاة وحيدة فقط، وهي أن تكون صامتاً. أن تكون صامتاً جداً بحيث لا تطفو ولو كلمة واحدة على سطح بحيرة وعيك، كي لا يكون هناك تموّج، وتكون البحيرة صامتة تماماً، فتتحوّل إلى مرآة تعكس الوجود.. مرآة تعكس الله. وفي لحظة الصمت تلك: تكون قد حصلت على كل شيء.

إذن، تقول القصة:

كان في كل يوم، يعطي قطعة ذهبية لصنف من المحتاجين: مثل المرضى، والأرامل.. إلخ. ولكن لم يكن يعطي اي شيء لمن يتفوّه بكلمة.

تقول هذه القصة الصوفية: "أبق فمك مغلقٌ تماماً". ليس ظاهرياً فقط، بل داخليًّاً أيضاً.

حينها سيعطي الكثير لك. عندما لا تطلب، فسوف تعطي الكثير. أمّا عندما تطلب، فلن تحصل على شيء. يبدو أن هذا تناقضاً، لكنه القانون الأساسي للوجود. فلا تطلب.. وستدرك فجأة أن الكثير في طريقه إليك.

حدث ذات مرّة أن جاء إلى شخص إلى بايزيد وقال له: "لقد تحطمت حياتي بسبب تعاليمك، فمنذ عشرين جئت إليك وقلت لي: "إذا لم تطلب فسوف يلاحقك الغنى. إذا لم تسعَ وراء شيء، فسوف يُعطى لك كل شيء. إذا لم تتق لامرأة جميلة، فسوف تأتي إليك أجمل امرأة". لقد ضاعت عشرون سنة! ولم تأتِ امرأة واحدة، ولا حتى امرأة بشعة. وظللت فقيراً دون أن أغتني. لقد دمّرتَ حياتي، فماذا تقول الآن؟".

فقال بيازيد: "كان سيحدث ذلك، لكنك كنت تنظر خلفك كثيراً، كنت تنظر المرّة تلو الأخرى لترى ما إذا أتت أم لا. لقد كانت الرغبة موجودة، وقد فاتتك بسبب الرغبة، وليس بسببي. كنت تنتظر دوماً وتقول: "الآن ستأتي إلى امرأة جميلة وتقرع الباب. الآن ستأتي آلهة الثروة". لم تكن صامتاً، ولم تكن في حالةٍ من انعدام الرغبة.

يقول الصوفيون: "عندما لا تطلب، فتعطى". وهذا المبدأ يمضي ابعد من تعاليم المسيح. فالمسيح يقول: "اطلبوا تعطوا. اقرعوا يُفتح لكم". أمّا الصوفيّون فيقولون: "اطلبوا فلن تعطوا.

اقرعوا الباب برؤوسكم، وسيكون أكثر إغلاقاً من أي وقت مضى".

ولكن ليس لكل من ظلوا صامتين...

ولكن حتى بمعرفة أن هذا الرجل، رجل بخاري الكريم، سوف يعطيك فقط إذا بقيت صامتاً، إلاّ أن هذا أمر في غاية الصعوبة، فالعقل يقول: "استغث! أخبره عن الوضع برمّته حتى تأخذ منه أكثر ما يمكن".

جميلة هذه القصة، لأنها الآن تتعلّق بمحام، فأي شخص آخر يمكنه أن يبقي فمه مغلقاً، ولكن ليس المحامي. إنه يعرف كيف يستغيث في المحكمة. كما أنه يعرف كيف يُقنع ويُغري القاضي. يعرف أنك إذا بقيت صامتاً، فسوف تخسر القضيّة.

إن الكلمات مهمة جداً في هذا العالم، والمحامي يعتاش من الكلمات، لأن المحكمة هي معبد هذا العالم. فهل رأيت مباني المحاكم العليا؟ إنها معابد الآن، وقد اتفق الكثير عليها، لماذا؟ حتى المعابد بانت صغيرة جداً، لكن مباني المحاكم العليا ترتفع وتتضخم أكثر فأكثر. والسبب في الحقيقة، هو أن القوّة موجودة: قوّة العنف والجريمة، وقوّة القانون، وقوة اللغة والمنطق، والمحامي شخص منطقي.

لقد عرف جيّداً أن هذا الرجل لديه شرط: وهو أنك إذا بقيت صامتاً، فسوف يعطيك، وإن طلبت فلن يعطيك. ولكن ليس لكل من ظل صامتاً. إنه لمن الصعب البقاء صامتاً.

تعرفون أنني قلت لكم مراراً وتكراراً: كونوا صامتين! أليس كذلك؟ لقد قلت لكم مراراً وتكراراً، قلت لكم ألف مرّة، إن الله جاهز لأن يعطيكم، ولكن أظهروا استعدادكم للتلقي من خلال الصمت.

لكنكم لم تظهروا ذلك. تريدون القول لله انكم حقيقةٌ في غاية التعاسة والعذاب والقلق، بحيث تحصلون منه على أكثر ما يمكنكم.

ذات يوم جاء دور المحامين استلام حصّتهم من الهبه، ولم يكن بمقدور أحد المحامين ان يكبح نفسه من الكلام، فأخذ يستفيد بأقصى ما يمكنه، فلم يحصل على شيء. ومع ذلك، لم تكن هذه نهاية محاولاته.

من الصعب أن تتخلص من محام، فهو سيبحث عن أساليب أخرى. بما أن ذلك غير ممكن، فسيفتش عن أساليب أخرى، وسيبحث عن ثغرات. سوف يحاول الدخول إلى المنزل من مكان آخر.. ربما من الباب الخلفي..

لدي صديق عظيم كان محامياً مشهوراً جداً. كان يقول لي إنه ذات مرة كان يرافع في قضية في محكمة رجل تقيّ جدّاً.. لقد كنت أعرف ذلك القاضي: كان بالفعل رجلاً تقياً. ولم يكن يقبل أية رشوة، بل على العكس، فإذا حاول شخص رشوته، فسوف يخسر قضيته بالتأكيد. إذن، ما الذي فعله المحامي؟ لقد حاول رشوة القاضي ولكن باسم الطرف الأخر. لقد وجد الحل، وبالطبع، فقد خسر الطرف الآخر.

أرسل وكيلاً باسم الطرف الآخر، وحاول أن يرشو القاضي، فغضب غضباً شديداً.. وبالطبع، فقد خسر الطرف الآخر القضية، رغم أنه كان على حق في قضيته.

لم يتوصل أحد لمعرفة كيف خسر القضية. كان الطرف الآخر مذهولاً أيضاً، فمع هذا الرجل التقي كان من الموكد تماماً انهم سيكسبون القضية. كانت المسألة بسيطة جداً! ولم يكن فيها شيء معقّد. ولكن كيف خسروا القضيّة؟

دائماً يعثر المحامي على وسيلة. فإذا كان بمقدوره أن يدخل من الباب الأمامي، فلا بأس؛ وإلاّ فسيدخل من الباب الخلفي. إن دخل في النهار، فلا بأس في ذلك؛ وإن لم يكن في النهار، فسيدخل في الليل.

ومع ذلك، فلم تكن هذه نهاية محاولاته. ففي اليوم التالي، جاء دور المقعدين في المساعدة، فتظاهر المحامي بأن رجلاه مكسورتان، غير أن الرئيس عرفه، ولم يحصل على شيء.

إن الرئيس هنا مسالة رمزية، فكلمة "الرئيس" يقصد بها الوعي الأعلى الذي يعرف دائماً الوعي الأدنى. إذ لا يمكنك أن تخدع الوعي الأعلى ما لم يكن هو ذاته يريدك أن تخدعه.

فكيف يمكنك خداع الوعي الأعلى؟

غير أن الرئيس عرفه، ولم يحصل على شيء. لقد حاول مراراً وتكراراً، حتى انه تنكّر في زيّ امرأة.

في البلدان الإسلامية تستطيع أن تتنكر في زي امرأة دون أن يكون أحد قادراً على معرفة ما إذا كنت رجلاً أم امرأة.

... ولكن من دون نتيجة.

الحقيقة أنه لا يمكنك خداع الوعي الأعلى. فلا تحاول أن تخدع معلّماً. بيد أنك تحاول، بسبب عقلك المنطقي، المحامي، الذي يحاول بشتّى الطرق.

والواقع أن هذا الأمر يحدث معي يومياً: فمن النادر انكم لم تخدعوني، او لم تحاولوا خداعي.

يأتي إليّ شخص، فأرى أنه سعيد، ويمتلئ منذ الوهلة الأولى بفرح مجهول السبب، فأسأله: "كيف حالك؟" فيهز كتفيه قائلاً: "ما بين بين". لماذا يحاول خداعي؟ إنه يريد مني تعاطفاً أكثر، وهذا ما يفعله. فلو قال إنه فَرِح وسعيد، فلا حاجة إذن لأي تعاطف. والحقيقة هي أنك أحمق جداً في أساليبك: إذ تطلب التعاطف، في حين أنك حاصل على الحب.. ومع ذلك تطلب التعاطف.

يمكن إعطاء الحب للشخص السعيد، أمّا التعاطف فيعطى للشخص غير السعيد. لا يمكن منح الحب لمن ليس سعيداً، فذلك مستحيل. إنه ليس بمزاج سليم، ولا يمكنك منحه الحب؛ يمكنك التعاطف معه فحسب، والحقيقة أنه يمكن منح الحب عندما يكون الشخص سعيداً، ويتدفق بالسعادة؛ وعندئذٍ يكون على الموجة الصحيحة، ويكون الحب ممكناً.

كنت على وشك أن أمنحك الحب، لكنك حاولت خداعي... فحصلت على التعاطف فقط، إذ لا يمكنك خداعي، بل إنك تخدع نفسك. بيد أنك أصبحت مُدَرّباً جداً في الخداع، وهذا لأنك كنت تفعل ذلك طوال حياتك.

إن المرأة في المنزل تغنّي وتدندن، وهي سعيدة. لكنها عندما تسمع صوت سيارة زوجها وهو قادم، فيتغيّر وجهها. لقد أصبحت الآن جاهزة لتطلب منه التعاطف. تصبح حزينة ومتعبة، وقبل لحظة فقط كانت على خير ما يرام، ولم يحدث لها أي مكروه.

بمجرد أن سَمِعتْ ضجيج السيارة حتى تغيّرت. إن الزوج قادم.. وهي الآن تعرف الخدعة: إذا كانت غير سعيدة، فسيتعاطف معها. أمّا إذا كانت سعيدة، فسيقرأ جريدته.

لقد تعلّمتَ الخدع، وهي فعّالة!: إنها فعّالة مع المستوى ذاته من الناس الذين هم مثلك، فهم أيضاً يفعلون مثلما تفعل أنت. ربما كان الزوج يدندن أغنية بينما كان يقود سيارته، وعندما يصل إلى المنزل، فيصطنع التجهّم، والتعب. إنه يعمل طوال اليوم من أجل زوجته وأطفاله، وهو ميّت من التعب، لذا يحتاج إلى شخص ما ليتعاطف معه.

ولكن تذكّروا: إن التعاطف هو بديل هزيل عن الحب. فلا تركنوا للتعاطف، إذ لا قيمة له! لا أحد يُضمِرُ شعوراً جيّداً عندما يتعاطف معك، فالتعاطف يبدو عبئاً: إذ ينبغي أن يفعل ذلك بوصفه واجباً. كأن يمرض شخص، وينبغي أن تتحدث إليه. أو أنّ هناك شخصٌ مريضٌ في المشفى، وعليك أن تذهب وتتعاطف معه. إنه واجبٌ، وعلى المرء أن يؤديّه.

لا تطلب التعاطف. كن سعيداً، وسوف يتدفّق الحب نحوك. الحب عملة حقيقية، أمّا التعاطف فهو عملة زائفة. التعاطف يشبه الحب، لكنه ليس الحب، وهنا تكمن المشكلة: إنك تطلب التعاطف، وعندما تحصل عليه، فلا تشعر بالرضا.. إذ لا أحد يشعر بالرضا من خلال التعاطف. لقد كنت بحاجة للحب، في حين أنك طلبت التعاطف. لقد طلبت الطعام الخطأ، فإن أعطي لك، فسوف يؤذي معدتك. وإذا لم يُعطى لك، فسوف تتأذّى معدتك في كل الأحوال.

عندما تطلب التعاطف، ولا تحصل عليه، فسوف تصبح أكثر تعاسة، لأنه لا أحد يهتم بك. وإذا حصلت عليه، فلن يكون مُشبعاً، لأن التعاطف شيء هزيل جداً.. بل إنه لا يعني شيئاً. إنك تحتاج إلى حب حقيقي وأصلي، نابع من القلب. تحاجين إلى زوج يهرع نحوك، ولكن حينها عليك أن تصبحي قوّة مغناطيسية.. عليكِ أن تصبحي السعادة ذاتها: إذ لا أحد يهرع نحو تعاسة طائشة، وسيحمي المرء نفسه، ويتحرّك بتحفّظ.

بيد أن هذه خدع تعلّمتها. حتى عندما تأتي إليّ، فإنك تستمر في ممارسة خدعك. فقد تعلّمتها أكثر مما ينبغي.

لكن الرئيس عرفه، فلم يحصل على شيء، وحاول مراراً وتكراراً، حتى انه تنكّر في زيّ امرأة.. ولكن من دون نتيجة.

لا تستطيع أن تُخفي نفسك، لأن الوعي الأعلى يعني ببساطة الوعي النافذ. إنه لا يخترق ثيابك فحسب.. بل يخترق جسدك أيضاً، فهو أيضاً ثوب، لكنه ثوب طبيعي. إنه يخترق عقلك، وهو بدوره ثوب ايضاً، لكنه ثوب ثقافي، إنه يخترق صميم كيانك، ويصل إليك مباشرة. فكن حقيقيّاً، وطبيعياً، ومرناً. كلّما اصطدمت بالوعي الأعلى: كن طبيعياً، ومرناً. ومهما تكن.. ضع كل شيء على الطاولة، ولا توفّر حتى الورقة الرابحة. ضع كل شيء؛ ضع كل أوراقك، واكشفها على الطاولة. سوف تتلقّى الكثير من الحب.. بل سوف تتلقى كل شيء، لأنك عندما تضع نفسك عارياً بالكامل، فهذا يعني أنك مستعدٌ للموت. اكشف نفسه، ومن دون حماية، فتصبح عُرضَةً.

إن المعلّم هو الموت.

في الواقع، يقال في الكتب الدينية الهندية القديمة إن المعلّم هو الموت. عندما تأتي إلى معلّم، فإنك تأتي إلى موت عميق جداً، إذ حتى الموت العادي ليس موتاً عميقاً جداً، ذلك أن الموت العادي لن يقضي على الكثير من الأشياء، إذ تبقى سليم الفكر، والجسد وحده هو الذي سيتغيّر. إن الجسد القديم سيستبدل بجسد جديد. ولكن ليس الفكر. الفكر القديم سوف يستمر.

المعلّم هو موت عظيم، فإذا استطعت أن تموت من خلال معلّم، ومن خلال محبّته، وبركته، فسوف يموت جسدك، ويموت فكرك، وتموت اناك، وسيموت كل ما يمكن أن يموت. امّا الشيء الوحيد الذي لا يموت، وهو الخالد، فسوف يبقى؛ والخالد هو انت فقط، والأبدي هو انت.. الإله.

وفي النهاية عثر المحامي على متعهد لدفن الموتى، وطلب منه ان يغطّيه بكفن قائلاً: عندما يمرّ الرئيس بجانبي، فربما يفترض ان هذه جثّة، فيرمي ببعض النقود على مدفني، وبعدها سأعطيك نصيبك منها.

الآن باتت المسألة مسألة صراع، فالمحامي يسعى بشتى الوسائل للتغلّب على المعلّم بحيث يتسنى له القول: "أجل، لقد خُدِعت حتى أنت". سيحاول أن تكون له اليد العليا فوق المعلّم بحيث يقول: "إنك لست أعلى وعياً مني".

هذا ما يحصل مع كل تلميذ، فالتلميذ يحاول بكل الوسائل مع المعلّم ليتأكد من: "هل هو حقيقة أعلى شأناً مني؟" إنه يحاول بشتى الطرق أن يثبت أنه: " ليس أعلى شأناً مني، فهو مثلي تماماً". بعد ذلك تكبر أناك أكثر إذا وصلت إلى نقطة أدركت فيها أن "المعلّم ليس أعلى شأناً مني.. بل هو مثلي تماماً". بعدها تتقوّى أناك أكثر. وبدلاً من أن تموت من خلال المعلّم، فإن تعيد إنعاش أناك التي تحتضر، وتزوّدها بالدم مرة أخرى.

إن كل مريد يدخل في صراع عندما يأتي إلى معلّم، ذلك أن المعلّم سيحاول قتل اناك بالكامل. سوف تحاول إنقاذها؛ وليس إنقاذها فحسب، بل تغذيتها، وجعلها أكثر حيوية، وأكثر قوّة. إن المريد يأتي إلى المعلّم لسبب معيّن، كما أن المعلّم موجود لأسباب أخرى معيّنة، يأتي المريد ممزّقاً، حزيناً، فهو لم يستطع إرضاء أناة والحياة، وها هو الآن يتجه نحو العالم الآخر، فربما يستطيع هناك إشباع غروره، إذ يمكن أن يصبح ناسكاً عظيماً، ويمكن أن يصبح أسمى رجل مستنير في العالم؛ ويمكن أن يصبح هذا أو ذاك. لقد أثبت هذا العالم فشله، وها هو الا يحاول مع العالم الآخر: فربما يجد مرساة ما، وينقذ غروره.

الحقيقة إنك تأتي إلى المعلّم لسببٍ خاطئ، وهذا طبيعي.. إنك مخطئ، فكيف يمكن أن تأتي إلى معلّم لأسباب صحيحة؟ عليك أن تأتي لأسباب خاطئة. أمّا المعلّم فموجود بالتأكيد لأسباب مختلفة. إنه يجذبك، ثم يجعلك تتقرّب أكثر فأكثر، فقط لكي يقتلك.. وهو يقتلك بالكامل بحيث تحترق بذرة الأنا في الصميم. وهذا ما يسمّيه باتنجالي ب نيربيج سامادهي: أي أن البذرة تحترق بالكامل إلى درجة أنك مهما فعلت بشأنها، فلن يخرج منها أيّ برعم.

فالمعلّم نارٌ...المعلّم موت.

في النهاية عثر المحامي على متعهد لدفن الموتى، وطلب منه أن يغطّيه بكفن قائلاً: "عندما يمرّ الرئيس بجانبي، فربما يفترض أن هذه جثّة، فيرمي ببعض النقود على مدفني، وبعدها سأعطيك قسماً منها. وهذا ما حصل بالضبط، فقد رمي الرئيس بقطعة من الذهب على الكفن، فوضع المحامي يده عليها خشية أن يأخذها المتعهد قبله، ثم قال للمحسن الكبير: "لقد رفضت إعطائي منحتي، فانظر كيف حصلت عليها"!

إنه يقول: "لقد خدعتك، فأين وعيك الأعلى؟ سيدي رئيس العالم، أين وعيك الأعلى؟ لقد فزت عليك في النهاية. إنني المنتصر، ولا تستطيع أن تحكم ما إذا كنت حيّاً، أم ميتاً"!

فأجابه الرجل الكريم: "لا يمكنك ان تكسب مني شيئاً حتى تموت".

لقد استغل الكريم الفرصة، ليس لأن المحامي خدعه، بل لكي يقدم له رسالة دقيقة: "لا يمكنك أن تكسب مني شيئاً حتى تموت".

بالطبع، هذا ليس موتاً حقيقياً، ولذلك لم تحصل على ذهب حقيقي، وإنما على قطعة من ذهب العالَم المزيّف.

إن موتك مزيّف، والقطعة التي أعطيتك إياها مزيّفة أيضاً. ولكن احفظ الرسالة التالية في قلبك: "لا يمكن أن تأخذ مني شيئاً حتى تموت".

هذه هي مجمل الرسالة لطريق الصوفي: مت!

مت كما أنت، لكي تتمكن من أن تصبح ما أنت عليه حقيقة. أمِت أناك لكي يولد في داخلك الإلهي. أمت الماضي لكي تصبح منفتحاً على المستقبل. أمِت المعلوم لكي يتمكن المجهول من اختراقك. أمِت الفكر لكي يبدأ القلب في النبض مجدداً، ولكي تتمكن من إعادة اكتشاف قلبك الذي فقدته بالكامل.

إنك لا تعرف ما هو القلب! والنبض الذي تسمعه ليس نبض القلب الحقيقي، بل هو الجزء الجسدي من القلب فحسب. هناك جزء روحي للقلب يتوارى خلف الجزء الجسدي. هذه النبضات تنبثق من الجزء الجسدي للقلب. ولكن ضمن هذه النبضات، أو بينها، توجد النبضات الحقيقية للقلب الحقيقي.. وهي الجن الروحي.

هذا هو الجزء المهم: لقد فقدت الصلة بالكامل مع الجزء الإلهي من قلبك. إنك تعيش حياة خالية من الحب.. تعيش حياة بلا قلب. إنك تشبه الصخور الصلبة. لا بل حتى الصخور ليست صلبة جداً، إذ يمكن كسرها.. وأنا أقول ذلك بدافع من تجربة طويلة وعظيمة، ذلك أنني أجد صعوبة كبيرة عندما أحاول تحطيم صخرتك، لأنها تحاول أن تحمي نفسها بشتّى الوسائل.

إنك تحاول أن تحمي عللك وأمراضك. تحاول أن تحمي عُصابك، وجنونك.. لأن هذا ما حددت نفسك به، فأنت تعتقد أنك هذه الأشياء، في حين أنك لست كذلك.

قبل أن تموت، فلن تعرف أبداً من أنت.

تستطيع الآن أن تجلس في وضعية اليوغا وتردد مانترا ماهارشي رامان: "من أنا؟ ... من انا؟ ... من أنا؟"، لكنك لن تعرف

من أنت.

ستكون تلك المانترا في العقل فقط، لكن رامان عَرَفَ نفسه من خلالها: لقد عبر من خلال الموت. حدث ذلك عندما كان في السابعة عشر من عمره، فقد كان يتأمّل بشكل متواصل منذ طفولته، ولا بد أنه كان يحمل الدافع معه من الحيوات السابقة. لم يكن يشبه الطفل العادي، ولم يكن مهتماً بهذا العالَم منذ البداية. عندما سنحت له الفرصة، كان ينتظر بعينين مغمضتين، ويغرق في صمت عميق.

عندما كان في السابعة عشرة من عمره، شعر فجأة أثناء التأمل أنه على وشك أن يموت. ذلك أنه عندما تكون في تأمّل عميق، وتشعر بأنك على وشك الموت، فهو ليس مجرّد شعور، أو تفكير شارد، بل شيء يستحوذ عليك تماماً، لأنه لا يوجد تفكير لكي يحارب الموت، ولا تستطيع أن تجادل وهو دليل ذاتي واضح جداً في العقل الصامت بأنك ستموت.

هذا الشعور يحصل لكل متأمّل.. ومباركون هم أولئك الذين يحصل لهم هذا الشعور.

لقد شعر فجأة أنه على وشك الموت.. ولا يمكن فعل شيء حيال ذلك: فالموت مؤكّد حتماً. إذن ما العمل؟ كان يجلس تحت شجرة، فتمدد، واستعد للموت. تقبّله، وأرخي جسده، إذ لا صراع مع الموت. وشيئاً فشيئاً، أصبح جسده بارداً. كان جثة هامدة. حتى لو اراد أن يحرك يديه، فما كان ليقوى على ذلك لقد فقد الصلة بجسده، وبعد ذلك شعر أن الفكر يتلاشى، مثلما يتبخّر الماء. وقريباً لن يكون هناك فكر.

كانت الصلة مع الفكر مفقودة. بعد ذلك انتظر طويلاً: فمتى يحصل الموت؟ في الحقيقة لن يحصل أبداً، فقد مضى نحو الخلود. لكنه الآن شخص جديد تماماً، والشخص القديم لم يعد له وجود. إن ابن فلان وفلانة لم يعد له وجود: رامن لم يعد موجوداً. لقد اختفى رامن فجأة، وولِد المعلّم، وأصبح إلهياً.

عندما تصل إلى قاع صميم كيانك، إلى الخالد، وتصبح إلهاً، فالله يعني أن لا وجود لشيء آخر غيره.. الله يعني الحي الذي لا يموت.

لا يمكنك أن تكسب مني شيئاً حتى تموت".

كما لا يمكن أن تأخذ مني شيئاً حتى تموت.

كذلك لا يمكن أن تحصل من الله على شيء حتى تموت.

وفي الحقيقة، إنك تعيش ميّتاً قبل أن تموت، ذلك أن حياتك ليست سوى انتحار بطيء يمتد إلى أكثر من سبعين أو ثمانين سنة، لكنه انتحار بطيء، بل موت بطيء. منذ اللحظة التي ولدت وأنت تحتضر تدريجياً.

ستعيش حياة ميّتة حتى تموت، فإذا كنت شجاعاً، واستطعت أن تقفز نحو الموت، فسوف تشرق الحياة عليك فجأة للمرة الأولى. وللمرة الأولى سيتراقص الخلود من حولك. سوف تفيض بما سمّاه السيد بالحياة الوفيرة! والآن لم تعد جدول ماء صيفيّ صغير: تجمع في الصحراء بطريقة ما، والرمال الممتدة تحيط به من كل مكان. بل تصبح نهراً عظيماً غمرته الأمطار: يفيض ويحطّم كل الحواجز، ويكسر كل القيود.. وهذه هي الحياة الوفيرة. غير ذلك لن يحصل أبداً حتى تموت.

هنا تكمن المفارقة: فالمسيح يقول: إذا تعلّقت بالحياة فسوف تفقدها؛ إذا حاولت أن تحتفظ بالحياة فلن تحصل عليها.

الطريقة الوحيدة للحصول عليها هي أن تخسرها، وهذا ما أسمّيه التنسّك. إنه تغيّر داخلي. إنه استعداد للموت. استعداد لإماتة الأنا. فما إن ينغلق باب الأنا، حتى ينفتح باب آخر هو الخلود.

وهذا ما تعنيه العبارة المبهمة: "ينبغي للمرء أن يموت قبل ان يموت".

عليك أن تموت عدّة مرات.. بيد أننا لا نتحدث عن ذلك الموت، فقد فعلت ذلك مرّات عديدة، ولم يفدك بشيء، وبقيت كما أنت. فلكي تنجو: تحتاج إلى موت أعظم من ذاك.

هناك موت يحدث بشكل طبيعي، لأن أيّ شيء يولد فسوف يموت. وأي شيء يتجمّع مع بعضه، سوف يتهاوى إلى أجزاء. لذلك سيموت جسدك، وهذا طبيعي، وقد حدث ذلك ملايين المرات، وسوف يستمر في الحدوث إذا لم تصبح يقظاً وواعياً.

هناك نوع آخر من الموت، وهذا النوع من الموت مختلف كليّاً: إنه الموت الطوعي، وليس الموت الطبيعي. ليس بأن يموت الجسد، بل أن تأخذ زمام المبادرة.. وتموت. لا تنتظر الموت، وهذا هو التنسّك. إنه يتطلب قفزة طوعية نحو الموت ذاته.

من خلال الموت تحقق الخلود.

هذا هو معنى العبارة المبهمة "ينبغي أن تموت قبل ان تموت". فبعد "الموت" تأتي البداية، وليس قبله. ولكن حتى هذا "الموت" غير ممكن من دون مساعدة.

لهذا السبب أوجَدُ هنا، فوحدك لن تتمكن حتى من الموت. إن هذا الشيء البسيط لا يمكن أن تفعله لوحدك. إنه بسيط للغاية. ولكن سيكون من الصعب عليك أن تقوم به، إذ تحتاج لمساعدة كبيرة من شخص مات قبلك. ويستطيع أن يسحبك ويدفعك، ويستطيع أن يخلق الوضع الذي يقبض فيه عليك دون أن تدري.

إن المعلّم برمي الشبكة، ويحتجز الكثير من الأسماك، وإنه لسوف يتم اختيار أولئك المستعدين للموت، أمّا أولئك الذين ليسوا جاهزين بعد، فسيعيدهم إلى النهر.

لقد جئتم إليّ من عدة مناطق من العالم، ويمكنكم الاستمرار في الاعتقاد بأنكم أتيتم إليّ. فهذه مجدداً خدعة الأنا. لقد اصطدتكم، ولهذا أنا موجود هنا.. وليس لأنكم أتيتم.

تظنون أنكم أتيتم، لكنكم مخطئون. لقد استدعيتكم بعدة أساليب ماكرة، وسحبتكم نحوي، ثم بعد ذلك تقولون إنكم أتيتم! لقد وقعتم الآن في المصيدة، وما زال الكثير منكم يحاول كي لا يتم اصطياده.

إن التنسكّ ما هو إلاّ استسلام من قِبَلكم، وأن تسمحوا لي أن أفعل ما أريد فعله. فالاستسلام ثقة: "إنني آذن لك بأن تفعل بي ما تريد، ولن أتدخّل". وهذا أشبه بذهابك إلى طبيب جرّاح وتترك نفسك بين يديه بثقة، ولكن إذا لم تثق به، وتقول: "على أن أراقب ما تفعله"، فعندئذ لن تكون الجراحة ممكنة.

يجب أن تصبح فاقد الوعي تماماً.. وفي فقدان الوعي هذا، يكون الاستسلام كاملاً. حتى لو قتلك الجرّاح، فلن تكون موجوداً لكي تعترض.

إن الثقة تعني أن تترك نفسك بين يدي شخص ما. حتى لو كان سيقتلك، فأنت على استعداد للتغاضي عن ذلك. التنسّك يعني أن تتمدد أمامي على طاولة الجراحة، وتسمح لي بقطع ما أريد قطعه. إنها عملية مؤلمة جدّاً، لأن هذه الجراحة لا يمكن

أن تتم وأنت غير واعٍ. عليّ أن أقوم بها وأنت واعٍ. لا أستطيع إعطاءك مخدّراً، فأنا لا أستخدم الكلوروفورم، ولكن بدلاً من ذلك أعطيك التأمل لكي تصبح أكثر يقظة. هذا النموذج من الجراحة مختلف كلّياً، ووعيك بحاجة له. عليك أن تكون شاهداً لأتمكن من قطع ذلك الجزء الذي هو في الحقيقة ليس أنت، وإنّما الجزء الذي أصبحت محدداً به. بالتالي أريك الطريقة التي تستطيع من خلالها أن تشعر بكيانك الداخلي الحقيقي الذي كان موجوداً قبل أن تولد، وموجود قبل أن تموت. وسيكون موجوداً بعد أن تموت.

إن الوجود يستمر بالحياة في أشكال عدة. غير أنك تحتاج إلى المساعدة لكي تشعر بالكيان الذي لا شكل له، يتوارى خلف الشكل. لقد تعلّقت بالشكل، وعيناك يغلقهما الشكل، ولابد من عملية جراحية كبيرة.

يقول الصوفي:

ان الهدية تأتي بعد هذا الموت، وليس قبله.

وحتى هذا "الموت" ليس ممكنا من دون مساعدة.

إن المساعدة ممكنة إذا استسلمت. والحقيقة أنك إذا استسلمت، فيصبح الموت ذاته الذي نتحدّث عنه ممكناً. إن الاستسلام يشبه الموت، ولهذا السبب تخاف من الاستسلام. تحاول أن تحمي نفسك، فتخطف شيئاً ميّ، لتظل كما أنت.. وذلك غير ممكن. عليك أن تموت، وعندها فقط يمكن أن تحصل على شيء ما.

إن الهدية جاهزة، وهي مُعَدّة أصلاً، واسمك مكتوب عليها لكنك لست جاهزا.

فلا يمكن ان تحصل ميّ على شيء حتى تموت.

الفصل الثاني:
لا تحكم

لا تحكموا حسب الظاهر بل احكموا حكماً عادلاً

(يوحنا 7: 24)

جاء شاب إلى ذو النون المصري وقال له: "إن الصوفيون مخطئون، إضافة إلى قوله الكثير من الأشياء الأخرى.

فنزع ذو النون خاتماً من اصبعه وناوله للشاب قائلاً: "خذ هذا الخاتم الى اكشاك السوق، وانظر ما إذا كان بمقدورك الحصول على قطعة ذهبية مقابله".

فلم يعرض عليه أحد من بين كل من السوق أكثر من قطعة فضّية واحدة ثمناً للخاتم.

أخذ الشاب الخاتم ثم عاد ادراجه.

فقال ذو النون: " والآن خذ الخاتم الى صائغ، وانظر كم سيدفع".

فعرض الصائغ ألف قطعة نسبية ثمناً للخاتم. فدُهِش الشاب من ذلك، وقال ذو النون: "ها انت تري الان ان معرفتك بالصوفيين تشبه إلى حد كبير معرفة اصحاب الأكشاك بالجواهر النفيسة، فإن رغبت بتقييم الجواهر، فعليك ان تصبح صائغاً".

يقول المسيح: "لا تحكموا"[4] ، وهذه من أعظم العبارات التي قيلت على وجه الأرض. إنها واحدة من أكثر الأشياء استحالة بالنسبة للعقل. لأن العقل سرعان ما يطلق الأحكام، ومن دون أية أرضية. لقد أطلقتم الكثير من الأحكام حتى دون النظر فيما إذا كانت هناك أرضية لها أم لا. فإن نظرتم بشكل عميق، فسترون أن المسيح كان على حق.

إن كل محاكمة خاطئة، ذلك أن العالم بأكمله مترابط بشكل عميق، وما لم تعرف الكل، فلن تعرف الجزء. إن شيئاً واحداً يقود إلى شيء آخر لأن الأشياء مترابطة بشكل تسلسلي. واللحظة الحاضرة مرتبطة بكل الماضي؛ ومرتبطة بالمستقبل برمته.

في هذه اللحظة تبلغ الأبدية ذروتها بكل ما حدث فيها، وبكل ما يحدث، وبكل ما سيحدث، فكيف تطلق حكماً؟

إن العالم ليس مجزّأً، فلو كان مجزّأً، لكان الجزء معروفاً، غير أن العالم وحدة متكاملة. إن كل الأحكام زائفة لأنها ستكون أحكاماً جزئية، وهذه الأحكام سوف تُطلق كما لو أنها أحكام كليّة.

أجل، إن المسيح محقّ تماماً في قوله: "لا تحكم"، الحكم بحد ذاته سوف يجعلك منغلقاً، بل سيكون موتاً داخلياً. كما أنك ستفقد حساسيتك، وبذلك تفقد إمكانيتك على التطوّر. سوف تنكمش وتتضاءل، وتتوقف عن النمو ما إن تُصدِرُ حكماً. إذن أعظم شيء هو أن تكون شجاعاً بما يكفي لكي لا تُصدِرُ حكماً. وفي الحقيقة إن تأجيل الحكم لهو أكبر شجاعة، ذلك أن الفكر يتلهف للحكم، وليقول هذا جيد، أو سيء، أو هذا خطأ، أو صواب. إن الفكر صبياني النزعة، فهو يقفز من حكم إلى آخر. فإذا أردت أن تخرج من نطاق الفكر، فلا تحكم. ومن دون ذلك لا توجد إمكانية للتطوّر الداخلي.

سأروي لكم قصة صغيرة، وهذه القصة حدثت أيام لاوتسو في الصين، وقد أحب لاوتسو هذه القصة كثيراً. كان أتباع لاوتسو يروون هذه القصة ويكررونها لأجيالٍ، وكانوا دائماً يجدون الكثير والكثير من المغزى فيها. ثم كبرت القصّة وأصبحت موروثاً حياً. والقصة بسيطة: إذ كان هناك رجل عجوز في إحدى القرى، وكان فقيراً جداً، غير أن الملك ذاته كان يحسده لأنه كان يملك حصاناً أبيضاً جميلاً.

لم يشاهد أحد من قبل مثل هذا الحصان من حيث جماله، وروعته، وقوّته. لقد طلب الملوك شراء هذا الحصان وعرضوا أثماناً خيالية، لكن العجوز كان يقول: "بالنسبة لي هذا ليس حصاناً، بل شخص، فكيف تبيع شخصاً؟ إنه صديق، وليس شيئاً أملكه، فكيف تبيع صديقاً؟ كلا، إن هذا غير ممكن".

كان الرجل فقيراً، وكان هناك إغراء كبير لبيعه، لكنه لم يبع الحصان.

ذات صباح وجد أن الحصان لم يكن في الإسطبل. فاجتمع كل من في القرية وقالوا: "إنك عجوز أحمق، وقد عرفنا مسبقاً أنه ذات يوم ستتم سرقة حصانك، وأنت رجل فقير جداً، فكيف يمكن أن تحمي هذا الشيء الثمين؟ كان من الأفضل أن تبيعه، وكنت ستحصل على أيّ سعر تطلبه، بل كان يمكن أن تطلب أيَّ سعر خيالي. والآن ذهَبَ الحصان، فيا له من سوء حظ مشؤوم".

فقال العجوز: "لا تذهبوا بعيداً.. فأنا ببساطة أقول إن الحصان ليس في الإسطبل. هذه هي الحقيقة؛ وأيُّ شيء آخر سيكون حكماً. كيف تعرفون ما إذا كانت مسألة سوء حظ أم لا؟ وكيف تحكمون؟"

فقال أهل القرية: "لا تحاول استغباءنا. قد لا نكون فلاسفة عظماء، لكننا لا نحتاج للفلسفة. إنها لحقيقة بسيطة أن الكنز قد ضاع، وهذا سوء حظ".

فقال العجوز: "سوف أتشبث بحقيقة أن الإسطبل فارغ، وبأن الحصان قد ذهب، ولا أعرف غير ذلك.. سواء كان حظاً عاثراً أم كان نعمة. لأن هذه مجرّد جزء من الحدث، فمن يدري ماذا سيتبعه؟

فضحك أهل القرية، وظنوا أن العجوز اصابه الجنون. وهم دائماً يعرفون أنه مجنون بعض الشيء، وإلاّ لباع هذا الحصان وعاش غنيّاً. لقد كان حطّاباً، وكان عجوزاً هرماً، وما زال يقطع الأخشاب ويُحضرها من الغابة ويبيعها. كان يعيش يوما بيوم.. في فقر وتعاسة، والآن أصبح من المؤكّد تماماً أن هذا الرجل مجنون.

ذات مساء، وبعد خمسة عشر يوماً، عاد الحصان فجأة. لم يُسرَق الحصان، وإنّما هرب إلى البريّة. والحصان لم يعد فحسب، وإنما جلب معه دزّينة من الأحصنة البريّة أيضاً. فاجتمع أهل القرية مجدداً وقالوا: "أيها العجوز، لقد كنت على حق، بينما

كنا مخطئين. لم يكن ذلك حظاً عاثراً، بل ثبت أنه نعمة، ونحن نأسف لأننا كنا مصرّين على ذلك".

فقال العجوز: "لقد ذهبتم بعيداً مرة أخرى: قولوا فقط إن الحصان عاد، وجلب معه اثنا عشر حصان. ولكن لا تحكموا. فمن يدري إن كان هذا نعمة أم نقمة؟ إنه مجرّد جزء، وما لم تعرفوا كامل القصّة، فيكف يمكن أن تحكموا؟ لقد قرأتم صفحة من كتاب، فكيف تحكمون على الكتاب برمّته. لقد قرأتم جملة في الصفحة، فكيف تحكمون على الصفحة بأكملها؟ قرأتم كلمة واحدة في جملة، فكيف تحكمون على الجملة كلها؟ بل حتى كلمة واحدة ليست في متناول يدكم.

إن الحياة شاسعة جدّاً، وهي جزء من كلمة، وها أنتم حكمتم على كل شيء! فلا تقولوا إن هذه نعمة، لأنه لا أحد يعرف. إنني سعيد في عدم حكمي على الأشياء، فلا تزعجوني".

لم يتكلموا هذه المرة كثيراً، فربما كان العجوز محقاً مرة أخرى، لهذا ظلّوا صامتين، ولكن إلى جانب معرفتهم حق المعرفة بأنه مخطئ.

اثنا عشر حصاناً جاءوا مع الحصان الأول، وبقليل من الترويض يمكن بعد ذلك بيعهم جميعاً، فيجني الكثير من المال.

كان لدى العجوز ابن شاب وحيد. فبدأ الابن بترويض الأحصنة الجامحة؛ ولم يمض بعد سوى أسبوع فقط حتى سقط الولد عن أحد الأحصنة وكُسِرَت ساقاه. فاجتمع الناس مرّة أخرى..

وبما أن الناس هم الناس، ومثلكم في أي موقع كنتم. فقد حكموا مجدداً، ذلك أن الحكم يأتي سريعاً! فقالوا: "لقد كنتَ على حق، وقد أثبتّ مجدداً إنك على حق. إنه ليس نعمة، لقد كان سوء حظ مرّة أخرى، لقد خسر ابنك الوحيد ساقيه، وكان سندك الوحيد في شيخوختك هذه، والآن أصبحت أفقر من أي وقت مضى".

فقال العجوز: "لقد استحوذ عليكم إطلاق الأحكام، فلا تذهبوا بعيداً. قولوا فقط إنَّ ابني كُسِرَت ساقاه، فمن يدري إن كان هذا نقمة أم نعمة؟ ... في الحقيقة لا أحد يعلم. أقول لكم مجدداً: إن هذا جزء، ولن يُعطى لكم أكثر من ذلك، فالحياة تأتي أجزاء، أمّا أحكامكم فتخص الكلّ".

بعد بضعة أسابيع، حدث أن دخل هذا البلد في حرب مع بلد مجاور، فأخذ جميع الشبّان عنوة إلى الجيش. الشخص الوحيد الذي تُرِك وشأنه هو ابن العجوز الذي كان مُقعَداً. ثم اجتمع أهل القرية، وأخذوا يبكون ويندبون لأنه تم أخذ الشبّان بالقوّة من كل منزل.

لم يكن هناك احتمال بعودتهم، لأن البلد الذي شن الهجوم كان بلداً كبيراً، والمعركة كانت خاسرة، وبالتالي ما كان الشبان ليعودوا.

كانت البلدة بأكملها تنوح وتدب، فجاء أهل القرية إلى الرجل العجوز وقالوا: "لقد كنت على حق أيها العجوز! يعلم الله أنك كنت على حق.. لقد ثبت أن سقوط ابنك كان نعمة. ربما كان ابنك اعرجاً، لكنه مازال معك، أمّا أبناؤنا فذهبوا إلى غير رجعة. إنه حيّ على الأقل، وموجود معك، وقريباً سيبدأ بالسير على قدميه. ربما يظل أعرجاً بعض الشيء، غير أنه سيكون بحال جيّدة".

فقال العجوز مجدداً: "إن الكلام معكم مستحيل أيها الناس؛ إنكم تستمرّون بإطلاق الأحكام مراراً وتكراراً. لا أحد يعرف! قولوا فقط إن أبناءكم قد أرغموا على الدخول في الجيش، وأن ابني لم يُرغم على ذلك. ولكن لا أحد يعرف إن كان ذلك

نعمة أم نقمة، ولا يمكن لأحد أن يعرف. الله وحده يعرف".

عندما نقول إن الله وحده يعرف، فهذا يعني أن الكلّي وحده من يعرف. فلا تحكموا، وإلاّ فلن تتمكنوا من أن تصبحوا واحداً مع الكلّي. سوف تستحوذ عليكم الأجزاء، وتقفزوا إلى النتائج من خلال أشياء صغيرة. أمّا الصوفيون فيؤكدون للغاية على أنكم لن تكترثوا أبداً بأن هناك أشياء تتخطاكم بالكامل. ومع ذلك ستطلقون الأحكام عليها، لأن وعيكم يقبع عند الدرجة الأولى من السلّم. إنكم تعيشون في واد مظلم من التعاسة والألم، ومن أوديتكم التعيسة والمظلمة هذه تحكمون حتى على بوذا.

حتى بوذا لم يفلت من حكمكم. بل لقد حكمتم حتى على المسيح، ولم تحكموا عليه وحسب، بل صلبتموه أيضاً؛ حكمتم عليه، ثم وجدتموه مذنباً، فعاقبتموه.

إنكم تعيشون في وادٍ مظلم وكئيب، ولم تشاهدوا القمّم حتى في أحلامكم، ولا تستطيعون حتى تخيّلها، لأن التخيّل يحتاج إلى أساس من التجربة. لا يمكنكم أن تحلموا بشيء مجهول تماماً، لأنه حتى الحلم يأتي من معرفتكم. ولا يمكنكم أن تحلموا بالله، ولا يمكنكم تخيّله؛ لا يمكنكم أن تتخيّلوا القمم، ولا الحياة الموجودة داخل بوذا. بيد أنكم تحكمون وتقولون، "نعم، هذا الشخص هو بوذا، وهذا الشخص ليس بوذا؛ هذا الشخص مستنير، أمّا ذاك فغير مستنير".

إن الشخص المستنير لا يتأذّى منكم، لأنه لا يمكن إيذاؤه بأي حال من الأحوال، غير أنكم تؤذونه من خلال أحكامكم.

بمجرّد ان تحكموا، فيتوقف تطوركم، لأن الحكم هو حالة مبتذلة للوعي. ها أنتم الآن توقّفتم عن الحركة، وتوقف السعي نحو المزيد من المعرفة، وتوقّف التطوّر، ذلك أنكم أطلقتم الأحكام وانتهى الأمر. إن الفكر يريد دائماً أن يكون في موقع إطلاق الأحكام، لأن الحركة هي مسألة شاقّة. أن تكون في حالة تقدّم هو شيء ينطوي على مجازفة. أمّا أن تستنتج، فذلك يعني أنك بلغت الهدف، وانتهت الرحلة.

لكن يجب على الشخص الذي يريد المضي نحو المطلق أن يتخذ نقطة انطلاق أساسية، وهي عدم إطلاق الأحكام. غير أن هذا أمر في غاية الصعوبة، بل يكاد يكون مستحيلاً: لأن العقل سيطلق الأحكام قبل أن تعرف ذلك. قبل أن تصبح واعياً لهذا، فيكون العقل قد حكم. ولكن إذا حاولت، فسيبزغ الوعي المرهَفُ تدريجياً، وعندها تستطيع إرجاء الحكم. وإذا ارجأت الحكم، فستصبح متديّناً حقيقياً، ولن تعرف ما هو الصواب، وما هو الخطأ.

ولكن في العادة، الأشخاص الذين تعتبرهم متديّنين، هم أناس يعرفون كل شيء: يعرفون ما هو الصواب وما هو الخطأ، وما ينبغي، أو لا ينبغي عمله، ولديهم الوصايا العشر كلّها، ولهذا السبب يصبح هؤلاء المتدينين عنيدين، وعديمي الإحساس، فقد توقّفت رحلتهم، ولم يتطوّروا على الإطلاق. لم يعد نهرهم يتحرك، فأصبح راكداً.

فإذا أردت الحركة، والتطوّر، وإذا أردت السير مع الله، فعليك أن تتحرّك باستمرار. عليك أن تكون في رحلة مستمرّة. فالحركة المطلقة، والتطور المطلق أمران ممكنان، لأن الله ليس نقطة ساكنة، بل هو الحركة الكلّية للحياة، والوجود.

في الحقيقة، الرحلة لا تنتهي أبداً؛ إذ ينتهي مسار، ويُفتَح مسار آخر، يُغلَقُ باب، فيُفتَحُ باب آخر. كما أن أعلى قمة موجودة دائماً: فما إن تصل إلى قمةٍ، وكنت على وشك أن تستريح معتقداً أن كل شيء قد تحقق، حتى تجد فجأة أنه مازالت هناك قمة أعلى.

إنها رحلة لا تنتهي: فمن قمة إلى قمة، حيث لا نهاية للقمم أبداً.

ان الله رحلة لا نهاية لها. ولذلك وحدهم أولئك الشجعان جداً.. الشجعان إلى درجة أنهم لا يهتمون بالهدف، لكنهم قانعون بالرحلة، وبالسير مع الحياة، ومجاراة النهر، وعيش اللحظة والتطوّر فيها.. أولئك وحدهم القادرون على السير مع الله.

إن الأشخاص الذين يقودهم الهدف، هم أشخاص عاديون وإن كل الواصلين هم أناس عاديين. فما الذي يمكن أن تصل إليه؟ هل هو الأسمى؟ إذا كان بمقدورك أن تصل إلى الأسمى، فبمجرّد أن تصل إليه، سوف لن تجد أنه الأسمى. إذا استطعت الوصول إليه، فكيف يكون أسمى؟ أيمكنك الوصول إلى الهدف؟ وأنت؟ إذن سيكون الهدف أقل منك. كلا، فالهدف لا يمكن الوصول إليه. وفي الحقيقة لا يوجد هدف، ومن الجيّد أنه لا يوجد هدف، فالحياة أبدية لهذا السبب، ذلك أن كل هدف سيكون موتاً، وبالتالي لا تعود هناك حاجة لك.

إن الشخص الذي يطلق الأحكام كثيراً، فإنه يوقِفُ تطوّره من كل النواح. كما أنه بمجرّد أن تستقر الأحكام في الداخل، فتصبح غير قادر على رؤية الجديد، لأن الحكم لن يسمح لك بذلك، فالجديد سيحطمه، وبالتالي ستعيش بعينين مغمضتين. والحقيقة أنك لست أعمى، بل لا أحد أعمى، لكن الجميع يتصرفون كالعميان، وذلك بسبب وجود الأحكام. فإذا فتحت عينيك، فالخشية هي من أنه قد يتوجّب عليك النظر إلى شيء ما.. شيء قد تصادفه، مما يترتب عليك أن تغيّر حكمك.

إن الحكم شيء مريح جداً: فقد استقرّيت في منزل ما، ونسيت الطريق، ونسيت الرحلة، ونسيت بذل الجهد، والحركة المستمرّة، ونسيت المجازفة والمخاطرة. لقد اغلقت على نفسك في منزل صغير، ومريح، وبت الآن تخشى النظر خارج النافذة، فتبقيها مغلقة، ثم تجد نفسك تخشي فتح الباب، فمن يدري؟ ربما تدخل منه حقيقة غريبة ما، فتقلق راحتك، وتزعج استرخاءك وطمأنينتك.

لهذا السبب تتصرّف كالأعمى، في حين أنك لست بأعمى، بل شخص ماكر. إنه من خلال مكرك اصبحت أعمى، كما أن الفكر يسارع في إطلاق الأحكام، وهكذا تتهرب من الرحلة وتتفاداها.

والواقع انه يأتي إليّ اشخاص من كل الأصناف، غير أنه يمكن تقسيمهم إلى صنفين أساسيين: الأشخاص الذين هم على استعداد لأن يفتحوا أعينهم، أمّا الصنف الثاني: فهم الأشخاص الذين ليسوا مستعدين لهذا الأمر. أمّا بالنسبة للصنف الأول، فالأشياء الممكنة بالنسبة لهم كثيرة. أمّا الصنف الأخر فلاشي ممكن بالنسبة لهم. وهذا النوع من الأشخاص يكون مستعداً وهو في القبر، عندما لا يعود حياً. إنه لا يسمح للهواء الجديد بأن يتخلل كيانه، ولا يسمح للأزهار الجديدة بالتفتح داخل كيانه. كما لا يسمح بأي شيء مجهول، وذلك لأنه خائف، ويتحرّك في مسار ثابت.. يتحرك في دائرة، فلا شيء أكثر استقرار من الدائرة. إنه يأتِ على الأشياء نفسها مراراً وتكراراً. يعيش مثل اسطوانة التسجيل: مكررا الشيء ذاته مرات ومرات، وبعد ذلك يقول إنه ضجر. بيد أن الحقيقة هي أنه لا أحد غيرك مسؤول عن ذلك، فالشخص الضجر هو الذي بقي مغمض العينين، والضجر جزء من ذلك. أمّا الذي يعيش مفتوح العينين، فلا يضجر أبداً.

الحياة فاتنة وساحرة جداً. الحياة معجزة! ففي كل لحظة تحدث ملايين المعجزات من حولك. غير أنك تعيش مغمض العينين مع أحكامك.

تمرّ بجانب وردة، فإذا قال عنها أحد ما: انظر إنها "جميلة"، فإنك لا تنظر، وتقول: "اجل الوردة جميلة"، وهكذا تكرر شيئاً من الماضي.. مثل آلة التسجيل. لقد قلت هذا مرّات ومرّات، حتى أصبح ذلك هراء بلا معنى. لقد نطقت ذلك لأن الصمت سيكون مربكاً، فإن قال أحدهم: "إنها وردة جميلة"، وبقيت صامتاً، فربما يكون ذلك محرجاً ومربكاً. ولهذا تتلفظ بشيء ما: "نعم الوردة جميلة"، في حين أنك لم ترى الوردة ولم ترى الجمال. إن هذا الهراء. ثم تقول إنك ضجر؟

تحب امرأة، ولم تنقضِ عدة ساعات، وشهر العسل لم ينتهي بعد حتى تصبح زوجتك قديمة. إنها لم تعد جميلة مثلما كانت قبل عدة ساعات، ولم تعد مهمّة مثلما ينبغي أن تكون. فما الذي حدث؟ إنك تعتقد أنك عرفتها.. فحكمت عليها. تشعر الآن أن لم تعد غريبة.. فأنت تعرفها.

كيف لك أن تعرف إنساناً؟ إن الإنسان هو عملية لا نهاية لها، ولا يمكن أبداً أن تعرف الإنسان.

في الصباح تكون الوردة مختلفة، وذلك لأن الصباح مختلف! فالشمس تشرق من جديد، والعصافير تغنّي، والوردة جزء من الكل. في الصباح تستطيع أن تُنشِد أغنية الطيور، ويمكنك أن ترى أشعة الشمس الجديدة وهي تتخللها، وأن ترى حياة جديدة تنبض فيها.

أمّا بعد الظهر فهي وردة مختلفة. لقد تبدّل المناخ بأكمله، والشمس لم تعد هي ذاتها، والطيور لم تعد تغرّد، وها هي الشمس بدأت في المغيب، وبدأ يحل المساء، فتصبح الورود أكثر كآبة. إنه مزاج جديد. إنها ليست الورود نفسها التي شاهدتها في الصباح. أمّا عند المساء فتكون على وشك الموت؛ إنها حزينة من كل قلبها. وحتى لو غنّت، فهي أغنية حزينة.

في الحقيقة تستطيع أن ترى موتك في الوردة إن كنت يقظاً. تستطيع أن ترى احتضار الحياة وموتها مجتمعان في وردة. تستطيع أن ترى الحياة نفسها وهي تحول إلى موت. إن هذا لمزاج مختلف كليّاً.

إنك لا تستطيع حتى أن تعرف زهرة بصورة شمولية بسب الملايين من أمزجتها، فكيف يمكن أن تعرف إنساناً؟ الإنسان وعي متفتح، وهو أعظم زهرة أصبحت ممكنة خلال حقبة من التطوّر، فكيف يمكن أن تعرف زوجتك؟ إنك حالما تعتقد أنك عرفت، فتكون قد انتهيت، لأنك أطلقت حكماً. والآن ها انت تستعد للبحث عن امرأة أخرى.

كلا، فالزوجة تبقى غريبة إذا كانت عيناك نظيفتان، وسوف تصادف الكثير من الأجواء، والكثير من الأمزجة، والكثير من الوجوه في كيان زوجتك، وطفلك، وصديقك، وفي كيان عدوّك.

في الحقيقة لم يسبق لأحد أن عرف شيئاً، غير أن العقل ماكر، وهو يريد المعرفة، لأنك لا تشعر بالأمان إلا بالمعرفة.

أمّا مع الغريب فتشعر بالقلق. ومع المجهول الذي يحيطك من كل الجوانب تشعر بالخوف، فأنت لا تعرف أين أنت.. وعندما لا تعرف وضع الناس، والأزهار، والأشجار التي تحيط بك، فلن تعرف من أنت، فتضيع هويتك. إن الشعور في أنك تعرف زوجتك على وجه اليقين، وتعرف طفلك، وأصدقاءك، ومجتمعك، وهذا، وذاك، وتعرف التاريخ والجغرافيا، فإنك بكل هذه المعرفة التي تحيط بك، تشعر بنفسك فجأة من تكون: إنك العارف. من ثم تبرز الأنا، وتبرز القوّة.

إن المعرفة غذاء الأنا، أمّا الجهل فهو موت بالنسبة لها. لكن موت الأنا بالنسبة لك هو الحياة، وحياة الأنا بالنسبة لك هو الموت. لا تستقر ولا تثبت.. ذلك هو معنى الناسك المتشرّد.

في الهند جرّبنا ذلك، فالشخص بصبح، هائماً، ومتشرداً، وبلا جذور، وبالتالي بلا هوية، لأن الإنسان يعيش مع المجهول، لحظة بلحظة وكل الأشياء مفاجآت. أما بالنسبة لك فليست مفاجآت، لأنك تعرف كل شيء، فكيف لأي شيء أن يفاجئك؟ ليس ثمة ما يدهش، غير أن كل شيء سيفاجئك عندما تعيش جاهلاً. عندما تعيش عديم المعرفة، فكل شيء سيكون جديداً بالنسبة لك، إذ ليس هناك شيء تقارنه به، ولا يوجد شيء لتربطه بالماضي، ولا بالمستقبل. فكل الأشياء فريدة.. أشياء لم تكن موجودة من قبل، ولن توجد مرة أخرى، فإذا خسرتها منه اللحظة، فسوف تخسرها إلى الأبد، ولا يوجد سبيل لاستعادتها.

إن كل لحظة هي مزاج جديد في الوجود، فإمّا أن تمتع بها، وتعيشها، وإمّا أن تخسرها. وإنك لمن خلال المعرفة تخسرها، والسبب هو قولك: "أنا أعرف". إذا قلت لك اخرج من منزلك فقد اشرقت الشمس، وهي جميلة، فسوف تقول: "أعرف، لقد استيقظت باكراً عدة مرات، وشاهدت ذلك اعرف ذلك، فلا تزعجني". لكن هذا اليوم المشمس لم يكن من قبل، ويومك هنا لم يكن من قبل، ويومي هذا الذي أدعوك فيه للخروج لم يوجد من قبل.

إن كل شيء هو جديد واصليّ تماماً، أمّا القديم فهو فكرك فقط. إن الفكر ليصبح قديماً من خلال المعرفة، وعندما تكون قديماً فإن كل شيء يبدو مُغبّراً، ومستخدَماً، وبالياً.

وعندئذٍ تصبح ضَجِراً.

والضجر يُظهِر إنك لا تعرف كيف تعيش جاهلاً، فالطفل لا يضجر أبداً، وأن كل الأشياء تفاجئه، وتدهشه. إنه يعيش بشكل متواصل في حالة اندهاش. وتلك هي ميّزة العقل الديني الحقيقي: أن تظل مندهشاً باستمرار، وأن تجعل الاندهاش من صميم نموذج كيانك آنذاك ترى أن العالم برمّته مختلف كلّياً؛ وهو ليس العالَمَ نفسه الذي تعرفه. وبما إنك لست الشخص نفسه، فالعالم لا يمكن أن يكون هو نفسه.

فلا تحاكم، ولا تصنع سجناً من معرفتك. ابق حرّاً، ومتشرّداً، وبلا جذور.

وهذه رموز، فالناسك المتشرّد يعني أنه بلا جذور من الماضي؛ وليس له جذور في المستقبل. وهو ببساطة لا يتجوّل كالمتشرد، فشرّده يحمل معنى أعمق: إنه متشرّد روحيّ.

إن مجرّد الذهاب من بلد إلى آخر لن يفيد كثيراً، فعاجلاً ام آجلاً سوف تستقر في مكان ما، وتبني منزلاً. بل إنه حتى الهبيّون سوف يستقرون عاجلاً أم آجلاً. إنك لا ترى عجوزاً هبّياً هرماً، (لأن الهبّية طور من الأطوار؛ فالهبّي يستقر قبل أن يصبح عجوزاً).

الإنسان يتنقّل هنا وهناك ظاهريّاً، ثم يصبح مستاءً من ذلك الوضع؛ وبعد ذلك يستقرّ.

وتذكّروا: عندما يستقرّ الهبّي، فإن استقراره لا مثيل له.

إن الشخص العادي المستقيم يشعر دائماً بصوت يناديه لكي يصبح متشرداً، ذلك أن الصوت الداخلي العميق موجود دائماً. ربما استقر مع زوجته وأطفاله، وحصل على عمل جيّد، لكن الصوت الداخلي يلازمه باستمرار في أحلامه، وفي أحلام اليقظة، وفي مخيّلته، ويناديه باستمرار ليصبح متشرّداً. لكن الهبّي عندما يستقرّ، فإنه يستقر تماماً. لقد عرف ماذا يعني أن تكون متشرّداً، وانتهى من ذلك. إنها المعرفة مرّة أخرى: لقد عرف.

عندما أقول: "كن متشرّداً"، فأنا لا أعني ذلك حرفيّاً، بل أعني الداخل، أعني أن تعيش من الداخل حياة المتشرّد، غير المستقر، ومقتلع الجذور، ومن دون ماض، بل في هذه اللحظة فقط.. أن تعيش في هذه اللحظة وبشكل كلّي، أي كما لو أن هذه اللحظة هي الكل. عندها فجأة تصبح واعياً: واعياً بالمخفي والظاهر. واعياً بالمجهول الذي يحيط بك من كل الجوانب، والذي هو بحر شاسع من الحقائق الجديدة التي تظهر ثم تختفي. الحياة لم تكن يوماً قديمة، ولم تكن يوماً بالية. الحياة أصلية، ومن طبيعتها أن تكون أصليّة وجديدة. وحده فكرك الذي يكبر ويصبح قديماً، وبعد ذلك تخسره. فلكي تعيش دوماً في الجديد: عليك أن تتوقف عن الحكم على الأشياء.. وعندئذٍ سيتفجّر أرقي وعي في داخلك.

إن الحكم يشكل حاجزاً، فأن تطلق الأحكام ليس أمراً عادياً، لأن الحكم يصبح عادة لا يمكن أن تساعد على تفجّر وعيك. إذ ما إن يتواجد شيء حتى تحكم عليه في الحال.. ودون أن تأخر ولو للحظة. فعندما تأتي إلى شخص مثل بوذا، أو ذو النون المصري– ذلك المعلّم الصوفي فتصبح قريباً من المصدر الأصلي للوعي المتجدد باستمرار. والحقيقة أنه لا شيء قديم، ولا شيء يأتي من الماضي.

الفكر يأتي من الماضي، أمّا الوعي فليس كذلك: لأن الوعي يأتي من هذه اللحظة.

الفكر زمن، أمّا الوعي فهو شيء أبدي. الفكر ينتقل من لحظة إلى أخرى بشكل أفقي، وهو أشبه بالقطار: مجموعة عربات موصولة ببعضها البعض. الماضي والمستقبل هما كالقطار، أي مجموعة عربات موصولة ببعضها بشكل أفقي. أمّا الوعي فهو عامودي الشكل: لا يأتي من الماضي، ولا من المستقبل. الوعي يسقط في هذه اللحظة شاقولياً في العمق، أو يصعد شاقولياً إلى الأعلى.

هذا هو مغزى وجود المسيح على الصليب.. لكن المسيحيين فقدوا هذا المغزى بالكامل. فالصليب ليس سوى تمثيل، أو رمز للالتقاء خطّين: أفقي وراسي. إن يدا المسيح تمتدان أفقياً، وجسده رأسيّاً. فما هو المغزى؟ المغزى هو أن الفعل يحصل في إطار الزمن، أما الكيان فيتخطى الزمن.

إن الأيدي ترمز للفعل.

لقد صُلِب المسيح ويداه في وضع أفقي، أي زمنياً.

الفعل زمني، والتفكير فعل: وهو عمل العقل الذي هو أيضاً عمل زمني.

إنه لمن الجيّد معرفة أن الأيدي هي الجزء الخارجي من الدماغ، فالأيدي والدماغ شيء واحد.

الدماغ يتكون من نصفي كرة: نصف الدماغ الأيمن مرتبط باليد اليسرى، ونصف الدماغ الأيسر مرتبط باليد اليمنى. ان يداك هما اللتان تربطان العقل مع العالم الخارجي.. مع العالم المادي، فالعقل هو أيضاً مادة ماكرة.

إن كل فعل، سواء كان ماديّاً او عقليّاً، فهو يخضع للزمن أما كيانك فهو شاقولي: يمتد إلى الأعلى والى الأسفل، وليس بشكل جانبي. وعندما تطلق حكماً، فتصبح محدداً أكثر فأكثر بالاتجاه الأفقي، وإلاّ فكيف ستحكم؟ بما أن المحاكمة تحتاج للماضي، فهل يمكنك أن تطلق حكماً دون أن تقحم الماضي فيه؟ إذن كيف ستحكم؟ ومن أين ستحصل على المعيار؟ تقول إن هذا الوجه جميل، فكيف تحكم بأنه جميل؟ هل تعرف ما هو الجمال لقد عرفت الكثير من الأوجه، وسمعت الكثير من الأشخاص يتحدثون عن الوجوه الجميلة، وقرأت ذلك في الروايات، وشاهدت ذلك في الأفلام.. لقد شكّلت فكرة في الماضي عما هو الجمال، وهي فكرة غامضة، ولا تستطيع توضيحها. فإذا أصر أحد ما على التوضيح، فستشعر بالحيرة والارتباك.

إنها فكرة غامضة، كالغيمة. غير أنك بعد ذلك تأتي لتقول: "هذا الوجه جميل". كيف عرفت إنك تُقحم تجربتك الماضية فيه، وتقارن هذا الوجه مع فكرة الجمال الغامضة التي شكّلتها من خلال التجربة. أمّا إذا لم تقحم الماضي فيه، فسوف يتكوّن نوع من الجمال مختلف كليّاً.

هذا النوع من الجمال لن يكون نتيجة حكمك، ولن يأتي من فكرك. لن يكون مفروضاً، ولن يكون تفسيراً، بل سيكون

مشاركة مع هذا الوجه، هنا والآن. سيكون مشاركة عميقة مع هذا اللغز.. مع هذا الشخص، هنا والآن.

في تلك اللحظة لن يكون الشخص جميلاً ولا قبيحاً، وتكون كل المحاكمات قد اختفت. إن ما سيكون موجوداً هو اللغز المجهول اللغز الذي لم تتم تسميته، ولم يتم الحكم عليه.

وفي تلك اللحظة من عدم الحكم: تصنع زهرة الحب.

إن الحب ليس ممكناً مع الفكر، فالممكن مع الفكر هو الجنس، ومع الفكر يكون الفعل ممكناً، فالنشاط الجنسي هو فعل. أمّا الحب فليس فعلاً؛ إنه حالة للكيان.. إنه شاقولي.

عندما تنظر إلى شخص وتشاركه من دون محاكمة.. سواء كان جميلاً أم قبيحاً، أو جيداً أو سيئاً، شرّيراً كان أم قدّيساً.. وتنظر ببساطة إلى عينيه من دون محاكمة، فسيحصل اللقاء فجأة، ويحصل اندماج للطاقات. وهذا الاندماج جميل، بل مختلف كلياً عن كل أنواع الجمال الذي تعرفه.

والحقيقة أنك عرفت جمال الشكل.. أمّا هذا الجمال فلا شكل له.

لقد عرفت جمال الجسد.. أمّا هذا الجمال فهو جمال الروح.

لقد عرفت جمال السطح الخارجي، لكن هذا الجمال هو جمال المركز، وهو جمال أبدي.

وإذا حصل هذا مع شخص ما، فسيصبح الأمر ذاته أكثر إمكانية، وشيئاً فشيئاً، سيحصل مع الأشياء أيضاً: تنظر إلى زهرة، ومن دون محاكمة، فينفتح لك قلب الزهرة فجأة، وتدعوك إليها. عندما لا تحكم على شيء، فستكون هناك دعوة. أمّا عندما تحكم، فسوف تنغلق الزهرة أيضاً، لأن العدو يكمن في المحاكمة.

في المحاكمة يكمن الانتقاد، وليس المحب.

في المحاكمة تكون السطحية وليس العمق.

إن الزهرة تنغلق ببساطة، وعندما أقول إنها تنغلق ببساطة، فأنا لا أقول ذلك على سبيل الاستعارة المجازية، فقد حدث ذلك بالضبط مثلما أقول لكم.

إنك تدنوا من شجرة، وتلمسها. فإذا لمستها مع إطلاق حكم، فلن تستفيد من الشجرة. أمّا إذا لمستها من دون أيّ حكم، وشعرت بها من دون تدخّل الفكر على الإطلاق، ثم تحتضنها وتجلس بجانبها.. ستصبح الشجرة العادية فجأة شجرة بوذا، وسيتدفق منها حنان مطلق. ستكون محاطاً برعايتها، وتشاركك بأسرار كثيرة.

لهذا السبب يمكن اختراق حتى الصخور إلى صميم قلبها. فعندما كان بوذا يلمس صخرة، فلا تعود صخرة.. بل كائناً حياً لديها قلب ينبض في داخلها.

أما أنت: عندما تلمس شخصاً، فإنه يصبح صخرة ميتة بالفعل. فلمستك تجعل كل شيء بليداً، لأنها لمسة حكم، ولمسة عدو، وليس الصديق.

فإذا كان الأمر هكذا مع الأشياء العادية، فكيف سيكون عندما تصادف مراحل عليا من الوجود والوعي؟

لقد خسر الملايين من البشر بوذا، والمسيح، وزرادشت بالمحاكمة فقط. فلا تكرروا ذلك النموذج الغبي. وعندما تذهب إلى شخص حتى وإن كان وعيه أكبر من وعيك بعض الشيء، فلا تحكم، وحافظ على انفتاحك، وبالتالي ستكون هناك إمكانية كبيرة للمساعدة. فإذا سرت على نهج إطلاق الأحكام، فإنك لن تسير على الإطلاق، وستكون الخاسر الفعلي. إذن ضع الفكر جانباً.

والآن، لنبحر في هذه القصة:

كان ذو النون صوفيّاً مصرياً، وهو واحد من أعظم الأشخاص الذي وجدوا على هذه الأرض. كان يملك بصيرة عظيمة، وخصوصاً تجاه الغباء البشري. كان يمكن أن يكون مفيداً، ولكن – مثلما يفعل الصوفيون دائماً. يخلقون وضعاً ما، لأنهم يعرفون أنك قد تفهم الأمور بشكل منطقي. غير أن ذلك الفهم ليس كافياً، فربما تقتنع بشكل منطقي، لكن ذلك الاقتناع لن يطوّرك.

إن المتصوفة يخلقون وضعاً، ومن خلال ذلك الوضع يبوحون بشيء ما. إنهم لا يقولون، بل يُظهِرون.

فما الذي حدث مع ذي النون المصري؟

يقال إنه عندما كان تلميذاً، وليس معلِّماً: ذات يوم، كان على وشك أن يصل إلى قرية صغيرة، وكان قادماً من رحلة طويلة من الصحراء، وقد أنهكه الجوع، والتعب، والعطش، وكان يبحث عن مأوى، فشاهد امرأة فوق سطح أحد المنازل.

لا بد أنها كانت تعمل على سطح المنزل؛ فقد كانت السماء على وشك أن تمطر، ولا بد أن تجهز السطح. فاقترب منها أكثر، وعندما وصل بالقرب منها، أي قرب المنزل الذي كانت تقف على سطحه، فضحكت المرأة، فأصابت الحيرة ذي النون وقال: "ما الأمر.. لماذا تضحكين؟ لماذا ترحبين بي بمثل هذه الضحكة المجنونة"؟

أجابت المرأة: "عندما رأيتك للتو تدخل القرية، فاعتقدت أنك لابد أن تكون صوفياً، لأنني لم أتمكن من رؤيتك، وإنّما رأيت ثوبك فقط. والآن عندما اقتربت أكثر، فلاحظت أنك لم تكن صوفيّاً، ولا معلّماً، بل ما تزال مريداً، ذلك لأنني رأيت قسماً من وجهك، وكنت لا تزال بعيداً فلم أتمكن من النظر إلى عينيك. ثم اقتربت أكثر، ونظرت في عينيك، فرأيت أنك لست حتى مريداً، بل ولا حتى في طريقك لأن تكون مريداً، أمّا الآن، بعد أن وصلت، وبعد أن رأيتك بالكامل، أرى أنك لست حتى ساعياً.. ولم تسمع بالطريق من قبل أبداً، ولهذا ضحكتُ. تبدو في الظاهر إنك صوفي، لكن وجهك لا يتوافق من رداءك الصوفي.

إن كلمة صوفي جاءت من نوع معين من الأثواب مصنوع. الصوف، والصوفي هو الشخص الذي يرتدي ثوباً، أو قميصاً من الصوف.

إن ارتداء الصوف في الصحراء مسألة في غاية الصعوبة: حيث درجة الحرارة العالية في كل مكان، وحيث اختار الصوفيون ارتداء الثوب المصنوع من الصوف، وهؤلاء كانوا موجودين في الصحراء، أي في المناطق الأكثر حرارة في العالم. لماذا؟ لأنهم يقولون إنك عندما تكون بارداً من الداخل، فليس ذلك بالشيء المهم. ذلك أن الحرارة هي في الخارج فقط، أمّا الداخل، فهو بارد.

وهذا منهج، أو وسيلة لتحويلك من المحيط إلى المركز. فعندما تكون حرارة الجسد مرتفعة، بل تحترق من شدة الحرارة، فإنك تنتقل إلى المركز. وينبغي أن تنتقل، بسبب وجود النار على السطح الخارجي للجسد.

ماذا تفعل عندما تسير على طريق ملتهب، حينما تكون الشمس في أوج حرارتها؟ إنك تبحث مكان ظليل، أو عن شجرة لتجلس تحتها، وتستريح. عندما يعاني جسد الصوفيون من شدة الحرارة، فإنهم يستخدمونه كأداة. ما الذي ستفعله وأنت تحتجب باستمرار تحت بساط من الصوف، وتتصبب عرقاً؟ ما الذي تفعله وأنت في الصحراء؟ سوف يترتب عليك أن تبحث عن مكان في الداخل حيث لا تخترقه الحرارة. عليك أن تتخذ لنفسك ملاذاً.

قالت المرأة: "تبدو ظاهريّاً كأنك صوفي، أو معلّم، ولكن بد أن رأيتُ وجهك، فوجدتُ أنه لا يتوافق مع ثوبك، لأن وجهك يقول شيئاً آخر. وعندما نظرت إلى عينيك، فلاحظت أنهما تقولان شيئاً آخر أيضاً، فهما لا تتطابقان حتى مع وجهك. وعندما نظرت إليك بالمجمل، فوجدت أنك لست ساعياً على الإطلاق".

ويقال إن ذي النون خلع ثوبه، ولاذ في الصحراء، ولم يُسمع عنه شيئاً لعدة سنين، ولم يعرف أحد ما الذي حدث له.

اثنا عشرة سنة، لم يعرف أحد في أيّ أرض هو، أو ما الذي كان يفعله.

بعد اثنا عشرة سنة... حدث له انفجار مفاجئ.

انتشر خبر ذي النون على كل الأراضي المصرية؛ وبدأ آلاف من الباحثين من كل بلد صوفي بالتوافد إليه.

أصبح ذي النون أثناء حياته قِبلةٌ للناس يتوافدون إليه من كل حدب وصوب. كان الناس يسألونه: "ما الذي حصل في هذه السنوات الاثنا عشر بعد لقاءك بتلك المرأة؟ ماذا فعلت؟ ماذا كنت تزاول؛ فكان يقول: "لا شيء. كنت ببساطة أقيم في الصحراء: لأن أي شيء أفعله سيكون جزءٌ منّي، وجزءٌ من أناي. ومهما أفعل لا يمكن أن يكون أعظم منّي، بل سيكون دائماً اقلّ منّي. فإذا كنت خاطئاً، فكيف يمكن لي أن أفعل أي شيء صحيح؛ لذلك توقّفت ببساطة عن فعل أي شيء لم أكن أزاول شيئاً طوال اثنا عشرة سنة، ولم أفعل شيئاً... بقيت مع نفسي ببساطة، وما كنت بفاعل".

ما الذي سيحدث إذا جلست لمدة اثنا عشرة سنة من دون أن تفعل شيئاً؟ سوف يختفي الأفقي، ويبقى الرأسي فقط: أي أنك لا تفعل شيئاً، بل تكون مجرّد كائن. غير أن ذلك يحتاج إلى الصبر، وإلاّ فلا حاجة لأي منهج.

ولكن بما أنك لست صبوراً، فعلي أن أعطيك مناهج. بما أنك في عجلة من أمرك، فعليّ أن أقدم لك مناهجاً. أمّا إذا لم تكن مستعجلاً، فستقول: "أستطيع الانتظار، بل يمكنني الانتظار إلى الأبد"، وعندئذٍ لا حاجة لأيّ منهج، وبعدها تجلس ببساطة، وسوف تبقى من الداخل غير فاعل حتى أثناء أدائك لعمل ما.

وبالطبع هناك الكثير من الأشياء التي ينبغي أن تقوم بها: عليك أن تستحم، وعليك أن تتناول الطعام، وأن تحضّر سريرك للذهاب إلى النوم.

في الحقيقة عليك أن تقوم بأشياء معيّنة، غير أنك تظل دائماً غير فاعل، وهذا يكفي إلى حد كبير. وبالبقاء مع ذاتك صامتاً، ستختفي الأنا. سوف تختفي الأنا حتى دون أن تحاول تطوير نفسك، أو تغييرها: فما عليك سوى أن تتقبل نفسك كما أنت، ومهما كنت.

إنني أرى أن مشكلتك الوحيدة هي إنك لا تتقبّل نفسك، وتريد أن تكون شخصاً آخر.. وتلك هي المشكلة؛ أمّا غير ذلك فلا ينقصك شيء، لأن كل شيء متوفّر لديك.

إنه بعدم الفعل لمدة اثنا عشرة سنة: أصبح ذي النون واحداً من أعظم المعلمين وأكملهم.

والآن إلى القصّة:

جاء شخص إلى ذي النون وقال له ان الصوفيين كانوا مخطئين، إلى جانب اشياء اخرى.

كيف تعرف أن الصوفيون مخطئون دون أن تكون صوفيّاً؟ وهل سبق لأحد أن قال: إن أي شيء يتعلّق بالصوفيين هو شيء خاطئ؟ في الحقيقة لم يحدث ذلك من قبل. ولم يقل أحد ممن كانوا صوفيين إنَّ في التصوف شيء خاطئ، أمّا أولئك الذين يقولون ذلك، فلم يكونوا صوفيين من قبل. فكيف تقول ذلك؟

قبل ايام فقط، كان شخص يقول لي إن كل طرق التأمّل التي أعلّمها هي طرق خاطئة لأن باتنجالي لم يشر إليها في اليوغا سوترا. كما قال الرجل: "لم نسمع بمثل هذه الطرق من قبل، فمن الذي أعطاك الصلاحية؟ ومن أين جئت بهذه الطرق؟ إنها ليست هاثا يوغا، ولا راجا يوغا، ولا باكتي يوغا".

فسألته: "هل تأملت من قبل؟ فأجاب: "كلا".

فقلت له: "هل تعرف ما هو التأمّل"، فقال: "كلا".

بما أنك لا تعرف ما هو التأمّل، فكيف تقول إنها طرق تأمّل خاطئة؟ إنك لا تعرف ما هو التأمّل، فكيف تقول ما لا علاقة له بالتأمّل. إنك لا تعرف ما هو الشيء المفيد، ثم تستمر في الإدانة بقولك: "هذا سيّئ". إنك لا تَعرِف ما هي الأخلاق، ثم تستمر الإدانة قائلاً: "هذا غير أخلاقي". هل تعرف ما هي الصوفيّة؟ ومع ذلك تستطيع إدانتها بكل سهولة.

إن الإدانة تحضر إلى العقل بسهولة. كما أن من أكثر الأشياء سهولة في العالم أن تقول: ذلك شيء خاطئ. أن تقول لا، فذلك من أسهل الأشياء على العقل. أمّا كلمة "نعم" فهي من أصعب الأشياء.

راقب عقلك كم مرّة يقول لا. حتى لو توجّب عليه أحياناً أن يقول نعم، فهو يقولها بتحفّظ. أمّا كلمة لا، فهي مفرحة جدّاً للعقل: فما إن تقول لشخص كلمة لا، حتى تشعر بقوّة عظيمة. إنك تستمتع بكلمة لا، لأنها لا تمس الأنا. أمّا كلمة نعم، فتعمل على إذابتها.

إنه من السهولة أن تقول لا، ومن الصعب جداً أن تقول نعم، ذلك أن الباب ينفتح مع كلمة نعم.. خلافاً لكلمة لا.

راقب ماذا يحصل في صميم كيانك عندما تقول لا: تُغلَق على الأبواب فجأة. عندما تقول لا: تكون قد انغلقت على نفسك، وتصبح عنصراً أحادي الخلية: بلا منافذ، وبلا أبواب، وبلا جسور. إن كلمة "لا"، تقطع كل الروابط الممكنة بينك وبين الآخرين، فتنقطع على الفور كل إمكانية للحب، والصلاة، والاستسلام، والتأمّل.. ما إن تقول كلمة "لا"!

إن كلمة "لا" تجعلك شخصاً معزولاً، في حين لا يوجد شخص معزول.

أن تشعر بأنك شخص معزول، هو أكبر وهم، لأنك جزء من الكلّي. عندما تقول "لا"، فأنت تقطع وتحطّم كل الجسور. لكن الأنا تريدك دائماً أن تقول "لا"، فهي تستمتع، وتتلذذ بها.

لاحظ أنك ما لم تجد ضرورة على نحو قاطع كي تقول "لا"، فلا تقلها! إن التخلي عن تلك الكلمة سيجعلك أكثر يقظة. أمّا إذا وجدت نفسك مضطراً لقولها، فقلها بحيث تصبح إيجابية: بحيث تأخذ شكل نعم. إنك بمجرّد إسقاط كلمة لا، ستشعر بالكثير من الأشياء الجديدة تحدث في داخلك، فهذه الكلمة لها تأثير كبير للغاية. بل هاتان الكلمتان "نعم" و "لا"

لهما تأثير كبير. إنهما تغيّران كيانك برمّته، فهما ليستا كلمتان عاديّتان. إنها ليست كلمات، بل دلالات على أسلوبك في الحياة، الشخص الذي يستمر في قول كلمة "لا"، سيصبح أكثر تعاسة، وأكثر إحباطاً، ولن تطرق الحياة بابه مرة أخرى، إذ كيف ستطرق الحياة بابك عندما تقول باستمرار كلمة "لا"؟ في الحقيقة لن تأتي الرياح إليه، ولن تتفتّح الأزهار على طريقك. إنه يزرع الأشواك بقوله كلمة "لا".

إن قائل كلمة "لا" هو الملحد الوحيد. أن تقول "لا" لله فهو ذروة توجّهك الكلّي لقول تلك الكلمة.

أمّا أن تقول نعم للحياة فهذا ما يعنيه التوحيد بالنسبة لي، أن تقول "نعم" للحياة، هو أن تفتح الأبواب، وتتواصل، وتكون في متناول الآخرين. قل نعم وستشعر فجأة أن الأبواب قد انفتحت في الداخل. اجلس بصمت تحت شجرة، وقل بصوت عال "نعم"، فتشعر بالتغيّر. بعد ذلك قل "لا" واشعر بالتغيّر. بهذا تخلق مناخاً متغيّراً، لأن الاهتزازات المختلفة تنشأ من كلمة لا. أمّا بقولك نعم، فأنت تخلق انفتاحاً، كما لو أنك رميت بحصاة إلى بحيرة، فتشا التموّجات، ثم تستمر في الاتساع، حتى تصل إلى الضفة الأخرى من البحيرة. عندما تقول نعم، فكأنك ترمي بحجر التقبّل، والمحبة، والصلاة، والجهوزية، والتسليم.. ومن ثم تتوالى الموجات لتصل إلى اللانهاية. إن قائل كلمة نعم سيصبح حتماً ذات يوم موحّداً، لأن كلمة نعم هي الذروة النهائية للإلهي.

إن كلمة "نعم" تصبح كلمة "الله"، أمّا "لا" فتصبح في النهاية إلحاداً.

جاء شخص إلى ذي النون وقال له إن الصوفيين كانوا مخطئين، إلى جانب اشياء أخرى.

يا له من شخص أحمق! بيد أن هذا قد حدث بالفعل. كما أنه يحدث معي كل يوم، فالناس الذين لا يعرفون أيّ شيء، يأتون إليّ رغم ذلك لكي ينصحونني بأنه لا ينبغي لهذا أو ذاك أن يحصل بهذه الطريقة، فغباء الإنسان ليس له حدود. ولكن هناك شيئان فقط ليس لهما حدود: غباء الإنسان، ورحمة الله، وإلا لما بقي الإنسان حيّاً. إنها لمعجزة: الغباء والتحجّر اللامحدود للإنسان، والرحمة اللامتناهية لله. فالوجود يستمر في العطاء، ولا يكترث لغبائك، لأنك ذات يوم ستعود إلى مكانك الحقيقي، وسوف تفهم.

فأيّ غبي هذا الذي يأتي إلى شخص مثل ذو النون ويقول إن الصوفيون كانوا مخطئين.

فانتزع ذو النون المصري خاتماً من إصبعه وناوله له.

لقد كان هذا المصري محقّاً، ذلك أنه من غير المفيد التحدث مع مثل هذا الشخص الغبي.. لأنه لن يفهم. وحتى لو فهم عقليّاً، فلن يكون ذلك فهماً حقيقياً.

لقد بدأ ذو النون يخلق وضعاً، فناوله خاتمه، وقال:

"خذ هذا الخاتم الى أكشاك السوق وانظر إذا ما كان بمقدورك الحصول على قطعة ذهبية مقابله".

لم يعرض عليه أحد من بين كل من السوق أكثر من قطعة واحدة ثمناً للخاتم.

تم اخذ الشاب الخاتم وعاد أدراجه.

"والأن"، قال ذو النون، "خذ الخاتم على صائغ، وانظر كم سيدفع".

فعرض الصائغ ألف قطعة ذهبية ثمناً للجوهرة.

فدُهِش الشاب من ذلك، وقال ذو النون، "ها انت تري الان ان معرفتك بالصوفيين تشبه إلى حد كبير معرفة أصحاب الأكشاك بالجواهر النفيسة، فإن رغبت بتقييم الجواهر، فعليك أن تصبح صائغاً".

ما الذي كان يشير إليه بالضبط؟ كان يشير إلى أن التصوّف ليس منظومة معرفية، ولا يمكنك أن تقرأ عنها. إن الكتب الدينية لن تكون ذات فائدة، وكذلك المدرّسون، لأن بمقدورهم التفسير، والتفسير لا يمكن أن يصبح تجربة. إن ما يحصل دائماً هو عكس الحالة تماماً: وهو أن التفسيرات تصبح عائقاً أمام التجربة.

فمن خلال التفسيرات، تبدأ في تفسير الأشياء بعيداً عن حقيقتها.

هذه التفسيرات لا تقودك إلى التجربة، وبالأحرى ستصبح بدائل عن التجربة، ولهذا السبب ولد رجال الدين والمتزمتين.

إن التصوّف ليس معرفة: ولا يمكنك تحصيله من ايّ مكان، أو من أيّ شخص، ولا يمكنك اقتباسه. إنه ليس معلومات، ولا يمكن لمدرّس أنه يعلّمه، الحقيقة لا يمكن تعليمها، لأنها تجربة. أنها ليست معرفة، بل كائن. التصوّف ليس شيئاً يمكن أن تتعلّمه، بل هو شيء يمكن أن تصبحه (أي تصبح متصوّفاً)، فمن ذا الذي يستطيع إعطاؤه لك؟ إنه أنت فقط. وحدك من يستطيع إعطاؤه لنفسك، ووحدك من يستطيع جلب نفسه إلى نقطة يعرف فيها ما هو التصوّف.. ليس بالمعرفة، بل بالفطنة.

تذكّر دائماً الفرق بين المعرفة والفطنة: المعرفة هي شيء ميّت؛ أشياء مكدّسة فوق بعضها البعض. أمّا الفطنة فهي حركة مستمرّة. إنها حيّة، أمّا المعرفة فميّتة. الفطنة هي جزء من كيانك؛ أمّا المعرفة فليست جزءٌ منه، بل جزء من ذاكرتك، والذاكرة ليست سوى كومبيوتر بيولوجي. وعاجلاً أم آجلاً، سيبتكر الإنسان أجهزة كومبيوتر صغيرة تحملها في جيبك. وسوف تحمل هذه الأجهزة معلومات كل المكتبات في العالم، ولن يكون ضرورياً بالنسبة لك أن تعلّمها: إذ يمكنك ببساطة أن تضغط زرّاً، فيزوّدك الكومبيوتر بالمعرفة. فلماذا يُهدر خمسة وعشرون سنة من حياة الإنسان في الجامعات مع أساتذة اغبياء، وامتحانات غبية فقط لكي يدرّب ذاكرته؟ إن ذلك يمكن القيام به بكل سهولة بواسطة الكومبيوتر، فهو أكثر كفاءة من أي نظام ذاكرة يمكن أن يكون، لأنه ميت تماماً.. والمعرفة ميّتة.

إن الكومبيوتر يحمل تلك المعرفة بكفاءة أكبر من عقلك. فعقلك لا يمكن الاعتماد عليه كثيراً: لأنه بشكل ما مرتبط بكائن حي، كما أن الحياة تستمر في الجريان من خلاله. وتلك الحياة تفسده.

إن المعرفة هي جزء من نظام الذاكرة، وليست جزء من كيانك، أمّا الفطنة فهي جزء من كيانك، وبالتالي تعني أن تكون ذلك الذي تريد أن تعرفه.

فإذا أردت أن تعرف الله، فإن الله لا يختبئ في مكان ما بحيث يترتب عليك أن تصل إليه...

... سمعت أنه عندما وصلت الأقمار الصناعية السوفيتية قريباً من القمر، فبعثوا برسالة إلى التلفزيون السوفييتي تقول: "لم نعثر لغاية الآن على أي إله أو آلهة".

إنه ليس في مكان ما في الأعالي! فالله ليس شيئاً، وليس شخصاً يتوارى في مكان ما. الله هو تفتّحك الداخلي.

تأتون إلي لتسالوا: "أرنا الله، أين هو؟" إن الله لا تمكن رؤيته، لأنه يتوارى في داخلكم.. إنه قَدَركم المطلق.

إن إلهكم لا يزال غير موجود، ومازال ينمو. لا يزال إمكانية، لا يزال احتمالاً، وهو ليس إلهاً فعلياً بعد. والحقيقة لا أستطيع أن أريكم إلهي.. فأعينكم لن تكون قادرة على رؤيته. أمّا إلهكم فما زال إمكانية، وعليكم أن تعملوا من له، فهو لا يزال بذرة، وعليكم سقايته، وأن تجدوا له تربة، وتساعدوه على النمو. لا يمكنني أن أريكم إلهي لأنكم لم تمتلكوا التجهيزات المناسبة بعد لكي تروه. والتجهيزات المناسبة ستتوفر فقط عندما تتحقق ألوهتكم. وعندئذٍ لن تكون هناك حاجة لكي تروا إلهي: فسوف ترون إلهكم، وستكونون قادرين على رؤية إله الآخرين. كما ستكونون قادرين حتى على رؤية أولئك الآلهة الذين ما زالوا إمكانية.

أستطيع رؤية إلهكم الذي لا يزال كالبذرة يكافح تحت الأرض لكي يكسرها ويخرج. لكن الأرض صلبة، وأحيانا توجد أحجار، وصخور أيضاً. أستطيع رؤية إلهكم وهو يحاول أن يكسر الأرض الصلبة. ذلك الإله الذي سيكون ذات يوم، والذي ليس موجوداً بعد.

إذا استطعتم أن تروا إلهكم الخاص، فسترون الله في كل مكان، لأنكم بتّم تملكون الأعين لتروه.

إنني لا أراكم كما مثلما ينبغي أن تكونوا.. صحيح أنني ارى ما أنتم عليه الآن، لكن ذلك ليس سوى مرحلة عابرة.

لقد ارتفعت الغيمة إلى السماء، لكنني أرى السماء. الغيمة حل، وأنا أراكم مثلما ستكونون. إني أراكم الآن مثلما أنتم الآن، ولكن إذا كانت لديكم الشجاعة الكافية، فتستطيعون المضي قدماً بشكل مفاجئ.

وقال ذو النون: "ها أنت تري الان ان معرفتك بالصوفيين تشبه إلى حد كبير معرفة اصحاب الأكشاك بالجواهر النفيسة.

إنهم لا يستطيعون تقييم الألماس، ولا يعرفون ما هو الألماس، ربما يرون أن هذا الحجر الجميل سيكون مناسباً للأطفال كي يلعبوا به. إنه مجرّد حجر لامع وملوَّن، وقد يكون من الجيّد أن يلعب به الأطفال.

هل سبق وأن سمعتم بقصة الماسة العظيمة كوهينور؟ سوف أرويها لكم:

هذه الماسة تعود لمزارع في قرية في الهند، فقد عثر عليها في مزرعته. لقد فاض النهر على مزرعته حيث وجد الماسة.

بدت الماسة بحالة جيّدة، وفكّر في أنها ستكون مناسبة للأطفال لكي يلعبوا بها. لذلك احضرها إلى المنزل، ولعب الأطفال بها. وكعادة الأطفال، فقد ملّوا من اللعب بها، ووضعوها على حافة النافذة، ثم نسيها الجميع.

وبينما كان راهب يمر بالقرية، وهو ناسك متشرّد أراد مأوى يبيت فيه، فدعاه هذا القروي. تناول الناسك الطعام، وبعد ذلك أخذا يتبادلان أطراف الحديث. وبما أن الناسك كان متشرّداً، فقد كان لديه الكثير من الأخبار عن العالم، وعمّا يحدث فيه. استمع له القروي. وفي معرض حديثة عن الماسة التي وجدها، قال له الناسك: "ما الذي تفعله هنا؟ إنني أعرف مكاناً على ضفّة النهر حيث يوجد الكثير من الألماس. وبقليل من الجهد، يمكنك أن تصبح أغني شخص. أما هنا، فستظل فقيراً دائماً وانت تعمل في هذه الأرض الصلبة، وسوف تهدر حياتك بأكملها".

في صباح اليوم التالي رحل الناسك.. لكنه ترك بذرة، وترك رغبة طموحة في عقل ذلك القروي الفقير. لقد استحوذ على تفكيره، ولم يعرف أين يوجد ذلك النهر. غير أنه بات مستلب العقل إلى درجة أنه باع مزرعته وذهب للبحث عن النهر. قال لزوجته وأولاده أن عليهم الانتظار خمس سنوات على الأقل، وبعدها سيعود.

بحث جاهداً في الكثير من الأماكن، لكنه بعد خمس سنوات لم يعثر على أي مكان حيث توجد فيه الجواهر بكثرة، والتي يمكن التقاطها دون عناء. غير أنه في هذه السنوات الخمس تعلم شيئاً واحداً: ما هو الألماس.

عاد القروي إلى المنزل، وعندما وصل إلى كوخه لم يصدّق ما رأته عيناه: فقد كانت على حافة النافذة ماسة أكبر من أي ماسة فكر فيها من قبل أو رآها في السوق. بعد ذلك تذكّر أن النهر قد غمر مزرعته التي باعها.. ووجد أعظم ماسة!

ذلك الجزء من المزرعة أصبح أكبر مصدر للماس في العالم، وهي قرية غولكوندا، كما أن كل الماس الكبير يأتي من كولكوندا، ومن أرض ذلك المزارع. وهذه الماسة التي لعب بها الأطفال، وملّوا منها، والتي كانت تستلقي مهملة على حافة النافذة، ولا أحد يعيرها أي اهتمام: باتت أعظم ماسة في العالم.

هذه القصة تنطبق على الرحلة الداخلية أيضاً. فلا تبيع المزرعة ذلك أن أعظم جوهرة تنتظرك في الداخل، ولكن تعلّم كيف تصبح صائغاً.. والتعليم الوحيد هو كيف تموت، لأنك إذا مت مثلما أنت الآن، فسوف تولَد مثلما ينبغي أن تكون.

صحيح هو قول الصوفي: "لا يمكن أن أعطيك شيئاً حتى تموت".

الفصل الثالث:
السير بدون عكّازات

إذا أردت أن ترى، فعليك أن تميت أناك لأن تلك الأنا لن تسمح لك بالرؤية

ذات مرّة طعن رجل ساقه، فكان عليه أن يسير مستخدما العكاز؟

وهذا العكاز كان مفيداً بالنسبة له كثيراً، فكان يستخدمه للسير، ولمآرب أخرى كثيرة.

فعمد إلى تعليم كل عائلته استخدام عكازات، تم باتت العكازات جزءاً من الحياة العادية. ثم أصبح امتلاك عكّاز جزءاً من طموح كل شخص. بعضها كان مصنوعاً من العاج، والبعض الآخر كان مزخرفاً بالذهب. بعد ذلك أنشأت مدارس لتدريب الناس على استخدامها، ومنحت مقام جامعية للتعامل مع الجوانب الراقية من هذا العلم.

عدد قليل من الناس أخذ يسير من دون عكازات، وهذا كان يعتبر عملا مخزياً، وسخيفاً. ولكن إلى جانب ذلك، كان هناك عدد كبير جداً ممن يستخدمون العكازات.

البعض رد معترضًا، فتمّت معاقبتهم. حاولوا توضيح ان العكاز ينبغي ان يستخدم أحياناً عندما تقتضي الحاجة، او أن يمكن تلبية العديد من الاستخدامات الأخرى التي صُنعَ لها العكاز بطرق اخرى. لكن قلّة من الناس اصغوا لهذا الكلام.

ولأجل التغلب على الأجحافات، بدأ البعض ممن ساروا بدون عكّاز يتصرّفون بطريقة مختلفة كلياً عن المجتمع التقليدي. لكنهم ظلّوا اقلية.

عندما تبيّن ان القليل من الناس كانوا في الحقيقة يسيرون بدون عكازات– بعد ان استُخدمت العكازات لأجيال عديدة– فقد "اثبتت" الغالبية ان العكازات كانت ضرورية.

فيقولون "هنا يوجد شخص يحاول جعل الناس يسيرون من دون عكازات. أرأيتم؟ لقد فشل في ذلك.

امّا المشاة العاديون فعمدوا إلى تذكيرهم قائلين: "لكننا نمشي من دون عكازات".

"هذا ليس صحيحاً، إنه مجرد وهم من قِبلَكم" هذا ما قاله المصابون بالعَرَج، لأنهم مع مرور الزمن أصبحوا عمياناً أيضاً.. عميان لأنهم لم يكونوا ينظرون.

الحياة حركة. الحياة تدفّق مستمر، وكل لحظة هي لحظة جديدة. لكن العقل ليس جديداً أبداً، فهو يتقهقر للوراء دائماً. ومن طبيعة العقل بالذّات أنه لا يستطيع التماشي مع سير الحياة: فالحياة تسير قدماً، والعقل يتخلف للوراء. إذن، هناك تعارض دائم بين الحياة وبين العقل.. ولا بد من أن يكون هكذا.

إنك تنظر إلى وردة، وفي اللحظة التي تدرك فيها أنك رأيتها، فلم تعد الوردة نفسها.. ذلك ان الحياة تحرّكت.

تنظر إلى نهر، لكنك لن ترى النهر ذاته مرة اخرى. فكما يقول هيراقليطوس: "لا يمكن ان تسير في النهر مرتين". وانا اقول لكم أنه لا يمكن أن تسيروا في النهر حتى مرّة واحدة.. وذلك لأن النهر يجري باستمرار.

حالما يتعرّف العقل على شيء، فلن يعود الشيء ذاته بالفعل. إن العقل يستمر في تكديس أثار الأقدام الميّتة، فقد تواجدت الحياة فيما مضى هناك، و"هناك" لم يعد موجوداً.

لقد تدرّبنا بوصفنا عقول، وذلك هو البوس. إنك تمضي في خسارة حياتك، وسوف تستمر في خسارتها ما لم تتخلّى عن الفكر، وما لم تبدأ بالعيش من منطلق حالة اللا فكر. عندئذٍ تصبح أنت والحياة شيء واحد. عندئذ يزول التعارض بينك وبين عقلك، ولن تعد تعيش وفقاً لأفكار ما، فالأفكار جزء من العقل. لا تعش وفقاً لأية أيديولوجية، أو دين، أو كتب دينية، أو تقليد.. بل عش ببساطة من فراغ كيانك.

من الصعب في البداية أن تتصوّر حتى كيف يمكن للمرء أن يعيش من الفراغ، غير أن كل الأشجار تمو من الفراغ، والنجوم تتحرك من الفراغ، والوجود بأكمله يوجد من الفراغ.. فليست هناك مشكلة. الإنسان وحده من لديه فكرة سخيفة عن أنه من الصعب وجوده من دون العقل. والحقيقة أنه من الصعب الوجودَ مع العقل، لأن الوجود والعقل متباعدان جدًّاً. وهما ليسا متباعدان فحسب، بل هما بعدان متناقضان. فإذا أردت أن تكون متطابقاً مع العقل، فستكون متناقضاً مع الحياة.

حدث أن كانت هناك قضية في المحكمة ضد ملا نصر الدين (الذي عُرِفَ أيضاً باسم جحا)، فسأله القاضي: "كم عمرك؟"

فقال: "أنت تعرف بالطبع، والجميع يعرفون أن عمري هو اربعين سنة".

فدُهِش القاضي وقال: "ولكن منذ خمس سنوات كنتَ في المحكمة، وكنتُ قد سألتك هذا السؤال، وقلتَ آنذاك أيضاً أربعون سنة، فكيف ذلك؟ أبَعدَ خمس سنوات يكون عمرك أربعون سنة"؟

فقال نصر الدين: "إنني رجل ثابت يا سيّدي، وعندما أقول إنني في عمر الأربعين، فسوف أظلّ في الأربعين إلى الأبد، ويمكنك أن تثق بي".

إذا كنت متطابقاً مع العقل، فسوف تصبح مثل هذا الشخص الجدير بالثقة. سوف تكون ثابتاً تماماً، لأن الحياة تمضي، وليست ساكنة. إنها لا تمكث ولو للحظة واحدة في أيّ مكان، ولا تعرف الراحة.

الحياة ليس لها تقليد لكي نتبعه، ولا إيديولوجية لكي نحاكيها، ولا نمط ثابت من خلال الماضي. الحياة منفتحة دائماً على المجهول.

الحياة تتحرك نحو المستقبل، أمّا العقل فيتحرك نحو الماضي. العقل محصور دائماً في التجربة التي حدثت سابقاً، أمّا الحياة فهي منفتحة دائما نحو التجربة التي لم تحصل من قبل، فكيف يمكن أن تلتقي الحياة مع العقل؟ وكيف تكون هناك أيّة إمكانية لأن يلتقيا؟ وبالتالي يصبح العقل منغلقاً على نفسه شيئاً فشيئاً. وليس هذا فقط، بل يصبح خائفاً من فهم الحياة، وهذا الخوف

يحصل لأن العقل يعرف أنك إذا نظرت إلى الحياة فسوف تثبت خطأك، لذا فمن الأفضل أن تبقى عيناك مغلقتان لكي لا ترى الحياة.

إن تفسير الحياة يحصل دائماً طبقاً للعقل، فإيّاك أن تصغي لها فسبب هذا أصبحت أصمّاً، وأبكماً، واعمى.

لهذا السبب لا تستطيعون الإصغاء إلى وفهمي، إذ لا يوجد هنا شخص، ولا أتحدث معكم بصفتي عقلاً. وفي الحقيقة، لا يمكنكم الالتقاء معي إلاّ على أرضية الحياة، وليس على أرضية العقل. لهذا السبب ستشعرون دائماً بأنني متناقض، ولا تستطيعوا أن تقارنوا ما أقوله اليوم مع ما قلته البارحة. ولكن ماذا باستطاعتي أن أفعل؟ لقد كان كل شيء في هذا الصباح جديداً، ولم يكن موجوداً من قبل، كما أنه لن يوجد مرة اخرى. إنه لا ينتمي إلى الماضي، ولا للمستقبل، بل ينتمي إلى نفسه.. إنه ظاهرة فريدة.

إن طيور الببغاء التي تثرثر بين الأشجار، لم تكن موجودة يوم أمس. فمن يدري أين ستكون غداً؟ وتلك النسمة الدافئة التي تمر عبر الأشجار لن تكون هناك.

كل شيء سيتغيّر! وكل شيء كان مختلفاً يوم أمس، وهو مختلف اليوم أساساً.

كما أنك لست نفسك، فكيف يمكن أن تكون نفسك؟ إذا كنت على قيد الحياة، فأنت ظاهرة شبيهة بالنهر: مضت أربع وعشرون ساعة، وأربع وعشرون ساعة تشبه آلاف وملايين الثواني التي مرّت. فكيف تكون أنت نفسك؟ أنا لا أعرفك، ولم أراك من قبل، فأنت جديد تماماً، فكيف يمكن أن أقول لك الشيء نفسه الذي قلته البارحة؟ كما أنني لم أعد موجوداً، ولم أعد الشخص الذي كان هنا يوم أمس.

الحياة انبعاث مستمر، فكل لحظة تموت، وكل لحظة تولد من جديد. غير أنك تستمر في حمل العقل القديم، ولن تتلاءم مع أيّ مكان أبداً، وأنت تعرف أنك لن تتلاءم مع أيّ مكان، ولا مع أيّ إنسان أبداً. وأينما ذهبت، فستكون هناك المشاكل نفسها. ذلك لأن هناك شيء مفقود.. شيء ناقص. لن تولّد علاقاتك ايّ تناغم، لأن التناغم غير ممكن إلاّ إذا كنت ظاهرة تشبه الجريان، والتغيّر، والحركة، والاندماج في الجديد.

إذا أصبحت نهراً من الوعي لا شكل له، فعندئذ يتوافق كل شيء، وتتوافق مع الحياة، وتتوافق الحياة معك، وسيكون كل شيء فجأة على أحسن ما يرام. وذلك الشعور المطلق بالتناغم هو ما يطلق عليه رجال الدين تسميّة: الله.

الله ليس شخصاً: إنه حالة وجود عندما يكون كل شيء متوافقاً.

عندما لا تتذمّر، فسيكون كل شيء جميلاً. غير أن العقل يجعل كل شيء قبيحاً لأنه يعيش كتقليد، بينما الحياة لحظيّة.

إن الكلمة الإنكليزية "tradition، تقليد" هي كلمة ذات مغزى كبير جداً، وربما لا تعرف أنها أتت من الكلمة المصدر: "traitor، خائن"؛ فكلمة تقليد تعني خيانة الحياة.. تعني الغدر والخيانة.

وبالتالي فإن عقلك خائن. فإذا كنت قادراً على التخلّي عن العقل، فسوف تحقق كل شيء. وإن التخلّي عن العقل هو جوهر كل دين.

والصوفية ليست سوى التخلّي عن العقل، والتخلّي عن التقليد، والتخلي عن الماضي. لهذا يبدو الدين الحقيقي ثوريّاً: لأنه دائماً ضد التقليد، وضد الماضي، وضد الكلمات الجامدة. كما أنه دائماً لأجل الحياة، ولأجل التدفّق.

لا يوجد دين يمكن أن يكون تقليدياً. غير أن كل الأديان أصبحت تقاليد، مما يعني أنها أصبحت زائفة: أي أنها أديان لا أكثر. فالدين يظلّ ديناً حقيقيّاً عندما يكون حقيقيّاً تجاه الوجود والحياة، وليس تجاه أيّ عقيدة، أو أيّ نصوص دينية. لهذا السبب لم يفهَم المسلمون التصوّف بسبب التعصّب. إنهم أحد أكثر شعوب الأرض تعصباً، فكيف يمكن أن يفهموا التصوّف؟ إنهم يفهمون القرآن الكريم بشكل حرفي للغاية.

وبالطبع، عندما نزل القرآن الكريم على النبي محمّد، فكانت لحظة مفعمة بالحياة، وكانت ظاهرة متناغمة: ففي تلك اللحظة أصبح النبي محمد متناغمة مع الكون فجأة، فأخذ الكون يبوح له بأسراره.

إن أوّل كلمة نزلت عليه هي: "إقرأ! اقرأ باسم ربك". وكلمة "قرآن" تعني القراءة، أو التلاوة، لأنها الكلمة الأولى التي نزلت على النبي محمد، وهي كلمة جميلة...

عندما سمع النبي محمّد للمرة الأولى وهو على جبل حراء كلمة "اقرأ! اقرأ باسم ربك"، فكان كما لو أنه استيقظ من نوم عميق. فنظر حوله متسائلاً: من القائل؟ فلم يرى أحداً، ذلك أن الحياة ليست شخصاً، بل هي الوجود بأكمله. فأخذ النبي يتلو.. ولا بد أنه كان يرقص فرحاً وينشد باسم الله.

في تلك اللحظة كان هناك شيء يشبه الموسيقى.. شيء يشبه الرقص في تلك اللحظة كان القلب، وكان الإنشاد، وكان الاحتفال. في تلك اللحظة تقبّل النبي الوجود، فاندمج في الكلّي، والكلّي اندمج فيه، مثلما تندمج قطرة الماء بالمحيط، ومثلما يندمج المحيط بقطرة الماء.

كانت أعلى ذروة للوجود يمكن أن يصل إليها إنسان. ولكن بعد أن بدأ الناس في كتابتها، لم يعد لها الجمال ذاته، فقد أصاب الجمود تلك الكلمات. إن القرآن كتاب، مثل الإنجيل والفيدا، ينطوي على معان كبيرة.. لكنه لا حياة فيه ما لم تتوصّل إلى الشعور بتلك اللحظة التي كانت في غار حراء عندما يقول لك الوجود برمّته: "اقرأ باسم ربك"، ولن تكون قادراً على فهم معاني القرآن. يمكنك أن تحمله، غير أنه سيصبح عبئاً عليك، ولن يمنحك الحياة. بل على العكس: سيسلب الحياة من أناس كثيرين. إن العبء شيء خطير، فهو يتحوّل في نهاية المطاف إلى عدوانية، حيث يشعر الشخص بالغضب، وبالرغبة في التدمير.

لا يمكن للمسلمين أن يفهموا التصوف، في حين أن النبي محمّد إن هو إلاّ شخص متصوف أيضاً. والحقيقة أنه ليس هناك مجتمع تقليدي يمكن أن يفهم الصوفيين. لقد كان الصوفيون منبوذين دائما، فقُذِف بهم خارج المجتمع، وخارج النموذج الراسخ، لأنهم كانوا دائماً يتسببون بالثورة في داخله. كانوا كالسيل الذي يزعزع أركان المجتمع القائم أركان المجتمع الميت، ويزعزع الثقافة والحضارة: من جامعات وحكومات وكنائس.. وكل الأركان الميّتة.

غير أن غالبية البشر أمواتاً أيضاً. وبما أن غالبية البشر أمواتاً، فالمجتمع القائم والميّت يناسبهم. ولكن ما إن تصبح حياً، وما إن تصعد طاقة الحياة فيك حتى تشعر على الفور بأنك تلاءم الوجود، ولا تلاءم المجتمع.

وأنا أقول: إذا لم تتلاءموا مع المجتمع، فلا يزعجنّكم ذلك، لأن هذا لا يعني شيئا على الإطلاق. الشيء الوحيد الذي سيكون له معنى هو ما إذا كنتم تتلاءمون مع الوجود أم لا. لذا حاولوا أن تكونوا متلائمين مع الحياة مهما تكن شاقّة. حتى لو كانت بعض الأحيان تبدو مستحيلة، ولكن حاولوا أن تتناغموا مع الكلّي. حتى لو كان ثمن ذلك نبذ المجتمع لكم، وإرغامكم على أن تصبحوا دخلاء، فلا يزعجنّكم ذلك، فهذا ما يعنيه التنسّك بالنسبة لي.

إن التنسّك يعني بذل الجهد لإيجاد الطرق والوسائل لتكون في تناغم مع الكلي حتى لو أحدث ذلك شرخاً بينك وبين المجتمع، وذلك لأن المجتمع من صنع الإنسان. فإن تلاءمتَ معه، فلن تحصل على شيء.

على المرء أن يعثر على منزله في الكلّي، ذلك أن كل المجتمعات هي ضدّ الله.

في الحقيقة ثمّة من يعتقدون أن هناك مجتمعات ليست ضدّ الله. كلا، وإنما أحياناً، بل من النادر جداً، ولبضعة لحظات في التاريخ، كان هناك القليل من الواحات في مجتمعات الصحراء الشاسعة.. غير أنها كانت استثناءات.

على سبيل المثال، عندما كان بوذا حيّاً، كانت هناك واحة حوله: أي بضعة آلاف من الأشخاص.. وهم لا يشكلون شيئاً إذا ما قورنوا بالعالم بأكمله. وهؤلاء تحوّلوا وعاشوا مع بوذا. لكن تلك الواحة من الناس اختفت، واختفى الربيع ما إن رحل بوذا.. فإلى متى ستبقى الأشجار موجودة من دونه؟

لقد كانت هناك واحة هنا، وواحة هناك، لكن المجتمع بشكل عام بقي ضد المتديّن.

غير أن الأشخاص الذين أداروا المجتمع القائم كانوا ماكرين جداً: إذ قدّموا للمجتمع مظهراً دينياً شكلياً، وطقوسيّاً. فالأعياد الدينية موجودة، والكنائس موجودة، والمعابد موجودة، والناس يذهبون إليها للصلاة.. ولكن كلها شكلية. فلا تنخدعوا بالشكليات، لأنها خداع بخداع، فهي موجودة لكي تمنحكم شعوراً بأن المجتمع متديّناً، ولا حاجة لأن تذهبوا أبعد من المجتمع بحثاً عن الدين.

لكن الدين يتخطّى المجتمع دائماً، ذلك أن الدين حيّ دائماً، لأنه ليس من العقل. أمّا المجتمع فهو من العقل دائماً. إنه نظام أنشأه العقل، بينما الدين ليس من العقل بشيء: إنه انضباط حرّ وطبيعي. كما أنه ليس شيئاً تملكه، أو تتلاعب به، بل على العكس من ذلك: إنك تفقد نفسك في ظاهرة تشبه النهر، والنهر هو الذي يمتلكك.

إن العقل مُفسِد، لكنه يُفسِد بكل دبلوماسية. إنه يُفسِد بمثل هذه الطرق الماكرة، إذ يقول: من الصعب عليك حتى أن تكون مدركاً لما يجري.

على سبيل المثال: رُبَّ شيء ما حقيقيّاً في لحظة معيّنة، فيتشبّث العقل به ويقول: "بما أنه كان حقيقيّاً في تلك اللحظة، فلابد أن يكون حقيقياً إلى الأبد لأن الحقيقة أبديّة". أمّا أنا فأقول لكم: ما من شيء يتغيّر مثلما تتغيّر الحقيقة، وهي خالدة لهذا السبب، لأنها إذا لم تتغيّر، فسوف تموت يوماً ما. إنها تتغير باستمرار إلى درجة أنها لا يمكن أن تموت، لأن التغيّر يعني تجدد طاقة الحياة.

الحقيقة أبدية، لكنها ليست ثابتة. الحقيقة أبدية بسبب التغيّر الأبدي، وهي تجدد نفسها باستمرار. كما أنها لا تسمح بأن يموت أيّ شيء في داخلها، فهي ببساطة ترميه إلى الخارج. الحقيقة لا تسمح بتراكم الأجزاء الميّتة، لأن الموت يهبط من خلال الأجزاء الميّتة.

سوف يموت العقل، ويجب أن يموت لأنه يُراكم الموت. أمّا الحياة فلا تموت أبداً لأنها تستمرّ التغيّر.

وتذكّروا هذا: الحقيقة ليست ثابتة، بل أبدية. وهي أبدية لأنها ليست ثابتة، فهي تتغيّر باستمرار، ومن خلال التغيّر تحافظ على بقائها، ومن خلال التغيّر تصبح جديدة. من خلال التغيّر المستمر تتملّص من الموت، ولا يمكنه الإمساك بها.

غير أن العقل له أشكاله المنطقية، والتي هي أشكال سخيفة إذا عرفتم ما هي الحياة. أمّا إذا لم تعرفوا الحياة، فالعقل لديه

منطقه الخاص. والمنطق يبدو متصلّباً تماماً، ومقاوم للخطأ تماماً.

العقل يقول: "كان هذا حقيقيّاً، إذن لابد أن يكون حقيقياً...الآن، وإلى الأبد".

صحيح أن القرآن حقيقيّ، لكنه كان حقيقياً في وضع معيّن: ذلك الوضع الذي كان مندمجاً مع روح، وشخصيّة النبي محمّد المندمجة في الكلّي. في تلك اللحظة ولدت الأنشودة، وكانت حقيقيّة كحقيقة الطيور التي تغرّد، وكحقيقة إزهارِ الأشجار، وكحقيقة الشمس وهي تتحرّك.. لكن تلك اللحظة مضت. والنبي رحل. وتلك الوحدة التي وُجِدَت في تلك اللحظة لم تعد موجودة الآن. والقرآن الآن هو عبئ ميّت، مثله مثل الجيتا، والفيدا، والكتاب المقدّس.

فأي شيء أقوله لكم، هو حقيقي في هذه اللحظة. أمّا غداً فسيصبح عبئاً ميّتاً، فلا تحملوه بإمكانكم أن تعيشوه هذه اللحظة قدر ما تستطيعون. استمتعوا به! إذا أمكنكم التمتع بذلك معي الآن. ابتهجوا به! دعوا وعيكم يلتقي به في هذه اللحظة. دعوا كلامي يدخل إلى أعماقكم، فهو يمكن أن يحوّلكم. امتلئوا به.. ولكن في هذه اللحظة! ولا تؤجلوا ذلك إلى يوم غد، لأن كلامي لن يعود صحيحاً غداً، ولا يمكن لأيّ شي أن يكون صحيحاً بعد اللحظة التي قيل فيها.

العقل يقول إنه إذا كان شيء ما صحيح اليوم، فسيكون صحيحاً غداً. وفي الحقيقة هكذا تولد التقاليد، وهكذا تصبح الأشياء سخيفة ولا معنى لها، بعد أن كانت ذات معنى كبير، وهكذا يتحول الجمال إلى بشاعة.

لقد كان حديث كريشنا مع أراجونا واحدا من الأحاديث التي تشكل قمم الوعي البشري. ولكن ماذا عن الجيتا؟ الجيتا هي مجرّد ذاكرة، ولن تفيدك. كان عليك أن تواجه كريشنا حالاً، ومباشرة. عليك أن تصبح اراجونا، وعليك أن تعثر على كريشناك الخاص. ولكن تذكّر: لن تكون اراجونا نفسه، إذ كيف يمكن ذلك؟ لديك كيان مختلف كلّياً، فكيف يمكن أن تكون اراجونا القديم مجدداً؟ كلا. لن تكون ذلك أبداً، ولن تكون كريشنا الذي وجده اراجونا. عليك أن تجد كريشناك الخاص، ذلك الشخص الذي تستطيع أن تلتقي به، وتندمج معه؛ ولك الذي يمكن أن تكون لك معه مثل هذه الوحدة، بحيث لا يعود يشعر التلميذ بأنه تلميذ، والمعلّم نسي أنه معلم؛ فلا أحد يعرف نفسه من يكون.

ففي مثل هذه المشاركة العميقة للكيان، تولد الأنشودة من جديد. فالجيتا تعني الأنشودة؛ و "البهاجافاد جيتا" تعني الأنشودة المقدسة. ستولد الجيتا من جديد، ولكن لن يتم تكرار الكلمات ذاتها، لأن كريشنا مختلف هذه المرة، وأرجونا الآن مختلف أيضاً، فكيف يمكن أن تتكرر الكلمات نفسها مرّة أخرى؟

إن الله غير محدود، ولا يحتاج للتكرار، وهو لم يُستنفَذ بعد.

الله لا يحتاج لأن يكرر نفسه من جديد، فبذلك سيكون إلهاً ضعيفاً إذا تلا الجيتا مرة أخرى، بل حتى لن يكون ذلك إلهاً، ولا جديراً بالإصغاء له.

في الحقيقة سوف يحدث مرة اخرى شيء جديد، وهذا الجديد قد لا يتّسق من القديم. هنا تبرز مشكلة المتديّن الحقيقي، والمتديّن الزائف.

إن الشخص شبه المتديّن سيكون دائما ملتصقاً بالماضي، وبالقديم، بينما رجل الدين الحقيقي سيتحرّك دوماً مع الجديد. وهذه مفارقة: فبالتحرّك مع الجديد سوف تصل إلى كل ما يتوارى في القديم؛ وبتشبثك بالقديم سوف تخسر كل ما يتوارى في القديم، وفي الجديد معاً. فالجديد دائماً هو الباب الذي يقودك إلى الله. والله يستمر في خلق أبواب جديدة لك كلما اتجهت إليه، وهو يستمر في فتح أبواب جديدة لك. إذن لا تفكر في الأبواب القديمة.

بيد أن العقل يسأل عن الأبواب القديمة دائماً، فإذا قلتُ لك شيئاً، فسوف تبدأ على الفور بالمقارنة فيما إذا كان مكتوباً في الجيتا، أو في القرآن، أو في الإنجيل. فإن كان مكتوباً، فسوف تومئ برأسك وتقول: "هذا صحيح".

أما إذا لم يكن مكتوباً فسوف تنكمش فجأة، ولن تومئ برأسك، ولن تقول نعم. وأنا أقول لك إنه مهما كان مكتوباً، فالأمر لا علاقة له بالموضوع أساساً، لأنه عفا عليه الزمن أصلاً، ولم يعد ذو معنى.

على المرء أن يلتمس المعني باستمرار، لأن ابتغاء المعنى في حد ذاته هو تطور بالنسبة لحالتك.

والآن، ينبغي فهم كل كلمة في هذا الحكاية الرمزية الجميلة، فهي حكاية تحمل الكثير من المعاني المتضمنة.

شخص كُسرت ساقه، وكان عليه ان يسير بعكّاز.

هكذا يولد الشخص المتديّن.

اعرف شخصاً كان صديقي منذ الطفولة، وكان طبيباً جيداً. ذات مرة، تعرض لحادث، حيث سقط من القطار على الأرض. وبالصدفة تغير شيء ما في دماغه: فقد تأذّى راسه، ودخل في غيبوبة لثلاثة أيّام، وعندما أفاق من غيبوبته، أصبح شخصية مختلفة تماماً.

كان شخصاً غاضباً باستمرار، بعدها اختفى ذلك الغضب. لقد تعرض شيء ما في دماغه للتلف، فحدث تغيّر لنمط من الطاقة، وأصبح شخصاً صامتاً جداً، وغير عدواني البتة، ومحبّاً جداً للسلام. بعد ذلك أخذ الناس يسألونه كيف حدث ذلك. فقال: "قفزت من القطار وهو يسير بسرعة، وارتطم رأسي بالأرض.. لقد حصل هذا لي، فلماذا لم يحصل لكم؟"

عندما سمعت بتلك القصة، فذهبت لرؤيته، وسألته: "ماذا تفعل؟ ما الذي تقوله للناس؟" فأجاب: "ولكن هذا ما حصل لي.. لقد حاولت مراراً الاّ أغضب، ولم أنجح في ذلك.

ثم قال: "فجأة، أعطي لي مفتاح بالصدفة".

لكنني قلت له: "احتفظ بهذا المفتاح السرّي وأبقه مخفيّاً، ولا تعطه لأحد، لأن الحوادث لا يمكن أن تتكرر".

هكذا تولد الكثير من التقاليد، فبوذا كان يجلس وضعية معينة، وكان هذا صُدفَة، ذلك أن الاستنارة لا تختار وضعية معينة. لقد حدثت الاستنارة عندما كان الناس يستريحون، او يضطجعون، وحدثت عندما كانوا يسيرون، وعندما كانوا يحملون الماء. لقد حدثت الاستنارة في كل الأوضاع. إن الاستنارة لا تختار وضعية معيّنة، فهي لا تعتمد على وضعية الجسد. غير ان بوذا كان يجلس في وضعية السادهاسانا، وهي وضعية بوذا، والآن يتبع البوذيون هذه الوضعية منذ ألفي سنة: يجلسون في تلك الوضعية، وينتظرون أن تحدث الاستنارة. فيا لهم من أناس اغبياء! بيد أنهم كثر، وينتشرون في كل مكان.

وهكذا ولدت كل وضعيات اليوغا: إذ يحدث شي في وضعية معيّنة، فتصبح تلك الوضعية في غاية الأهمية. بعدها يستمر الناس في ممارسة الرياضات البدنية، ويرغمون أجسادهم بهذه الطريقة أو تلك، ويظنّون أن الاستنارة ستحدث في هذه الوضعية أو تلك، بينما المسألة لا علاقة لها بالوضعية، إذ يمكن أن تحصل الاستنارة بالجلوس على كرسي. إذن لا حاجة لأن تجعل نموذج ما شيئاً في غاية الأهمية والمغزى، وإلاّ سوف يستحوذ عليك عقلياً.

إن الناس يذهبون إلى الهملايا، لأن كثيرون استناروا هناك.. لكن هذا يمكن أن يحصل في أي مكان.

الله موجود في كل مكان، فلا داع للذهاب إلى الهيمالايا.

إن العديد من المعلمين يتابعون تطورهم فقط لأنهم قاموا بعمل ما، ولأن شيئاً ما حدث لهم. ربما لم يحدث ذلك لشخص آخر، والسبب هو اختلاف الشخصية.

إني أصر دائماً على أنه ينبغي أن تبحث عن شيء ما لا يستطيع التقليد أن يقدمه لك. عليك أن تبحث عن طريقك الخاص، ومبدئك الخاص. يمكنك أن تحاول في طرق عديدة، فقط لتشعر بالطريقة الأنسب لك، وعندئذٍ، ما من طريقة أو أسلوب معمم لأية طريقة أخرى يمكن أن يقدم لك فائدة كبيرة. لذا عليك أن تطوّر تدريجياً طريقة خاصة بك.

الأمر يشبه بصمة الإبهام: إنها فريدة، ولا أحد يملك بصمة تشبهها على وجه الأرض، لا الآن، ولا في الماضي، ولا حتى في المستقبل. الحقيقة هي إنك توقيع فريد للمقدَّس.

لا توجد طريقة عامة تفيدك. إن الطرق العامة المنتشرة جيّدة لكي تبدأ بها، ولكن على المرء أن يستنبط أسلوبه الخاص، وطريقته الخاصة. فثمة شيء يجب أن تضيفه، وثمة شيء آخر يجب أن تحذفه، وشيئاً فشيئاً، عليك أن تبتكر لنفسك نظامك الخاص. إن الطريق ليس موجوداً مسبقاً وبالتالي عليك أن تسير، ومن ثم تخلق الطريق.

هكذا يساعد المعلم الناس، فهو يعطيهم نموذجاً عاماً لكي يعملوا به، فقط لكي يشعروا بكيانهم، وكيف يلائمهم هذا النموذج، وإلى درجة. أو ما إذا كان يناسبهم، أو لا يناسبهم على الإطلاق.

وهذا هو السبب في أنني أوجدت العديد من الطرق، كما أنني سوف أستمر في خلق العديد منها، وهذا يعتمد على الأشخاص الذين يأتون إلي. فعندما يأتي شخص جديد، أبدأ بالتفكير في شيء جديد بالنسبة له. ثمة حاجة إلى أساليب كثيرة لكي تشعر بالطريقة التي تناسبك، ومن ثم تخلق النموذج الشخصي الخاص بك.

ذات مرّة طعن رجل ساقه، فكان عليه ان يسير مستخدما العكاز، وهذا العكاز كان مفيداً بالنسبة له كثيراً، فكان يستخدمه للسير، ولمآرب اخرى كثيرة.

يمكنك أن تستند عليه كلّما شعرت بالتعب. ويمكنك أن تخيف به الكلاب الشاردة التي تلحق بك. وإذا دعت الضرورة فيمكنك أن تقاتل به، إذ يمكن للعكاز أن يُصبح سلاحاً، كما أن له استخدامات أخرى كثيرة أيضاً.

ثم لاحظ الرجل أن الألم قد اختفى، وشعر براحة كبيرة.

لقد عثر الرجل على مانترا – وهي طريقة التأمّل التجاوزي– فاخذ يساعد الناس على تعلّم التأمل. كان الناس يتألمون، وكانوا بحاجة إلى عكّازات، وهذه لها فوائد أخرى كثيرة أيضاً.

فعمد الى تعليم كل عائلته استخدام عكازات، ثم باتت العكازات جزءاً من الحياة العادية.

ثم أصبح امتلاك عكّاز جزء من طموح كل شخص. بعضها كان مصنوعاً من العاج، والبعض الآخر كان مزخرفاً بالذهب.

بعد ذلك أنشأت مدارس لتدريب الناس على استخدامها، ومنحت مقاعد جامعية للتعامل مع الجوانب الراقية من هذا العلم.

إن الحمقى كُثر، وهم دائماً على استعداد للتعلّم. كما أنك لا يمكن أن تعثر على شخص، مهما كان غبياً، لا يستطيع أن يجد لنفسه بعض التلاميذ.

الناس مستعدون للتعلّم، لأنهم غارقون في التعاسة. يريدون شيئاً ما، أو منهجاً ما، أو طريقاً ما، أو تعليماً ما لكي يتغلّبوا على تعاستهم. ولهذا السبب يصبحون ضحايا للكثير من الأشياء التي لا لزوم لها، وليس فقط لا لزوم لها، بل لا علاقة لها بهم. وليس هذا وحسب، بل ضارة عملياً.

عدد قليل من الناس أخذوا يسيرون من دون عكازات.

ذلك أنه من الصعب جداً أن تخالف المجتمع، بل هو أمر في غاية الصعوبة، لأنه سيخلق لك الكثير من العوائق والصعوبات.

سيعاقبك المجتمع إذا خالفته، أمّا إذا أطعته وسرت معه، فسوف يقدّرك ويحترمك. سوف يساعد أناك إذا تماشيت معه، وإذا لم تتماشى معه فسوف يحطم أناك. الكثير من الناس يعرفون حق المعرفة أن السير مع المجتمع حماقة، لكنهم يقولون: لماذا نخلق لأنفسنا متاعب غير ضرورية؟ فيلجؤون إلى التسويات.

تبدو هذه القصة مبالغ فيها، وتظن أنها قصة سخيفة. لكنها ليس مثلما تظن، فقد حصل هذا بالفعل. ربما تقول لنفسك "لماذا، وكيف يحصل هذا؟ كيف يمكن إغراء الناس – الذين يسيرون بشكل طبيعي في الأساس– لكي يستخدموا عكازات؟".

لقد تم تضليلهم، وأنت واحد منهم. ولكن حاول أن تنسى هذه القصة.

إن الغضب شيء طبيعي، لأنك لم تخلقه، بل ولدت فيه، أي أن الطبيعة منحتك إيّاه، ولابد أن للطبيعة غرض في ذلك، والاّ لما منحتك إيّاه. غير أن المجتمع يقف ضد ذلك، ويطلب منك أن تُخمِدَ غضبك. ولكن عندما تُخمِدَ غضبك، فإن الكثير من الأشياء تُقمَعُ من خلاله، ذلك أن كل شيء يرتبط بعلاقة متبادلة مع كيانك الداخلي.

فإذا كنت لا تستطيع قمع شيء، فلا يمكنك التعبير عن شيء. وإذا عبّرت عن شيء، فقد تم التعبير عن ملايين الأشياء.

إن الشخص الذي يقمع غضبه، سيكون عليه أن يقمع حبه، ومن ثم سيصبح خائفاً من الحب؛ لأنه عندما يتم التعبير عن الحب، فسيتمّ التعبير عن الغضب أيضاً.

والحقيقة أن الأحبة دائماً يغضبون من بعضهم البعض.. وليس هناك عدو كالغضب. لكنهم في الحقيقة أعداء حميمين: فهم يحبون، ثم يصبحون غاصبين أيضاً. كما أنهم يعرفون أن ذلك الحب عميق جداً إلى درجة أن الغضب لا يمكن أن يقضي ولن يقضي عليه أبداً.

إن الغضب يكون مدّمراً، فقط عندما لا يكون هناك حب في المقام الأول؛ وخلاف ذلك لن يكون مدمّراً. إذا لم يكن الحب موجوداً، فلماذا تسمي الغضب تدميراً؟ إنه ببساطة يبوح بالحقيقة.

الواقع أنه إذا كان الحب موجوداً فلا يمكن لشيء أن يحطّمه، بل إن أي شيء يمكن أن يفيد: فحتى الغضب يصبح جزءاً من التناغم. عندما تحب شخصاً، ثم يجتاحك الغضب، فسوف يعقبه الصمت بعد أن تزول العاصفة. وفي الحقيقة تصبح أكثر محبّة بعد لحظة الغضب؛ بعد المزاج الغاضب يطفوا على السطح المزيد من الحب، إذ يجب عليك أن تعوّض: لقد كنت غاضباً، وبعد ذلك يتدفّق الحب.. وهذا إيقاع ثابت.

يتقاتل الأحباء، وبعد ذلك يأتي دور الحب. وفي الحقيقة، الحب هو قتال حميم جداً جداً.

ذات مرة كنت أسير في الشارع، وكان ثلاثة أولاد اشقياء صغار يحدقون في ثقب مفتاح منزل. فنظر الأول وقال: "إن الزوج والزوجة يتقاتلان".

ثم نظر الولد الآخر، فضحك وقال: "إنك أبله! إنهما لا يتقاتلان، بل يمارسان الحب".

بعد ذلك نظر الثالث، وقال: "أجل، إنهما يمارسان الحب وبشكل سيئ للغاية".

الحب قِتال، كما أنه إيقاع. أثناء الغضب تبتعد، وكلما ذهبت أبعد عن حبيبك، كلما أصبحت الرغبة أقرب. والغضب يشبه الجوع تماماً: فعندما تشعر بالجوع، فسوف تأكل، بعد ذلك تشعر باكتفاء عظيم. لكنك تستطيع الأكل من دون جوع – وكل الأغنياء يفعلون ذلك– لكنك لن تشعر بالاكتفاء، بل على العكس من ذلك، ستشعر بالثقل، والتخمة، وقد تشعر بأنك على وشك الموت. والأمر ذاته يحصل بالنسبة للحب: فإذا لم تغضب أبداً من حبيبك، فسوف تأكل من دون جوع، وعاجلاً أم آجلاً، سوف تشعر بالضجر.

في الحقيقة لا أحد ينهار من خلال الغضب. إنه إيقاع: فأنت تذهب بعيداً، ومن ثم تعود. ومرة بعد مرّة، تعيد اكتشاف حبيبك. ومرة بعد مرّة، يكون هناك شهر عسل جديد، كل يوم ومن خلال ذلك ينمو الحب.

ولكن، إذا قمعت غضبك، فسوف يُقمع حبك. وإذا عبّرت عن الحب، فسيتم التعبير عن الغضب.

غير أن المجتمع يعارض الغضب، ولهذا السبب يعارض الحب أيضاً. والواقع أنه لا يوجد مجتمع لأجل الحب، بل هناك مجتمع لأجل الزواج.. الزواج، وليس الحب. فالزواج مؤسسة خلقها الفكر، أمّا الحب فهو عاصفة خلقتها الطبيعة. ولا تستطيع مأسسة العاصفة.

إن الأشخاص الذين يعيشون حياة الزوجيّة، يعيشون في مؤسسة تشبه السجن تماماً، فما من شيء ينبع من القلب. صحيح أن هناك اعتبارات أخرى، ولكن لا شيء ينبع من القلب؛ فالمال بدخل في الاعتبار، والعائلة تدخل في الاعتبار. وفي الواقع، تحاول المجتمعات بألاّ يُسمَحَ للأحباء في أن يختاروا ويقرروا، لأن سن الشباب لا يُعوّل عليه.

وحدهم العجائز من يعوَّل عليهم، ذلك أنهم عندما يشيخون يمتلكون العقل الخبير: في الحساب، والذكاء، والمكر. لذلك ينبغي أن يقرر الأب، أو، إذا كان لديك جد، فهذا جيّد للغاية. كما يمكن أن تقرر الأفلاك والنجوم أيضاً، فما من ضير ذلك؛ فتستطيع أن تذهب مُنجّم فلكيّ، ويمكن أن تقرر النجوم، فلا بأس في ذلك. أمّا أنت فلا ينبغي أن تقرر بنفسك، لأنك إذا قررت، فستقرر بفعل وقوعك في الحب، وسوف تسقط من المجتمع.

العشّاق هم جزء من المجتمع لا أكثر، فهل راقبت العشّاق؟ إذا كان هناك شخص يحب شخصاً آخر، فسوف يتحرّكان كمجتمع بحد ذاته. لا يكترثون بك، ويريدون أن تدعهم وشأنهم لا يريدون الذهاب إلى النادي، ولا إلى المعبد، ولا إلى الكنيسة... كلاّ، فقد وجدوا كنيستهم، لقد وجدوا معبدهم، وناديهم كلاهما قانعان ببعضهما البعض. يريدان حقيقة أن يختفي العالم برمته ويُتركان لوحدهما على هذه الأرض الخالية.

إن الحب ضد المجتمع.

والمجتمع ضد الحب.

الحب شيء طبيعي للغاية. أمّا الزواج فهو عكّاز.

الحب هو أن تسير على قدميك، أما الزواج فعكّاز.

الزواج يجعلك كسيحاً؛ فلم تعد كائناً مستقلاً، وفقدت شخصيتك الفرديّة.

إنك عضو في المجتمع، لكنك لم تعد فرداً. بينما الفرد ليس عضوا في أي شيء، فالفرد موجود كفرد.

لقد عمل المجتمع على شلّ كل ما هو طبيعي، ذلك أن المجتمع ضد كل شيء طبيعي. المجتمع يدين كل ما هو طبيعي، ويعتبره حيواني. المجتمع يجعلك مثقّفاً، ومتكيّفاً، وسطحياً. يقدّم لك كياناً مصطنعاً، ووردة بلاستيكية؛ والوردة البلاستيك لها إغراؤها الخاص، والإغراء هو بسبب ان الوردة الحقيقة دائماً في خطر، أمّا الوردة البلاستيكية فليست في خطر ابداً.

الزواج بدوره له إغراء. فإذا كنت مصرًّاً على الحب، فسيكون هناك المزيد والمزيد من الطلاق في العالم. أمّا إذا كان هناك زواج، فليس هناك طلاق، لأنك عندما لا تكون قد وقعت في الحب، فكيف يمكن أن تسقط منه؟ إذن الزواج شيء آمن.

إن الوردة الحقيقية تكون حيّة في الصباح، ومع حلول المساء تموت. أمّا الوردة البلاستيكية فتبقى، وتلزم المكان. إنها تبدو دائمة، لكن الدوام لا ينبغي أن يحكم عقلك، ولا ينبغي أن يكون ذا قيمة، وإلاّ فلن تكون قادراً على أن تتحرّك نحو الوجود أبداً. تمتّع بالشيء عندما يكون موجوداً، وعندما لا يعود موجوداً: اغفر، وانسَ، وتحرّك. هكذا ينمو المرء.

عدد قليل من الناس اخذوا يسيرون من دون عكازات، وهذا كان يعتبر عملا مخزياً، وسخيفاً. ولكن الى جانب ذلك، كان هناك عدد كبير جداً ممن يستخدمون العكازات.

فالناس الذين أصرّوا على أنماط الحياة غير الطبيعية، والمصطنعة، كانوا يصرّون دائماً على أن لديهم استخدامات للعكّاز.

يقولون دائماً أن الزواج مفيد: مفيد لأجل الأسرة، والأطفال، والمجتمع، ولكل شخص. أمّا الحب فخطير. ما الفائدة من الحب؟ ماذا ستصنع منه؟ إنه بلا فائدة. الحب بالنسبة لهم مجرّد شيء رومانسي، وعاطفي، ووجداني. الحب لا نفع منه! فهو ليس سلعة، ولا يمكن أن تبيعه في السوق، ولا يمكن أن تستفيد منه، بل على العكس! سوف تخسر الكثير بسبب الحب ولهذا السبب يقول الحاذقون من الناس أن الحب أعمى، والماكرون يقولون ان الحب مجنون، ولا فائدة ترتجي منه!

غير أن ما ينبغي فهمه هو أن الحياة لا فائدة فيها. وتذكّروا دائماً أنكم كلّما فكّرتم بأي فائدة، فأنتم الخاسرون. هناك حاجة للاستفادة، لكنها ليست الهدف. يمكن التضحية بالاستفادة، لكن ما هو غير نفعي، فلا يمكن التضحية به.. مثل الحب، والتأمّل، والصلاة.. فهذه كلها أشياء أهداف حقيقية، ومن خلالها تصل إلى الإلهي.

فما الفائدة من التأمّل؟ وما الذي يمكن أن تجنيه منه؟ لا شيء. ما الفائدة من الرقص؟ لا شيء. إنه لا يُطعمك، ولا يُسقيك، ولا يمكن أن تجعل منه ملاذاً؛ في الحقيقة يبدو الرقص عديم الفائدة. والحقيقة إن كل ما هو جميل: عديم الفائدة.

لقد حاول البعض بأن يثور: بضعة من البوذيين، وبضعة من المسيحيين، حاولوا أن يثوروا، لكي يعيدوكم إلى الطبيعة. لكن الذين يدعمون المؤسسات يقولون دائماً: "ما الفائدة من ذلك؟ يأتي إليّ الناس ويسألوني: "ما الفائدة من التأمّل؟ حتى لو تأمّلنا، حققنا التأمّل، فما هي الفائدة؟ ماذا يجني المرء منه؟

في الحقيقة سوف تخسر الله، لأن الله لا يمكن أن يصبح فائدة.

الله ليس بضاعة. إنه ابتهاج! وما هي الحياة إذا لم تبتهج فيها؟ ما هي الحياة؟ سوف تكون صحراء قاحلة.

ولأجل التغلب على الإجحافات بدأ البعض ممن ساروا بدون عكّاز يتصرّفون بطريقة مختلفة كلياً عن المجتمع القائم.

أخذوا يسيرون على أقدامهم لكونهم طبيعيين. وعندما تبدأ بثورة واحدة، فستعقبها ملايين الثورات. إذا استطعت أن تثور بطريقة واحدة ضد المجتمع، فسوف تصبح مدركا فجأة بأن هناك الكثير من الأشياء التي ينبغي التخلّص منها.

لقد جعل منك المجتمع حاوية للنفايات، وما إن تعرف أن هناك شيء واحد غير صحيح، فستكون قادراً على إدراك الكثير من الأشياء الخاطئة. فالمرء عندئذٍ يبدأ بسلسلة من ردود الفعل.

التأمّل هو أسلوبي لخلق سلسلة من ردود الفعل. فما إن تبدأ بالتأمّل حتى تعقبه الكثير من الأشياء؛ لأنك كلّما اصبحت واعياً، وصامتاً، كلما كنت قادراً على رؤية كيف كان يقتلك المجتمع، وكيف كان يدس لك السم، وكيف كان يمارس الإجرام. وفي الوقت ذاته بقول الجميع إنهم يساعدونك. في الحقيقة، المجتمع يقتلك فقط لكي ينقذك، فالمجتمع موجود لمنفعتك.. ثم يسمم كيانك برمّته بكل بساطة.

لقد سُمِّمتَ في الصميم، وسمم منبع كيانك.

ولأجل التغلب على الإجحافات، بدأ البعض ممن ساروا بدون عكاز يتصرفون بطريقة مختلفة كلياً عن المجتمع القائم.

لكنهم ظلّوا أقلية.

عندما تبين ان القليل من الناس كانوا في الحقيقة يسيرون بدون عكازات– بعد أن استُخدمت العكازات لأجيال عديدة... فقد "أثبتت" الغالبية ان العكازات كانت ضرورية.

هكذا تتحرّك الدائرة المفرغة في العالم.

ففي البداية تخلق نموذجاً، ثم تفرض هذا النموذج على الناس، بعدها لا تستطيع الضحية أن تعيش من دون نموذج. آنذاك تبرهن ذلك وتقول: "انظروا! لا أحد يستطيع المشي من دون عكّازات". في حين أنك لا تسمح لأحد بأن يمشي بدون عكّازات.

في الحقيقة، كل طفل ناله الكثير والكثير من الإجحافات، وعندما يحاول العيش من دونها، فسوف يجد صعوبة كبيرة، ذلك أنها باتت راسخة للغاية في تركيبه الداخلي وفي صميم كيانه. سوف يشعر بالصعوبات، وهو نفسه سيقول إن المشي مستحيل.

حاول أن تمشي بعكّازات لثلاثة سنوات، وبعدها لن تكون قادراً على المشي من دونها، ثم تصبح برهاناً على أنه لا أحد يستطيع المشي بدونها.

هكذا تستمر الإجحافات، لأنها غُرِسَت فيك منذ آلاف السنين، وقد تغلغلت في دمك وعظامك.

فعندما تشعر بدافع جنسي، فيأتي الشعور بالذنب على الفور، لأنه أصبح متجذّراً فيك.

إذا نظرت إلى امرأة جميلة، أو إلى رجل وسيم، وشعرت بجيشان مفاجئ للطاقة، فلا خطأ في ذلك. إنها استجابة، وهي شيء

طبيعي، وستكون مهانة كبيرة إذا لم تتحرّك أيّة طاقة في داخلك.

فإذا كان المجتمع طبيعياً فسوف يتقبّل الحقيقة، والمرأة ستشكرك إلى درجة يحمرّ فيها وجهك، وترتجف لمثل هذا الإطراء الجميل. لكنك سوف تُخفي الحقيقة، ولن تنظر إلى المرأة. وكلما حاولت الاّ تنظر، كلما ثارت الطبيعة ضد ذلك، بعدها يظهر الشعور بالذنب في أنك عديم الأخلاق.

عندما تنظر إلى وردة وتقول إنها جميلة، فأنت لست عديم الاخلاق. ولكن عندما تنظر إلى وجه بشري وتقول إنه جميل، فلماذا تصبح فجأة عديم الأخلاق؟ ما هو عدم الأخلاق في ذلك؟ ولماذا لا تُعجَبُ به؟

لقد كان الجنس مُداناً لعدة قرون، في حي أن الجنس هو مصدر كل طاقاتك. وبسبب إدانة الجنس، فقد أدينت كل طاقاتك: لأنك إذا أصبحت فعّالا في جزء واحد من طاقتك، فإن كل الأجزاء الأخرى سوف تصعد معها أيضاً. لذلك أرغِمتَ على العيش بطاقة منخفضة. ومن ثم ستقول: "إن الحياة تبدو خاملة، فلا متعة فيها، ولا حيوية". يبدو أنك مستَغَل بصورة مستمرّة، ولم تتبقّى لديك أي طاقة حياة لكي تعيش. ينبغي أن تكون الحياة متألّقة، ومتدفّقة، لكن المصدر الأساسي للطاقة هو الجنس.

إنك ما لم تتقبّل نشاطك الجنسي، فلن تكون مرتاحاً مع نفسك، لأن نشاطك الجنسي هو هذه القوّة العميقة: فقد وُلِدتَ منها، كما أن كل خلية من جسدك تعود إليها. إن طاقتك بعينها هي طاقة جنسية، وعندما تفسح لها المجال، فسوف تتحوّل الطاقة ذاتها إلى محبّة. الطاقة ذاتها سترقى إلى أعلى المستويات، وستتحول إلى صلاة. ولكن ما إن تُقمع، فلن تكون هناك إمكانية للتأمّل، أو للصلاة، فما هو الشيء الذي سيتحول؟ سوف تكون خائفاً على الدوام.

يحدث يومياً أن الناس يأتون إلى، وما إن يبدأون بالتأمّل حتى يشعرون بزيادة مفاجأة في طاقتهم الجنسية، فيصبحون خائفين، ومرعوبين. ثم يقولون: "لم نكن هكذا من قبل، فماذا يحصل؟ ما الأمر الذي سار بشكل خاطئ؟ هل كنّا نقوم بشيء خاطئ في التأمّل؟ ذلك أننا نشعر بطاقة جنسية!

ينبغي لهذا أن يكون جميلاً، إنه إشارة جيّدة، فالحياة تعود من جديد، وها هي تصعد مجدداً. ها هي الحياة تتدفق مرة أخرى من المنابع المتجمدة؟ وبالطبع فإن الجنس هو المركز الأساسي الذي سينكشف أولاً، لأنك قمعته. إنه يتمدد: كما لو أن نابضاً كان مضغوطاً تحت ثِقل، والآن زال الثقل وقفز النابض. إن هذا لشيء جميل، وهذا يدل على أن التأمّل يؤدّي وظيفته.

بيد أردت شيئاً آخر: أردت التأمّل لكي تقمع الجنس. إذن، لقد جئتَ إلى الشخص الخطأ. فاذهب إلى أصحاب السموم القدماء. عد إلى ناكري الحياة القدماء، وسيقدمون لك تقنيات تأمل بحيث تتمكن من الكبت أكثر. لكنك ستظل منقسماً دائماً، وستكون في نزاع دائماً، والانسجام المطلق لن يكون ممكنا أبداً.

إني أحاول خلق الوحدة في داخلك لكي تتقبّل مجدداً الجزء المكبوت، والجزء المكبوت سيعاد امتصاصه من جديد كيانك برمّته، لأنه من دون ذلك لن تستطيع المضي قُدُماً.

الجنس هو ساقيك– إنه الجزء الأدنى، نعم، أعرف ذلك– لكن رأسك من دون رجليك لن يستطيع الحركة. إنه الجزء الأدنى، اعرف ذلك، لكن الجزء الأعلى يعتمد على الجزء الأدنى. فإذا تحرّك الأدنى، فسوف يتحرّك الأعلى على الفور: فمع الجنس، سوف يصعد الحب. وعندما يصعد الحب، يختفي الجنس، ذلك أن الطاقة نفسها تصبح حباً. عندئذٍ للمرة الأولى تحصل لك

البراهماتشاريا، أي العذرية الأصيلة.

سيختفي الجنس بكل بساطة، فقد تحوّل إلى حب. بعد ذلك يرتقي الحب ليتحوّل إلى صلاة. بعدها يختفي الحب أيضًا، فقد أصبح صلاةً. والصلاة هي الذروة، ففيها تكون قد اكتملت.

ولكن ينبغي أن تبدأ من الأساس، من الطبيعي. ينبغي أن تبدأ من الطبيعي وصولاً إلى ما فوق الطبيعي، ولكن ليس ان تبدأ ضد الطبيعي.

عندما تبيّن أن القليل من الناس كانوا في الحقيقة يسيرون بدون عكازات– بعد ان استُخدمت العكازات لأجيال عديدة– فقد "أثبتت" الغالبية ان العكازات كانت ضرورية.

فيقولون "هنا يوجد شخص يحاول جعل الناس يسيرون من دون عكازات. أرأيتم؟ لقد فشل في ذلك".

أما المشاة العاديون فعمدوا الي تذكّيرهم قائلين: "لكننا نمشي من دون عكازات". فذكّره الأشخاص العاديون قائلين: "لكننا نسير من دون عكّازات".

"هذا ليس صحيحاً، انه مجرد وهم من قِبلكم" هذا ما قاله المصابون بالعَرَج، لأنهم مع مرور الزمن أصبحوا عمياناً أيضا.. عميانٌ لأنهم لم يكونوا ينظرون.

كنت اقول للناس: " تقبّلوا طبيعتكم، فالتقبّل ذاته سيصبح تحوّلاً عميقاً، وسيتغيّر شكلكم.

أحياناً يأتي إلى تلامذة روحيين قدامي، ممن يؤمنون باليانية، أو البوذية، أو الهندوسية؛ يستمعون إليّ ثم يقولون: "هذا غير معقول! لقد كنا نقمع الرغبة الجنسية، لكنها لم تبارحنا.. في حين أنك تقول: "تقبّلوها وسوف تختفي".

إن منطقهم في الحقيقية واضح جداً، فهم يقولون: " لقد كنا نقمع الرغبة الجنسية ونقاتلها طوال حياتنا، لكنها لم تبارحنا، وها أنت تقول: لا تقمعوها؛ تقبّلوها وسوف تزول".

هؤلاء منطقهم واضح، فهم يقولون: "كيف للرغبة أن تختفي، في حين أنها لا تختفي من دون الكثير من القتال؟ كلاّ، هذا غير ممكن. لقد حاولنا، لكنها لم تتقهقر ولو بوصة واحدة. لقد كرّسنا جّل حياتنا كمن يقف على خازوق! وها أنت الآن تعلّم مثل هذا الأمر البسيط. هل نحن أغبياء؟ إنها لن تدعنا وشأننا".

بيد أني أقول لهم: "انظروا إلي: لقد اختفت الرغبة لديّ". بيد أن لسان حالهم يقول – سواء قالوا لي ذلك صراحة أم لا: لابد أنك واهم؛ لابد أنك تتخيّل.. هذا ليس صحيحاً؛ إنه مجرّد وهم.

لكن الحقيقة هي أنه من الصعب أن تموت الأنا.

غير أنهم لا ينظرون! أقول لهم: "كونوا معي، انظروا الي، راقبوني، فكل ما تسعون إليه قد حصل لي"!

فيقولون: "لا بد أنه وهمك، فتحقيق ذلك هو شيء مستحيل في هذا العصر، وفي هذا الزمن. مكتوب في الكتب المقدسة انه لا يوجد إنسان يمكن أن يصبح مستنيراً في عصر الكالي؛ ففي عصر التكنولوجيا هذا، لا يمكن لأمرئ أن يصبح مستنيراً.

إذن كيف لك أن تصبح مستنيراً؟"

فأقول: " انظروا إليّ.. راقبوني.. كونوا قريبين منّي.. كونوا حميمين، واشعروا بذلك". لكنهم ليسوا مستعدّين لذلك، فكتبهم المقدسة تقول شيئاً آخر، وبالتالي لابد أنني أخدع نفسي، ولابد أنني أحلم، وأتوهّم.

وهذا لم يحصل معي أنا فقط، فقد كان يحصل هذا على الدوام: عندما استنار بوذا، جاء نفس الأشخاص إلى بوذا، وقالوا له: "كلاّ، هذا غير ممكن! هذا غير ممكن! كيف لك أن تصبح مستنيراً"؟ إنك تحتاج لملايين الحيوات لكي تستنير، فهذا ما كُتِبَ في النصوص المقدّسة. ثم.. ما الذي فعلته؟ أيّة قسوة هذه؟ ما اليوغا التي اتبعتها؟ بالجلوس تحت الشجرة، ثم فجأة تعلن أصبحت مستنيراً؟ ما هو الدليل على ذلك؟ ... لابد أنك تتوهّم!" في الحقيقة: لم يأخذوا في حسبانهم الكثير من المستنيرين، فالكتب المقدّسة الهندية لم تُشِر إلى مهافير، لأنهم لم يصدّقوا انه أصبح مستنيراً.

حقاً إنّ الأنا لا تموت بسهولة.

فعندما تعيش في عالم مصطنع، ومزيّف، ومقموع، ومرغم، ومنضبط بطريقة أو بأخرى: شيئاً فشيئاً ستصبح أعمى أيضاً– لأنك عندما لا تستخدم عينيك، فإنها تفقد قدرتها على الرؤية. والشخص المتحامِل يتجنّب استخدام عينيه، لأنه من يدري ما يمكن أن يشاهده؟ – إن الحقيقة قد لا تدعم تحامله، وبالتالي يتجنب ذلك، ولن ينظر؛ أو إذا نظر، فسوف يفسّر ذلك بطريقة لا تعود فيها الحقيقة موجودة: فقد أحاطها بالوهم.

الناس المتعاملون جداً – وكلّهم متحاملون، فهذا هندوسي، وذاك مسلم، وذلك مسيحي – قد قرروا سلفاً، ومن دون معرفة، ما هو الصحيح. لقد توصّلوا سلفاً، ومن دون تجربة، إلى النتائج. إنهم يتجنّبون النظر مباشرة، وعندما تستمر في تجنّب النظر، فسوف تفقد بالطبع قدرتك على الرؤية، وتصبح أعمى.

"هذا ليس صحيحاً، إنه مجرّد وهم من قِبلَك. هكذا قال الكسحاء؛ ففي ذلك الوقت كانوا قد أصبحوا عمياناً ايضاً، عمياناً لأنهم لا يريدون ان ينظروا.

إذا أردت أن ترى، فعليك أن تميت أناك: لأن تلك الأنا لن تسمح لك بالرؤية، ولا بأن تكون طبيعياً، ولا بأن تَظهَر الحقيقة.

الموت للأنا،

الموت للماضي.

إن مقولة الصوفي صحيحة: "لا يمكن أن تأخذ شيئاً منّي حتى تموت".

إنه لشيء صعب أن تموت، ولكن: ما من طريق آخر، فلا يمكن أن تأخذ شيئاً منّي حتّى تموت".

الفصل الرابع:
نحو الحريّة مباشرة

لقد دخلت إلى الحياة، والآن تتخبّط هنا وهناك،

لا تعرف كيف تهرب، والى اين تهرب.

جاء رجلٌ إلى المعلم العظيم بهاء الدين، وطلب منه المساعدة في حل مشكلاته، وارشاده الى طريق التعلم. فطلب منه بهاء الدين ان يتخلّى عن الدراسات الروحية ويغادر المكان على الفور، لكن زائراً طيب القلب اخذ يحتجُّ على بهاء الدين.

فقال الحكيم: "من حقّك ان يكون لديك توضيح".

في تلك اللحظة دخل طائر إلى الغرفة واخذ يندفع هنا وهناك، لا يعلم الى اين سيهرب، واين سيذهب بنفسه. انتظر الحكيم المتصوّف إلى أن هذا الطائر، واستقر بجانب النافذة الوحيدة المفتوحة في الغرفة، ثم فجأة اخذ يصفّق بكلتا يديه. فذُعِر الطائر، وخرج مباشراً عبر فتحة النافذة إلى الحرية. فقال بهاء الدين: لابد وان ذلك الصوت قد شكّل له نوعاً من الصدمة، او حتى إهانة، ألا توافقني الراي؟

هناك قصة قديمة: كان يوجد في تايلاند معبد قديم جداً. تقول الأسطورة أنه في بداية الخلق غضب الله من أحد ملائكته، فقد ارتكب الملاك معصية ما، وكانت خطأ مهلكاً إلى درجة أن الله قذف به إلى الحياة الدنيا وقال له أن عليه العيش على شكل أفعى غير مرئية في هذا المعبد القديم.

كان لهذا المعبد برج بمئة درجة، وكان على كل حاج إلي هذا المعبد أن يصعد إلى ذلك البرج، الأمر الذي يعتبر جزءاً من رحلة الحج. لذلك قال الله لهذا الملاك: "يتوجب عليك أن تعيش عند الدرجة الأولى من هذا البرج، وكلما أتى حاج، فعليك أن تصعد معه".

في تايلاند يقسمون وعي الإنسان إلى مئة درجة، ويمكن للأفعى أن تصعد مع الحاج إلى النقطة التي تقابل درجة وعيه فقط. فإذا نال الدرجة العشرين من الوعي، ستتمكن الأفعى من اللحاق به إلى الدرجة العشرين، وإذا وصل إلى الدرجة الخمسين، فستتمكن الأفعى من اللحاق به إلى الدرجة نفسها، كما قال الله للملاك: "إذا تمكنتَ من الوصول إلى الدرجة الأخيرة ثلاث مرات، فسوف تتحرر من خطيئتك".

ثم تمضي الأسطورة إلى أنه لغاية الآن لم تتمكن الأفعى من الوصل إلى الدرجة المائة سوى مرةً واحدة فقط، وكان ما يقارب العشرة آلاف حاج يأتون كل يوم إلى هذا المعبد القديم. لقد مضت آلاف السنين، وأتى الكثير والكثير من الحجاج، ومازال على هذه الأفعى أن تلحق بكلّ حاجّ يأتي. بعض الأحيان، بل نادراً ما كانت تستطيع هذه الأفعى الوصول إلى الدرجة الخامسة والعشرين، ونادر جداً ما كانت تستطيع الوصول إلى الدرجة الخمسين، وقد وصلت للدرجة المائة مرة واحدة فقط. كانت تعود لأول درجة في كل مرّة. والآن، أصبحت يائسة جداً، وعلى ما يبدو أنه لا أمل في ذلك، إذ لم تكن هناك سوى مرة واحدة... إلا أنه ينبغي أن تصل إلى الدرجة المئة ثلاث مرات، وحينها فقط يتحرر هذا الملاك من خطيئته.

جميلة هذه الأسطورة، فهي تخبرنا الكثير من الأشياء، أولها: حدث أن استنار شخصاً واحداً فقط من بين ملايين الناس، ذلك أنه من الصعب أن تصبح مستنيراً. بيد أن هناك صعوبة بالغة أود إخبارك عنها، وهي أن شخصاً واحداً من بين ملايين الأشخاص يمكنه أن يصبح مستنيراً، لكن شخصاً واحداً أيضاً من بين آلاف الأشخاص المستنيرين يمكنه أن يصبح معلماً.

أن تصبح معلماً، فهو أمر يكاد يكون مستحيلاً. لكي تصبح مستنيراً، فينبغي عليك أن تعمل على نفسك، وعلى كل الحواجز والعوائق التي في داخلك، غير أنها حواجزك أنت. أمّا لكي تصبح معلّماً، فعليك أن تتعامل مع حواجز الآخرين وعوائقهم.

أن تتعامل مع نفسك هو أمر صعب للغاية، ولكن أن تتعامل مع شخص آخر، فهو أمر يكاد يكون مستحيلاً.

لقد وجد الكثير من البوذاوات، ولكن لم يصبح البوذا معلماً سوى مرّة واحدة، فالاسم الشهير لغوتاما بوذا، قد حصل عليه فقط لأنه أصبح معلماً. هناك ملايين البوذاوات ممن جاؤوا قبله، لكن أحداً منهم لم يصبح معلماً.

حدث أن سأل أحد الأشخاص بوذا: "لديك ما يقارب الخمسين ألفاً يحيطون بك، فكم شخص من هؤلاء أصبح مثلك؟" وقد روي أن بوذا أجاب بأن الكثير منهم أصبحوا مثله، غير أن السائل وقع في حيرة، فقال: "إذا كان كثيرين حقاً أصبحوا مثلك، فلماذا لم يعلم بهم أحد؟"

فقال بوذا: "لقد أصبحوا مستنيرين، لكنهم ليسوا معلمين إنهم مثلي تماماً، ويقعون على المستوى ذاته من الوجود.. هذا هو الشيء الأول. ولكن أن تحث شخصاً آخر لكي يجلب وعيه إلى المستوى ذاته، فهو فن في غاية الصعوبة".

أن تحثَّ الآخر كي يرتقي إلى أعلى قمم الوجودِ، فهو الشيء الذي يكاد يكون مستحيلاً، لأنه سيخلق كل أنواع المقاومة، وكلما حاولت جلبه للأعلى، كلما عملت أناه على مقاومة صعوده. ستكون الأنا مستمتعة بسقوطه أكثر فأكثر. سوف تكون الأنا عدوّهُ. وبما أن الآخر يتحدد بأناه، فهو يظن أنه أناه.

لذلك عندما يحاول المعلّم تحويلك او مساعدتك، فإنك تخلق كل أنواع الحواجز لكي لا يساعدك.

المدرسون كثيرون، لكن المعلمون قلائل.

ان المدرسين رخيصين للغاية؛ تستطيع شرائهم بحفنة من المال. ان تكون مدرسّاً، فهذا لا يعني شيئاً. ذلك أنك تحتاج إلى مقدرة عقلية بسيطة لكي تفهم الأشياء وتشرحها، فإذا كنت مفوّها بعض الشيء، فبإمكانك أن تصبح مدرساً. إن الكتب موجودة، وبإمكانك أن تحفظها عن ظهر قلب، وبقليل من الممارسة، يمكنك أن تحقق فهماً منطقياً معيّناً للأشياء، ويمكنك أن تبرهن للناس وتفحمهم. كما أن الكثيرون سينجذبون إليك، لأن الناس يعيشون داخل تفكيرهم.. يعيشون داخل رؤوسهم.

إن المدرس هو شخص عنيد التفكير، وأكثر عناداً منك. يستطيع التأثير فيك، بيد أن هذا التأثير لن يوصلك إلى أيّة نتيجة؛ سوف تبقى في الروتين نفسه، فهو نفسه بلا وِجهَة. إنه يدرس دون معرفة بما يقوم بتدريسه. المدرّس هو شخص يتحدث بأشياء يجهلها، ويتحدث عن عوالم لم يختبرها، ولم يتذوق طعم أيّ شيء من المجهول. ربما تذوق طعم الكثير من الأشياء في الفيدا، أو القرآن، أو الكتاب المقدس، أو الأبانشاد، وربما جمع منها الكثير من المعرفة، لكنه لا يملك أيّ شيء منها. يمكنك التكيف مع المدرس بسهولة بالغة، لأنه من النوعية نفسها، وهو ينتمي لمستوى الوجود عينه الذي تنتمي له أنت. إن المدرسين يتمتعون بتأثير كبير؛ فقد قادوا حركات كثيرة، والملايين انجذبوا لهم.. والسبب هو أنهم يتكلمون اللغة ذاتها التي تستطيع فهمها.

أما المعلّمون فلا يستطيعون قيادة حركات كبيرة، بل يكاد يكون ذلك مستحيلاً. والواقع أنه ما إن يصبحون معروفين، حتى لا يعود أحد يسمع بهم؛ فما إن يسمع بهم الناس، حتى يكونوا قد رحلوا. بعد ذلك تتم عبادتهم لآلاف السنين، غير أن تلك العبادة لن تفيد كثيراً. من الصعب أن يثير إعجابك معلمٍ ما، لأن ذلك الإعجاب يعني موت الأنا لديك. أن تسمح لمعلم ما بالعمل على تغييرك، فذلك بحد ذاته يعدّ شجاعة منك. فعندما تفتح قلبك، ستصبح عرضة للعطب، ولا أحد يعرف إلى أين سيأخذك، ولهذا عليك أن تثق به، فالمنطق لن يساعدك كثيراً، وإنما الحب فقط. غير أن الحب نادرٌ: الجميع منطقيون، فمن هو المحب؟ الجميع يمتلكون ذكاء ماكراً، ولكن من الذي يملك قلباً واثقاً؟

هذا أول شيء ينبغي أن تفهمه قبل الدخول في هذه القصة.

إن الصوفيين لا يؤمنون بالتدريس ولا بالمدرسين، كهذا الرجل الذي يدعى بهاء الدين، والذي هو واحد من أعظم المعلمين. المعلم لا يدرس، بل يوضِّح، فما كيانه برمّته إلاّ توضيح. إنه يفتح لك أبعاداً جديدةً، ويدعوك للنظر من خلال تلك الأبعاد الجديدة، ومن خلال تلك الآفاق الجديدة، وتلك النوافذ الجديدة. إنه يوضِّح، ولا يدرّس. حتى وان قام بالتدريس، فإنه يفعل ذلك فقط من أجل إقناع عقلك، وجعله ينظر عبر نافذته، حيث تأخذ الأشياء شكلاً مختلفاً تماماً.

كما أنه ينبغي على المعلم أن يكون بارعاً في أعظم الفنون: ألا وهو فن القلب الإنساني، ذلك أن العقل سبب كل المشاكل، لأنه صعب ومعقّد للغاية.

فعلى سبيل المثال: جاءني شخص، وكان هذا الشخص مستعداً للقفز؛ بل يعتقد أن باستطاعته القفز، لكنه في الحقيقة غير مستعدٍ لذلك. كنت أرى أن هذه ليست اللحظة الملائمة بالنسبة له، وإذا نفذ هذه القفزة، فسوف يضيع. كان عليّ إقناعه بالتروّي، والانتظار لحين قدوم اللحظة المناسبة. يتوجب عليّ أن أغير تفكيره، وأشغله بأي شيء آخر حتى بصرف النظر، على الأقل في الوقت الحالي، عن تلك القفزة النهاية. سيكون مستعداً لذلك يوماً ما، ذلك أن كل شيء يأتي في أوانه.

لا يمكنك أن تفرض ظاهرة كالاستنارة، ولا يمكنك التلاعب بها، بل عليك انتظارها، لأنها ستأتي في الوقت المناسب، ومن تلقاء نفسها. والواقع أنه ما من طريقة لفرضها، ولا تستطيع التحكّم بها، وكل ما بوسعك فعله هو أن تتعلم انتظارها بكل محبة. أن تتعلم كيف تنتظر، وكيف تثق.

عندما تأتي اللحظة المناسبة، فسوف تحدث الاستنارة.

يأتي أحدهم ويقول لي إنه مستعد لذلك. يعتقد أنه مستعد، لكنني أرى أنه ليس كذلك، وبالتالي عليّ أن أحرف عقله: عليّ ان اعطيه شيئاً يتسلّى به، بحيث ينقضي الوقت لكي ينضج. يعتقد انه جاهز، وهذا ليس تفكيراً واقعياً: إنها الأنا. وهو يقول: "ساعدني الآن".

كما أن شخصاً غيره يعتقد أنه ليس جاهزاً. لكن الحقيقة هي أن التفكير ليس ذا قيمة كبيرة في العالم الأكثر عمقاً.

أحدهم موجود، وهو غير جاهز، لكنه يعتقد أنه جاهز.

وآخر جاهز، لكنه يعتقد غير ذلك، وفي هذه الحالة عليّ أن أحثّه واغريه بأن يقفز.

إنه متردد، وخائف، ويقول إنه غير مستعد. "ماذا تفعل؟ لماذا تجبرني؟ لماذا تلاحقني؟" لكنني أعرف أنه مستعد، ولو أن هذه اللحظة مضت، فقد يتطلب الأمر سنين عدة قبل أن تأتي لحظة مناسبة أُخرى، بل ربما يتطلب الأمر حيوات عديدة.

في لحظة معينة، سيكون الوجود بأكمله على اتم الاستعداد لقبولك، لكنك تتردد. ربما لن تأت هذه اللحظة مجدداً في وقتٍ قريب، ربما تمضي حياة بأكملها، أو عدّة حيوات، إلى أن تأتِ اللحظة المناسبة. لذا عليّ أن أراقب، لا أن أصغي إليك، ولا أستطيع ذلك، لأنه يتوجب عليّ القيام بأعمالي الخاصة. لا أستطيع الإصغاء إليك، لأنك لا تعي ما تقول، ولا تعلم ما الذي يحدث لك، فانت مشوشٌ تماماً. إذا أصغيت لك، فعندها لن أكون مفيداً لك. علي أن أتصرف بطريقتي؛ عليّ أن أخلق بداخلك شعوراً بأنني أصغي إليك، وأن أستمر في إقناعك بأنك قمت من جهتك بكل ما عليك فعله.

بعض الأحيان، أرى أنه من الأفضل لك أن توقف كل أنواع التأمل، لأنه، وبسبب تدخل عقلك، فيصبح حتى التأمل توتراً، ويمكن أن يصبح عائقاً. كما عليّ إرغامك احياناً على الدخول في التأمّل رغم أنفك، لأنه ما لم يكن هناك توتّر معيّن في داخلك، فلن يكون التحوّل ممكناً. هذا الفن دقيقٌ جداً، فأنت بحاجة إلى توتّر معين، تماماً مثل الشدّ الذي يحتاجه السهم عندما تضعه في القوس لكي ينطلق، وإلاّ فلن ينطلق. لكن زيادة الشد يمكن أن تكسر القوس.

هناك حاجة للتأمل، وبمجهود كبير، لكنك لا تعلم أين يبدأ، وأين ينتهي.. ولذلك على أن أراقب. بعض الأحيان سأقول: "أوقف التأمّل"، في حين أنك لا تستوعب هذا الأمر، ذلك أنني أقول باستمرار: "تأمّل"!

بعض الأحيان على أن أقول "تابع تأملك" وعندها أيضاً لن تفهم ذلك، لأن ما أقوم بتعليمه دائماً هو أن التأمل لا يحتاج إلى مجهود، فهو شيء يحدث بشكل تلقائي.

حاول أن تتفهم موقفي، ذلك أنه يتوجب على العمل مع الكثيرين، لذلك سأدلي بالكثير من الكلام المتناقض. سأقول شيئاً ما لشخص، وأقول نقيضه تماماً لشخص آخر، والسبب هو أنهما شخصان مختلفان. وبالتالي فإن كل ما أقوله، هو كلام شخصي تماماً. عندما أقول لك كلاماً، فأنا أقوله لك أنت بالذات، وليس لأي شخص آخر. كما أنه حينما أقول لك شيئاً، فهو ليس شخصياً فقط، بل إنه مرتبط باللحظة الراهنة أيضاً، لأنك ستكون قد تغيّرت في اليوم التالي، وحينها سيقال لك شيء آخر. إنها استجابة متواصلة، وحيّة أيضاً.

إن المدرّس شخص فاقدٌ للحياة، وتعليمه لا حياة فيه أيضاً. فهو لا يأبه بشأنك، وانت بالنسبة له لا تعني شيئاً. لديه نهج تعليمي، وتركيزه منصباً على تدريسه أكثر من تركيزه عليك.. وفي الحقيقة، لا يركّز عليك أبداً. إن المدرس شخص معتوه؛ فالتعليم بالنسبة له ذا أهميّة كبيرة: لأنه موجود ليس لأجل الإنسان، بل الإنسان موجود لأجل التعليم، ولأجل المعتقدات. في حين أن هذه المعتقدات بالنسبة للمعلم هي مجرد ألعاب؛ فالمعتقدات مفيدة في حال قدمت المساعدة للشخص، وسيئة إن لم تساعد.

أحياناً تكون المعتقدات ذات فائدة، وعديمة الفائدة في أحيانٍ أُخرى إنها بمثابة جسر لبعض الأشخاص، وحاجز للبعض الأخر.

الإنسان ذو قيمة كبيرة، ويعتبره المعلم مقياساً لجميع الأشياء، وينظر له على أنه فرد مستقل؛ الإنسان ليس أشخاصاً، وانّما كيانات بشرية؛ لا ينظر إليك كجنس بشري، بل كفرد، بشخصيتك الفريدة والشاملة. إن أي كلام يقوله المعلم، يكون بمثابة رسالة موجة لشخص. لا يمكنك أن تتخذ منه يقيناً، ولا يمكنك تعميمه أيضاً. إن عملية التعميم عملية خاطئة – حتى تعميمي هذا – لأن كل تعميم خاطئ.

إن فن القلب هو فن مُرهَفٌ للغاية، ويجب أن يكون كذلك، لأنه جهد ينصبُّ على تحويل القلب البشري، وهو أعظم ما في عملية التطور، بل أعلى قمة بلغها الوجود.

إن المدرس يستمر بإعطائك معلومات عن الله، وعن الحقيقة، وعن الجنة والجحيم، أما المعلم فهو ببساطة يفتح كيانه لك، ليبيّن لك ما هي الحقيقة.

ماذا أفعل هنا؟ إنني ثمل بالوجود، وإنّي أمنحك فرصة الاقتراب مني لكي تثمل معي، وتشاركني. وكلما اقتربتَ أكثر، كلما أصبحت ثملا أكثر. ثم تأتي اللحظة التي يصبح فيها المعلّم والمريد صامتَين.. حيث لا أحد يعرف أيّهما المعلّم، وأيّهما المريد. لقد أصبحا قريبين جداً من بعضهما البعض: مثل لهب شمعتين اقتربا كثيراً، ثم يلتحمان فجأة، ويصبحان لهباً واحداً.

فلكي تفهم المعلم، تحتاج لأن تقترب منه.

اما مع المدرّس فتستطيع ان تبقى بعيداً قدر ما تستطيع، وليست هناك مشكلة في ذلك، فالاقتراب غير مطلوب، والحميمية لا تدخل في الأمر.

مع المدرّس تظلُ غير ملتزم، أمّا مع المعلم فإن الالتزام إلى الحد الاقصى مطلوب بكل معنى الكلمة. هذا هو معنى: "لا يمكنك أن تحصل مني على أيّ شيء حتى تموت"، وهذا تماماً ما يعنيه القول للصوفي، لأنك عندما تموت، ستصبح ملتزماً تماماً. فالآن لا عودة في ذلك، لأنه لن يكون هناك شخص ترجع إليه.

إن الالتزام نقطةٌ لا عودة فيها. فإلى أيّ مكان ستعود؟ لقد أحرقت المنزل الذي ترجع إليه. لكن العقل الماكر يريد أن تكون هناك مسافة بينك وبين المعلّم، ولا يريد أن تكون مشاركاً، بل مراقباً. فعندما يحافظ العقل على هذه المسافة، فإنه يبقي على المنزل سليماً. وبالتالي في حال سارت الأمور بشكل خاطئ، فيستطيع العودة. غير أن كل جمال في الحياة، يأتي من خلال الالتزام.

في الغرب على وجه الخصوص، تعتبر كلمة "التزام" كلمة خاطئة، ومحرمة أيضاً. ففي اللحظة التي تسمع فيها كلمة "التزام"، فإنك تشعر بالخوف. لهذا السبب تلاشي في الغرب كل ما هو جميل وعميق. فالحب غير ممكن هناك، بل الجنس فقط.

الجنس بلا مشاركة، أمّا الحب فهو التزامٌ. الجنس شيء يحصل بين شخصين غريبين، لكن الحب يحصل بين شخصين متحابين، ومتقاربين، ليس لكي يستغلا بعضهما البعض، بل ليعيشا ويكبرا معاً. إن الالتزام مطلوب في الحب. فبدون الحب سيغدو الجنس عديم الجدوى، وهذا ما يحدث فعلاً في الغرب.

التأمل ليس ممكناً إن لم تكن ملتزماً. لا يمكنك أن تبقى مجرد متفرّج، وإذا أردت أنت تكون متفرّجاً، عندها سوف تبقي على السطح، ذلك أن الالتزام يقودك إلى مركز الأشياء.

إن تكون مع معلمٍ فهو التزام، وهو أسمى شكل للحب، وأسمى شكل للتأمل، وأسمى شكل للصلاة.

في الغرب لا يوجد سوى مدرسين. وهناك، لا فرق بين كلمتي معلّم ومدرس، فهما مترادفتان، وتحملان المعنى ذاته. لهذا السبب يترجمون كلمة "معلّم" بمعنى "مدرّس". إن بهاء الدين ليس مدرّساً، بل معلماً. ولكن في اللغة الانكليزية، لا يوجد فرقٌ بين هاتين الكلمتين. كما لا توجد مثلاً كلمة كالمرشد الروحي (غورو)؛ تلك الكلمة التي تعني المشاركة العميقة مع شخص، بل مشاركة عميقة إلى درجة أنك على استعداد للموت من أجلها.

إن الحب، والتأمل، والصلاة، تعتبر جميعها التزامات عميقة.

ولكن من الذي يخشى الالتزام؟ إن الأنا هي التي تخشى الالتزام، لأنه يعني أنك وصلت إلى مرحلة اللاعودة، وانهار الجسر. أنت تشعر بالخوف، فليس أمامك سوى المستقبل المجهول؛ فالماضي لم يعد له وجود. سوف تشعر بالدوار حين تنظر إلى عيني المعلّم، لأنه كالفراغ.. كهاوية بدون قاع، حيث تحتاج للتشبث بشيء ما، لأنه مكان خطير، وستضيع فيه للأبد. هكذا هي الحال! بيد أنك لن تعثر على ذاتك ما لم تضيع أولاً.

إنك ما لم تمت، فلن تولَدَ مجدداً.

المعلّم هو الموت والحياة، إنه الموتُ والانبعاثُ من جديد.

والآن دعونا نتمعن بترو في هذه القصة:

جاء رجلٌ إلى المعلم العظيم بهاء الدين وطلب منه المساعدة في حل مشكلاته، وارهابه إلى طريق التعلم. فطلب منه بهاء الين ان يتخلّى عن الدراسات الروحية ويغادر المكان على الفور، ...

لقد بدا طلبهُ قاسياً، وفظاً جداً، ولا يتناسب مع مفاهيم المعلم المثالية، ذلك أن الرجل قد جاء كساعٍ، ويريد العون؛ لقد جاء كمتسوّل، ولم يكن هذا التصرف متوقعاً من بهاء الدين حين قال له: " اترك الدراسات الروحية، وغادر هذا المكان على الفور"!

لماذا ردَّ بهاء الدين هذا السائل؟ إن المعلّم موجود للمساعدة. موجود ليدعوا الناس، وليرحب بهم؛ إنه موجود لهذا الغرض، فلماذا تصرف بهاء الدين بهذه الطريقة النكراء؟ لا أحد يتوقع مثل هذا التصرف من معلّم، فقد جاء الرجل لطلب المساعدة في حل مشكلاته، وإرشاده إلى الطريق.

لكن زائراً طيب القلب اخذ يحتجُّ على بهاء الدين.

لابد وأن رجل طيب القلب كان موجوداً أيضاً، فقال: "ما هذا؟ اشرح لي لماذا تتصرف معه بهذه الطريقة، فهذا الرجل لم يرتكب أي خطأ؟ إنه حسنُ النية، وأنت تطرده! إذن ما الغرض من وجودك هنا؟ إنه يطلب مساعدة، وانت تغلق الباب في وجهه. إنه يتوسل إليك، وأنت تقسو عليه".

"من حقك ان يكون لديك توضيح"، هكذا قال الحكيم.

فقال بهاء الدين: "مهلاً! ثمة أشياء لا يمكن شرحها. فقط انتظر، وسيأتيك البرهان".

بحسب الحالة ستتضح الأشياء، ذلك أن الشرح لن يفيد، فكيف لك أن تشرح؟ إن بهاء الدين يرى في السائل شيئاً لا يراه الرجل طيب القلب، فكيف تفسّر الضوء لشخص أعمى؟ في الحقيقة لن يكون أي تفسير كافٍ. ثم أنك مهما قلت فسيبدو

ذلك تبريراً، وستبدو كذلك فظاً غليظ القلب، وها أنت الآن تحاول تبرير تصرفك.

قال بهاء الدين: "انتظر.. من حقك أن يكون لديك توضيح".

في تلك اللحظة دخل طائر إلى الغرفة واخذ يندفع هنا وهناك، لا يعلم إلى أين سيهرب، وأين سيذهب بنفسه. انتظر الحكيم المتصوّف إلى أن هدأ الطائر، واستقر بجانب النافذة الوحيدة المفتوحة في هذه الغرفة، ثم فجأة أخذ يصفّق بكلتا يديه. فانطلق الطائر مرعوباً، وخرج مباشرة عبر فتحة النافذة إلى الحرية.

بعدها قال بهاء الدين: لابد وأن ذلك الصوت كان صدمة له (للطير)، أو حتى إهانة، ألا توافقني الراي؟

حقاً إنها حالة جميلة! فبهاء الدين يقول الكثير من الأشياء حتى دون أن يتلفّظ بها، إذ يقول: "إن الرجل الذي اقترب، كان على حافة الحرية المطلقة تماماً، ولا يحتاج لأيّة مساعدة، فالمساعدة ستصبح قيدا بالنسبة له، وستكون عبئاً عليه.

لا يحتاج للمزيد من التعاليم، فتلك المرحلة قد انتهت، وهو تقريباً مستعد للتحليق في السماء. لا يحتاج لأي تدريب، بل يحتاج إلى دفعة، وهذا ما فعلتُهُ. لو سمحت له بأن يبقى هنا، فلن يكون ذلك رحمة. إن قذفه من الباب ثم إغلاقه هو الرحمة".

ثم قال بهاء الدين: "أعرف هذا الرجل، فقلبه مستعد تماماً. إن الطير على وشك الطيران في أيّة لحظة: الآن لم يعد هناك تعلّق بالكلمات، ولا حاجة لأي تعليم، ولا حاجة لأن يفهم الطريق".

إنها حاجة: في مرحلة معيّنة من التطور الروحي تحتاجُ إلى تعاليم، وإلى كل شيء، وتحتاج إلى من يشرح لك الطريق، وعليك أن تكون متأكّداً منه. أنت بحاجة للكثير من التدريبات، لكن اللحظة تأتي عندما ينبغي للمرء أن يتخطاها. أولاً: على الشخص أن يتعلم الكثير من الأشياء، بعدها عليه أن يتوقف عن التعلم. وفي بداية الأمر، يجب أن يتعلّم التأمل، بعد ذلك، عليه أن يرمي بالتأمّل إلى حاوية القمامة. في البداية، على المرء أن يخرج عن المفاهيم والكلمات، ويتعلّم الصمت. عندئذٍ تأتي اللحظة التي يتوجب عليك فيها أن تتخلى عن الصمت أيضاً، والاّ سيصبح ذلك تعلقاً.

بإمكانك التشبث بفكرة، وبإمكانك التشبث بالصمت ايضاً، لأن الصمت سيكون فيما بعد مجرد فكرة.

كيف تعرف أنك أصبحت صامتاً؟ إنها فكرةٌ مجدداً. كيف تعرف أنك أصبحت الآن سعيداً؟ إنها فكرة أيضاً. فإن كانت هناك سعادة، وكان هناك شعور بهذه السعادة، وكان هناك تفكير، فعندها لا بد من وجود تعاسة على الجانب الأخر، تتربّص وتنتظر كالظل في مكانٍ ما داخلك.

بدايةً، على المرء أن يتخلّى عن السعادة والتعاسة معاً، وإلا ستصبح السعادة ذاتها سجناً.. وما أبرعك في اختلاق السجون! ذلك أنك تستطيع أن تخلق سجناً من أي شيء.. حتى من الله نفسه. لقد خلقت سجوناً من كنائسك، ومعابدك، وجوامعك.. بل خلقت سجوناً لنفسك حتى من الألوهة ذاتها، وكذلك من الكتب المقدسة الجميلة. والحقيقة إن الأبنشاد جميلة، ومضمونها الشعري هو الأنقى، غير أنه لا أحد يقرأ الأبنشاد لأجل روحها الشعرية، فأنت تقرأها على أنها عقيدة.. فأصبحت سجناً. إنها جميلة من الناحية الشعرية، بل مدهشة، ولا شيء يضاهيها في ذلك، ولا يمكن مقارنتها بشيء.

كنت أقرأ للتو مقابلة لصحفيّ مع كريشنامورتي، ولا أعتقد أن الصحفي استطاع أن يجاريه ويجاري ما كان يقوله. لقد قال كريشنامورتي: "قرأت العهد الجديد، ووجدته جميلاً من الناحية الشعرية، وقد أحببته، غير أنه أصابني الملل عندما قرأته كنصٍّ دينيّ". وكان محقاً في ذلك تماماً.

ينبغي للمرء أن يقرأ الكتاب المقدّس: إنه حقاً أحد أعظم الإنجازات الأدبية في كل العصور. كما أن الإنجيل ببساطة هو كتابٌ فاتن، ولا يمكن أن تجد في أي مكان آخر كلمات تحمل قيمة عظيمة، ولكن دون أن تدخل في المعنى، لأنه في اللحظة التي يدخل فيها المعنى، ستضيع الروح الشعرية، وبذلك تصبح معتقداً. إنها ذات أهميّة، ولكن ليس المعنى. إنها جليلةٌ وجميلة، ولكن ليست عقيدة.

تنبثق من الأبنشاد، والعهد الجديد، والقرآن، جماليةٌ هائلة. فإن استطعت إنشادها، فهي جميلة، وإذا فكرت فيها، فقد ضللت السبيل.

إذا استطعت ترتيل القرآن، فلا أجمل من ذلك. هل سمعتم أحداً يرتّل القرآن؟ القرآن كتاب يجب ترتيله، والاستمتاع به. حسناً، يمكنك أن ترقص، ولكن لا تفكر به، فلحظة أن تبدأ بإعمال فكرك فيه، سيولد المسلم المتعصّب. أمّا إذا أحببته، واستمتعت به، وترنّحت على تراتيله، فسيولد الصوفي، والصوفي أبعد ما يكون عن المسلم المتعصّب. إذا رتّلت الأبنشاد، فسيولد الصوفي. أمّا إذا كنت تؤمن بالأبنشاد، فسيولد الهندوسي، الهندوسي الميّت، المتعفّن من جذوره.

والحقيقة إنك بارعٌ باختلاق القيود لنفسك، لدرجة أنك تحوّل كل شيء يلامس يدك إلى قيود. حتى بوذا والمسيح، اللذان اتيا لتحريرك، وقد حاولا ذلك بالفعل، حتى أولئك، قد تحولوا إلى قيود بسببك.

ذلك الرجل الذي جاء لبهاء الدين، كان مستعداً، كالثمرة ناضجة، ولم يكن بحاجة لأي مساعدة تذكر. لم يسمع له بهاء الدين آنذاك بالبقاء في مَقرّه، ولا أن يصبح جزءاً منه، ولا بأن يكون مريداً، فذلك لن يكون من الرحمة بشيء، بل لا يمكن لأي معلّم أن يسمح بذلك. في الظاهر يبدو فظاً، وخالٍ من أية شفقة: "لقد جاءك سائلٌ، وأنت أغلقت الباب في وجهه". عليك أن تذكر أن هناك فرق بين اللطف وبين الرحمة. اللطف شيء ظاهري، إذ حتى الجاهل يستطيع أن يكون لطيفاً، وكذلك الأحمق، والمجرم، والآثم، كلهم بمقدورهم أن يكونوا لطفاء، فاللطف مجرد قيمة على سطح العقل، لكن الشخص الجاهل لا يمكنه أن يكون عطوفاً ورحيماً. إن هذا ليس ممكناً، لأنها صفة ستظهر عندما تفهم داخلك جيداً، وما إن تصبح مهتماً بداخلك، بمركزك، فستغدو عطوفاً. والعطف لن يبدو دائماً كاللطف؛ تذكر إنه قد يبدو العطف أحياناً قاسياً جداً.

لقد احتج ذلك الزائر طيب القلب على بهاء الدين: "ماذا فعلت؟"

إن بهاء الدين يرى شيئاً ليس بمقدور الرجل اللطيف أن يراه؛ لقد رأى ذلك الرجل يقف على حافة الهاوية تماما، فإن تم طرده، فسيكون قد تحرر. وإذا سمح له بالدخول، وهو مستعد لذلك، فيكون قد جاء سعياً وراء التلمذة.

غير انه لو ذهب لمدرسٍ ما، فسيكون هذا المدرّس لطيفاً للغاية، وسيرحب به، ويكرسه. لكن المعلّم لا يفعل هذا، لأنه موجودٌ لمساعدتك على أن تكون حرّاً بالكامل. فإن قام بتكريسك، فستكون مجرد خطوة، وليست النهاية. لكنه نهاية المطاف، سيقذفك إلى السماء المكشوفة.

في اللحظة التي تكون فيها مستعداً، سيقذف بك إلى السماء المفتوحة. إن منزل المعلم هو مجرد مكان للتدريب فقط، حيث تصبح فيه مستعداً، لكنه ليس بالموطن الأخير. إنه المكان الذي تصبح فيه جاهزاً، بعدها يقذفك المعلم عالياً إلى السماء حيث الموطن النهائي، إلى الحرية المطلقة.. إلى الموكشا.. إلى سدرة المنتهى. إن المعلم مفيد فقط أثناء سيرك على الطريق. ولكن قبل أن توشك على الدخول إلى المعبد الإلهي، سيتركك فجأةً.

أمام المعبد المقدّس، سيقوم بدفعك إلى الداخل، وإذا نظرت للخلف، فلن تجده، لأنه لن يكون هناك، ولأنك يجب أن تكون

بمفردك مع المقدّس. بذلك يكون دور المعلم قد انتهي.

لكن هذا الرجل كان أساساً عند الحافة، ولم يكن يعلم ذلك، إذ كيف تعلم أنك عند الحافة؟ لم يسبق أن كنتَ من قبل على حافة الهاوية، وبالتالي كيف للعقل أن يفهم ذلك؟ هذا الرجل لم يكن يعلم أنه على الحافة، فهو لم يتعرض لهذه الحال من قبل، فكيف يدرك ذلك؟ إنه يلتمس الدعم، دون أن يعلم أنه لم هناك حاجة الآن إلى الدعم. ولو سمح له بالجلوس، فستحدث عدّة أشياء يمكن أن تكون خطرة.

إنني أعلم أنه لو سمح له بهاء الدين بالجلوس، فربما يقع هذا الرجل في حبه.. ذلك أنه من الصعب أن لا تقع في حب بهاء الدين.. وذلك الحب سيتحوّل إلى عبوديةً. عندما تكون بارعاً جداً، وغاية في الكفاءة، فمن الأفضل أن تكون قاسياً منذ البداية. إنه لو سمح للرجل بالبقاء ولو للحظةٍ واحدة، فسيكون من الصعب عليه أن يترك بهاء الدين. لذا لا ينبغي لهذا الرجل أن يلمح عطف بهاء الدين ومحبته ورحمته، بل يجب على بهاء الدين أن يظهر له الوجه القاسي بحيث لا يفكر به مرّة أُخرى.

هذا ما كان يفعله غورورديف مع الكثير من الأتباع الذين لم يفهموا ذلك، لأنه من الصعب فهم ذلك في الشرق، فالشرق له أساليبه الخاصة.

لقد كان غورورديف صوفياً، وقد تعلّم على يد العديد من المعلمين الصوفيين. لقد تنقل بين الكثير من الأديرة، وعاش مع الكثير من الصوفيين، وقد اتخذ موقف المتصوف. غير أن الفهم في الغرب لا وجود له، لأن الرموز الصوفية، والتوضيحات الصوفية، لا معنى لها.

كنت أقرأ كتاباً لإحدى تلميذات غورورديف.. كانت امرأة موسيقية موهوبة.. وقد كتبت أن غورورديف غَضِب منها لأنه طلب ان تمتنع عن فعل أمر ما، وقد فعلته. كان غاضباً جداً إلى درجة أنه قال لها: "هذه آخر مرّة، لا تعودي إلى هنا، ولا تأتي لرؤيتي مطلقاً". وبالطبع تركته، لأنها غربيّة، وخسرته. لقد قالت لنفسها: "إن هذا الرجل لم يستنر بعد، وإلاّ لماذا انتابه الغضب إلى هذا الحد؟" والحقيقة هي أنك تحكم وفقاً لمعاييرك.

"لماذا أصبح غاضباً جداً؟ أهو بسبب ذلك الشيء البسيط؟ كان باستطاعته مسامحتي حتى لو عصيته في شيء تافهٍ كهذا! إن المعلمون العظماء متسامحون، إنهم يجسدون التسامح. لقد كان بوذا رحيماً، وكذلك المسيح الذي غفر حتى لأعدائه. لقد غفر لهؤلاء المجرمين الذين قتلوه! وأنا لم أرتكب أيّ شيء من هذا. مجرد شيء صغير قاله، ولم أقم بإتباعه.. لا يبدو أن هناك سبباً منطقياً ليغضب إلى هذا الحد".

لقد عاشت ما يقرب من عشرين سنةً مع غورورديف؛ فقد كانت من مريديه لعشرين سنة، ثم تُطرد بكل بساطة، ويوصد الباب خلفها.

لقد قال لها غورورديف: "لا تأتِ لرؤيتي أبداً، وإن أردتِ ذلك، فليكن عندما أموت".

لقد جرِحَت أناها، ولم تأت لزيارة غورديف مجدداً إلاّ عندما مات، لكنها خسرته.

ما الذي كان يقوله غورورديف؟ لو حدث هذا الأمر في الشرق، حيث الالتزام الداخلي المديد للكثير من الناس، لكان الأمر مختلف جداً.

ما الذي كان يريد قوله غوروديف في الحقيقة؟ كان يقول: "إمّا أن تأتي لرؤيتي وأنت ميّتة، أو تأتي لرويتي عندما اموت؛ وغير

ذلك فلا معنى لمجيئك". لكن ذلك المعنى كان ضمنياً، لذلك انتظرت عشرين سنة أخرى، وعندما توفي غوردييف، ذهبت للإعراب عن ولاءها. كان يمكن أن تكون ميّتة، ولكن هكذا كان الحال.

لم يغضب غوردييف لأنها عصيت أمره، فذلك الغضب كان يخلق وضعاً: وهو أن العصيان كان مجرّد ذريعة، فقد كان سيغضب سواء عصت أمره أم أطاعته، إذ لا علاقة لذلك بالمسألة. كان سيجد شيئاً لكي يغضب، وهذا ما كان بحاجة إليه: وجه عبوس، وغضب شديد، لأن الشخص الذي عاش معه لعشرين سنة لا ينبغي له أن ينخدع بالمظهر، بل يجب أن يكون قادراً على التغلغل إلى العمق، وينظر في القلب. وغوردييف في قلبه كان رحيماً للغاية، ومحباً للغاية، لكنه كان محاطاً بقشرة صلبة.

لقد طُرِدَت هذه المرأة، ولا نعرف إن كانت قد اتخذت موقفاً غريباً، فالقصة لا تتحدث بشيء عما حدث لها؛ غير أنه في الحقيقة سيكون من الجيّد أن نعرف ما أمكننا معرفته. لو كانت قد اتخذت موقفاً غريباً، فإن الموقف الغربي يعني موقفاً أنانياً.. إذا اعتقدت آنها طُرِدَت لأنها لم تكن جديرة، وإذا كانت أناها قد تآذّت فقد أخطأت. أمّا إذا كانت قد اتخذت موقفاً شرقياً، يعني أنه إذا غضب المعلّم، فلابد أن يكون في غضبه رحمة، والاّ فلماذا غضب؟ إذا أغلق المعلّم الباب في وجهها، فلا بد أن ثمة معنى في ذلك، لأنه من خلال إغلاق هذا الباب، ستُفتحُ أبواب أخرى.

إذا قال المعلّم اترك جميع الدراسات الروحية، وغادر هذا المقرّ في الحال، ولا تُضيّع لحظة واحدة، فذلك يعني أن هناك حاجة مُلِحة لترك كل الدراسات الروحية، وترك المسار الروحي، وترك السعي، وكل شيء. فإذا كان موقفها شرقيّاً، وموقف مريد، وموقف شخص متواضع، بل موقف الشخص المستعد للموت، فقد أصبحت تلك المرأة مستنيرة.. وعند الباب تماماً، وفي تلك اللحظة تماماً. غير أن ذلك لا يعتمد على المعلّم فقط، وإنّما على المريد أيضاً. إنه تعاون دقيق، كما أن هناك تناغم دقيق.

لكن زائراً طيب القلب اخذ يحتج على بهاء الدين فقال الحكيم: "من حقك أن يكون لديك توضيح".

في تلك اللحظة دخل طير إلى الغرفة..

في كل لحظة تدخل الطيور وتحلّق في الغرفة، لأنه في كل لحظة تدخل إلى الغرفة حالات جديدة، ولن تتناقص الحالات. فإذا كانت لديك لمسة المعلّم، إذا كان لديك مفتاح المعلّم، فإن كل شيء سيصبح حالةً. يمكنك تحويل أيّ شيء إلى حالة.. فيصبح دخول الطير برهاناً عيانيّاً. وذلك يحدث، ليس مع الطيور فقط، وإنّما معك أيضاً، ومع كل أنواع العقول..... لعلك راقبت أحياناً دخول طير إلى الغرفة. لقد دخل من النافذة، وبالتالي لابد أنه يعرف من أين دخل، لكنه ما إن يدخل، حتى ينسى أمر النافذة، ويبدأ بالتخبط هنا وهناك.

إنه يبدو غبياً جداً، لأنه دخل، ويعرف من أين دخل، فلماذا لا يعود من النافذة نفسها؟ لماذا يتخبط هنا وهناك؟ إنه كلما تخبط أكثر، وكلما أصبح الطير مرعوباً، كلما أضاع المصدر أكثر. بعد ذلك تحدث معجزة: وهي أن الطير سيبدأ بالتوجه إلى كل جدار فيصطدم رأسه به، لكنه لا يتوجّه إلى النافذة. لا تسخروا من الطير، فهو مسكين! كما أن الحالة ذاتها تحدث لكم.

في كل يوم أصادف أشخاصاً يعرفون كيف يدخلون في حالة ما، لكنهم لا يعرفون كيف يخرجون منها. إنك تدخل في الزواج، وبعد ذلك تدخل في المشاكل.. فكيف تخرج؟ إنك تعرف النافذة، وإلا فكيف تدخل في المقام الأول.. ثانياً، لماذا لا ترجع؟ لقد خاب أملك، وتريد الخروج. لماذا الأمر معقد إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تفهم الأمر لكي تخرج؟ من السهل جداً أن

تدخل في الزواج، ولكن من الصعب للغاية أن تخرج منه. إن كل شخص يعرف كيف يدخل فيه، لكنه لا يعرف كيف يخرج منه. إنك تغضب، ولا تذهب لأيّ شخص كي تسأله كيف تغضب.. ثم تأتي وتسألني: "كيف أخرج من حالة الغضب"؟ غير أن السؤال هو كيف دخلت؟ الظاهرة نفسها تحدث مع الطير: إنه يعرف كيف يدخل، ثم ينسى كيف يخرج...

يبدو أنه توجد في مكان ما من العقل آلية مخادعة، وإلاّ فلماذا تنشأ المشكلة؟ إنها واضحة كل الوضوح، فالنافذة مفتوحة، وها هو الطير قد دخل. اخرج من النافذة نفسها! ولكن على ما يبدو هناك فكرة في العقل، وفي مكان ما من الوعي، بأن هناك حاجة للدخول في طريق مختلف، وحاجة للخروج من طريق مختلف أيضاً.

تلك هي المشكلة؛ لقد دخلت في حالة القلق، ومن ثم تسأل عن كيفية الخروج. تدخل في حالة من الكرب، وبعدها تستفسر عن كيفية الخروج. غير ان السؤال هو كيف دخلت؟

حدث ذات مرّة أن الملاّ نصر الدين خرج للتنزّه برفقة ولده، فشاهد الطفل بيضة غير مألوفة وُضعَت على جانب الطريق. وعندما يسأل الطفل، فهو سأل والده: "لطالما كنت أتساءل كيف تدخل الطيور في البيضة"؟

فقال الملاّ نصر الدين: "أنا أيضاً أتساءل. لكنني أتساءل كيف تخرج منها. ولا أعرف الجواب. لطالما كنت أتساءل عن ذلك طوال حياتي، وها أنت الآن خلقت تساؤلاً جديداً: كيف تدخل الطيور في البيضة؟

لدى العقل آلية عميقة ومتجذّرة في مكان ما من اللاوعي تُشعِرك بأنه لابد وأن هناك طريقين: واحد للدخول، وواحد للخروج. كلاّ، لا يوجد طريقين. إنه الطريق ذاته: فمن الباب ذاته تدخل، ومن خلاله تخرج. فإن استطعت أن تدرك كيف تدخل، فيمكنك أن تدرك كيف تخرج. وبالتالي عندما تصبح غاضباً، نما عليك إلاّ أن تراقب كيف دخلت في حالة الغضب. راقب خطوة فخطوة، وبتمهّل.. ثم فجأة، ستكون قد استنرت! سوف تشعر بنور مفاجئ، بأن هذه هي الطريقة لكي تعود أدراجك.

لقد دخل الطير

في تلك اللحظة. عندما قال بهاء الدين: "سوف اوضّح لك في الحال"... **هبط طير ودخل الى الغرفة، وأخذ يتخبط هنا وهناك، غير عارف إلى أين ينبغي أن يتجه لكي يهرب**.

ها هو حال الجميع. لقد دخلتَ إلى الحياة، والآن تتخبّط هنا وهناك، لا تعرف كيف تهرب، وإلى أين تهرب.

إن كل تقنيات التأمّل ما هي إلاّ وسائل مساعدة لكي تجعلك تدرك كيف تدخل. إنها العودة إلى الوراء، فعندما يصبح عقلك صامتاً، ستكون قادراً على العودة، حيث تستطيع الرجوع بالفلم بأكمله على الوراء. إنك تتحرك نحو الطفولة، وبعد ذلك تدخل في الرحم، ثم تأتي اللحظة عندما ترى اول شيء: كيف دخلت إلى الرحم. لقد خلق أبويك الوضع وحسب، وفي ذلك الوضع تنقلت. النافذة كانت مفتوحة.. فدخلت فيها، وبالطريقة ذاتها تخرج. إن التأمل العميق سيكشف لك ماضيك بأكمله، ليس في هذه الحياة فقط، وإنّما في حيوات أخرى أيضاً. لقد تحدث بوذا عن عدة حيوات تخصّه: كيف كان فيلاً، وكيف مات أصبح أرنباً برياً، وكيف مات، وكيف أصبح أسداً، وكيف مات، ثم يتابع.. كيف أصبح سيدهارثا.

ما إن تتحرك إلى الوراء حتى تصل إلى الباب ذاته الذي دخل من خلاله إلى الوجود، وهو الباب الذي يمكنك التحليق منه إلى الخارج. لكن ذلك يتطلّب عقلاً صامتاً للغاية، ويقظاً، ومراقباً، وذكيّاً.

انتظر هذا الصوفي حتى هدأ الطير.

في قصص كهذه القصة تكون كل كلمة فيها ذات مغزى.

انتظر هذا الصوفي حتى هدأ الطير.

في الحقيقة، لا تستطيع مساعدة طير على الخروج مادام هذا الطير يحاول الخروج.

سوف تكون هذه المساعدة أكثر إزعاجاً للطير. سوف تجعله أكثر استعاراً وجنوناً. سوف يخسر وعيه بأكمله إذا حاولت مساعدته في تلك اللحظة. ولهذا السبب على أن أراقب. لقد جئتم إلى عدة مرات، وكنتم غاية الاضطراب، والتشوّش، إلى درجة أنني لو حاولت مساعدتكم في تلك اللحظة، فسوف تتشوّشون أكثر. لذا عليّ الانتظار.. وعندما تهدأون، وعندما تهدأ الفوضى قليلاً، فتعود وتسقط في اللاوعي.

بمجيئكم إليَّ يصبح الجميع غير مستقرّين، ويجب ان يحصل هذا.. لماذا؟ لأنكم تدخلون إلى طريقة في الحياة جديدة تماماً. إنها كما لو أن منزلاً كان مغلقاً لعدة سنوات، ثم فتحت الباب. لقد تراكم الغبار في المنزل؛ ثم تدخل الباب، فيُثارُ الغبار، ثم يصبح كل شيء غائماً ومشوّشاً.

عندما تأتون إليَّ فإنكم تفتحون باباً في منزلكم أغلقتموه لعدة سنين، أو لعدة حيوات؛ حيث تراكم هذا الحجم الكبير من الغبار. عندما تفتحون الباب، وتبدأ رياح جديدة بالدخول، فسوف يُثار كل شيء. كل من جاء إلي سيصبح مشوّشاً، وأكثر تشوّشاً من قبل. لكن ذلك أمر طبيعي.

فإذا هربت منّي وأنت في ذلك التشوّش، فقد فوّت على نفسك الفرصة الممكنة ذاتها. إن العديد يهربون، وهم يعتقدون أنني السبب في اضطرابهم. كلاّ، وإنما دخلوا إلى لا وعيهم بسببي، وقد صعد الغبار بطبيعة الحال، وأصبح العقل غائماً، وبات المرء لا يعرف أين هو، ومن هو.

لقد ضاعت الهويّة القديمة، وسادت حالة من الحمّى والارتعاش.. ثم تريد مني أن أساعدك على الفور. وبالطبع تظن إنك تحتاج للمساعدة على الفور، غير انيّ لو قمت بعمل شيء في الحال، فمن شأن ذلك أن يثر المزيد من الغبار في داخلك. لهذا سيكون تكون عليّ تأجيل ذلك قليلاً. سوف أواسيك، لكنني لن أفعل أيّ شيء، سوف أعدك، لكنني لن أفعل شيئاً. علي أن أكذب مرّاتٍ عديدة – بسببك – وإلاّ فلن تتمكن من استيعاب الأمر. أستطيع مساعدتك فقط عندما يستقر الطير، وعندئذٍ يمكن عمل شيء يفيدك.

انتظر الحكيم المتصوّف الى ان هذا الطائر، واستقر بجانب النافذة الوحيدة المفتوحة في الغرفة، ثم فجأة اخذ يصفّق بيديه.

لقد استقر الطير قرب النافذة، وتضاءل جنونه بشأن الخروج.

عندما يجن جنونك بشأن الاستنارة، فلن تحصل عليها. عندما تنتابك الهواجس بشأن التأمّل، فلن يكون التأمل ممكناً. أما عندما تهدأ قليلاً، عندها يصبح كل شيء ممكناً. عندما تكون منفعلاً، فإن أول شيء ينبغي عمله هو مساعدتك على الخروج من حالة الانفعال، أمّا الآن فلا يمكن عمل شيء. وما من تدريب أو انضباط يمكن إتباعه في هذه اللحظة.

لذلك عندما يأتي الناس إليَّ، فأقول لهم: "ما عليكم سوى الاستراحة والهدوء لبضعة أيّام"، وبعدها يمكن أن أصفّق بيديَّ.

مثلما فعل الصوفي بهاء الدين؟ ... فجأة صفّق بيديه، فأفزع الطير وأخافه، وصدمه، فانطلق من النافذة.

فتنّبَه الطائر وخرج مباشرة عبى فتحة النافذة إلى الحرية.

فقال بهاء الدين، لابد وأن ذلك الصوت قد شكّل له نوعاً من الصدمة، او حتى إهانة، ألا توافقني الرأي؟

لقد سأل بهاء الدين الرجل طيب القلب: "ما هو موقف الطير؟ لابد وأن التصفيق بيديّ قد صدمه، لكنها الطريقة الوحيدة لمساعدته. لقد كانت طريقة فظّة، ولابد أنها كانت مهينة، لكنه لن يحصل على الحريّة إلا من خلال هذه الطريقة. والآن يحلّق عالياً في السماء. الآن يشعر بالامتنان لي؛ غير أنه عندما صفّقت بيدي، لابد أنه غضب، ولابد أنه شعر بأنني فظٌّ، وبأنني عدو، لقد كان الطير مرعوباً، أمّا الآن، عندما أخذ يحلق بجناحيه، ويستمتع بالسماء من جديد، وأصبح حراً تماماً، الآن يستطيع أن يكون ممتنّاً لي، ويمكنه أن يشعر بالامتنان.

سوف اؤلمك مرات كثيرة، وقد سبق أن آلمتك مرّات عديدة، وصدمتك عدة مرّات. ولسوف تراني عدوك، وليس صديقك، لكن ذلك شيء طبيعي، ولن أتوقع الآن شيئاً آخر، لأن ذلك غير ممكن بالنسبة لك. لكنك عندما ترفرف بجناحيك في السماء اللامتناهية، فسوف تفهم حينها تلك الآلام، وأنه كان لابد أن أؤلمك. لم أسبب لك الآلام لأنني كنت فظّاً، بل لأنها كانت الطريقة الوحيدة لمساعدتك. حينها فقط ستكون ممتنّاً.

في الصين، يحتفل المريد بيوم استنارة معلّمه فقط إذا كان مريداً مبتدئا، أما غيره فلا يحتفل. الناس في القرى المجاورة تجمّعوا وسألوا هذا المعلّم الذي كان يحتفل بيوم استنارة معلّمه قائلين: "لماذا تحتفل؟ ذلك أننا لم نسمع يوماً أن المعلّم قَبلَك، أو كرسك، بل على العكس من ذلك، فالشائعة تقول إنه رفضك لك عندما طلبت أن تتكرّس. فلماذا تحتفل؟

فضحك المعلّم وقال: "احتفل لأنه رفضني. فرفضه لى كان تكريساً، لكنني في ذلك الوقت لم أستطع فهم هذا الرفض. لقد قَبلَني، لكنني لم أستنر بهذه السرعة. لقد طردني بسبب حنانه العظيم، ورفضه بالذات كان تكريساً. لقد قبلني من خلال رفضه لي. لقد قال لي: "لا تحتاج للتكريس. إذهب! وابتعد عني قدر ما تستطيع، والاّ ستجعل منّي سجناً". عندما رفضني، شعرت بأذى كبير، وبت خائفاً جداً. لقد حملت الجرح لسنوات طويلة. كان الجرح مؤلماً للغاية، إلى درجة أنني لم أحاول أبداً مع أيّ معلّم آخر. لقد أصابني خوف شديد! فانتقلت بكل ببساطة إلى الغابة، وبدأت أجلس مع نفسي، لأنه إذا كان قد رفضني هذا المعلّم الرحيم، فمن يقبلني إذن؟ لقد كان الملاذ الأخير، لكن الأبواب قد أوصدت في وجهي. والآن لم يعد هناك ملاذ لي.

مضيتُ وأنا اشعر بالجرح، والأذى، وعدم الجدارة، ولم أحاول قط أن أطرق مجدداً باب أيّ معلّم آخر.

لقد أصبحت فَزِعاً للغاية، غير أنني كنت أجلس صامتاً، ولا أفعل أيّ شيء، لأنني لا أعرف ماذا أفعل: لقد رفضني المعلّم، ولم يُعطني أيّ طريقة، أو أيّة تقنيّة، أو أي شيء.. ظللت أشعر بالوحدة، ففي البداية كان ذلك يبعث على الحزن والشعور السلبي. في البداية كنت أشعر بالرفض بشكل متواصل. لكنني شيئاً فشيئاً، ومع الجلوس صامتاً، اختفى الشعور بالرفض، وأصبحت وحيداً. شيئاً فشيئاً، بدأت أشعر أنه ربما رفضني المعلّم بقسوة، لكن ذلك كان فقط لكي يقذف بي إلى وحدتي في تلك الغابة. ربما قال إنك لا تحتاج لأية طريقة، وما عليك إلاّ أن تجلس صامتاً.. وربما رفضني كي لا أتعلّق به.

التأم الجرح شيئاً فشيئاً، وشُفيَ. بعدها بدأت أشعر بحب عميق تجاه المعلّم. ثم تحوّل الحب تدريجياً إلى ثقة. وذات يوم، أدركت فجأة، وضحكت بصوت عالٍ، ومن كل أعماقي، لأن ذلك المعلّم كان أمره غريباً: فقد كرَّسَني من خلال طرده لي! ولهذا

السبب أحتفل بيوم استنارته. إنني تلميذه: فقد كرّسني من خلال الرفض. لقد تكرّست، وأنا تلميذه.

إنني مستنير بسببه. لو أنه قَبلني، لكان أمراً قاسياً.

تنبّه الطائر، وخرج مباشرة عبر فتحة النافذة إلى الحرية.

فقال بهاء الدين، لابد وان ذلك الصوت قد شكّل له نوعاً من الصدمة، او حتى إهانة، ألا توافقني الراي"؟

وأنا أسألك السؤال ذاته: ألا توافقني الرأي؟ إذا شعرت أن الموافقة صعبة، فذلك يعني أن أناك قويّة. أمّا إذا شعرت أن الموافقة تجري في كيانك، فليست الأنا قويّة. غير أنك لا تستطيع أن تأخذ شيئاً مني، حتى تموت.. الا توافق؟

الفصل الخامس:
الحقيقة ليست محجوبة

كلما عشت في الأوهام، كلما خشيت من أن تتحطم أوهامك

جاء رجل إلى أبا يزيد وقال إنه صام وصلى لمدة ثلاثين عاماً، وحتى الآن لم يقترب من فهم الله.

فقال له أبا يزيد إنه حتى مائة سنة لن تكون كافية. سأله الرجل: "لماذا؟"

فأجاب. "لأن أنانيتك تعمل كحاجز بين نفسك وبين الحقيقة".

الحقيقة ليست محجوبة، وليست خفيّة. إنها أمام عينيك دائماً. إذا أخطأتها، فذلك ليس لأنها مخفية، بل لأن عيناك مغمضتان. الحجاب ليس موضوعاً على وجه الحقيقة، بل على وجهك. وليس حجاباً واحداً فقط، وإنما عدة ملايين من الحُجُب.

لو كانت الحقيقة مخفية، فكان يكفي أن يكون هناك بوذا واحد، أو محمد واحد، أو زرادشت واحد. حالما يُزالُ الحجاب، فسيعرفها الجميع. لو كانت الحقيقة محجوبة لكان الأمر أشبه تماماً بالاكتشاف العلمي: أيّ أنك لا تحتاج إلى اكتشافه مراراً وتكراراً. عندما يكتشف ألبرت أينشتاين شيئاً، فيصبح اكتشافه ملكية مشتركة. وكل تلميذ مدرسة يعرف عن ذلك، ولا يلزم أن يتم اكتشافه مرة أخرى. إن اكتُشفَ مرة واحدة، فقد تم اكتشافه.

ولكن ما هي المسألة؟ إن بوذا يكتشف الحقيقة، ومحمد يكتشفها مرة أخرى، وسيكون عليك أن تكتشفها مرة أخرى، إذن ما هي المسألة؟ المسألة هي أن الحجاب ليس موضوعاً على الحقيقة – وإلاّ فإن شخصاً واحداً يكتشفها، ومن ثم يدركها الجميع – بل الحجاب موضوع عليك أنت. لذلك على كل شخص أن يزيل الحجاب عن نفسه، ومن ثم تُكتشَفَ الحقيقة المرة تلو الأخرى بواسطة كل واحد منكم، لأنها لا يمكن أبداً أن تصبح ملكية مشتركة، ولا يمكن أبداً أن تصبح حقيقة جماعية، وسوف تظلّ شخصية.

ولكن لماذا عيناك مغلقتان؟ لا بد أن يكون هناك استثمار عظيم في العينين المغمضتين، وهو في الحقيقة كذلك، وهذا ما يجب أن يكون مفهوماً. إذا كانت المسألة هي مجرد فتح أعين، فلماذا لا تفتحهما؟ ما الذي يعيقك؟ ما الذي يمنعك؟ إن الحقيقة عارية، وهي عارية بلا أدنى شك، فتلك طبيعة الحقيقة. يمكنك أن تسمّيها الله، وهي أمامك بالضبط، وقد كانت دائماً هكذا. ولكن لماذا لا تفتح عينيك؟ إذن لابد وان هناك استثمار كبير في ذلك.

حدث ذات مرة أن أُحضِرَت امرأة إليَّ. كانت امرأة في غاية الجمال. توفي زوجها، وقد دام زواجهما ثلاثة أشهر فقط. لقد أحبّا بعضهما البعض بشكل هائل، ضد المجتمع برمته، بل ضد العالم بأكمله. لقد تركوا كل شيء لأجل حبّهما، وفجأةً توفي الزوج. كان ذلك شيئاً لا يُحتَمل بالنسبة للمرأة المسكينة.

لقد ظلت مغمضة العينين لثلاثة أيّام. لم ترغب بفتح عينيها، لأنها في قرارة نفسها تعرف أنها إذا فتحت عينيها: فسترى زوجها قد مات، والجثة أمامها. حاول الناس إقناعها، فعلوا كل شيء، لكنها لم تفتح عينيها، كانت تقول باستمرار: "زوجي لم يمت. من الذي يقول إن زوجي قد مات؟". لم يستطيعوا الانتظار أكثر: فالجسد يجب أن يُدفَن.

في اليوم الذي دُفنت فيه الجثة، فتحت الزوجة عينيها. غير أنها في ذلك الوقت فقدت بصرها: إذن، ثمة استثمار عظيم. كانت عيناها سليمتان تماماً، وما من مشكلة فيزيولوجية. كان الأطباء مذهولين، فقالوا: "لا توجد مشكلة، وكل شيء طبيعي تماماً". لكنها لا ترى. الأمر كما لو أن شخصاً ما وراء العينين قد تراجع للخلف؛ أو أن شخصاً كان يقف خلف العينين وينظر إلى العالم الذي تراجع للخلف. الآن، كانت النافذة موجودة، ولكن لا أحد ينظر من خلالها.

ظلّت المرأة عمياء نفسيّاً لأربعة أسابيع، وفي عماها كانت تقول باستمرار: "من الذي يقول إن زوجي قد مات؟ إذا كان ميتاً، فأين جثته؟" حتى في أحلامها كانت تقول: "من الذي يقول إن زوجي قد مات؟" لقد كانت تعرف في أعماقها أن زوجها قد مات، لكن عقلها لم يرغب بتصديق ذلك. العقل يحب العيش في الوهم فحتى الوهم يكون جميلاً عندما يكون الزوج على قيد الحياة، والواقع لن يكون جميلاً إذا كان الزوج ميّتاً. لقد أحبّ كل منهما الآخر بشكل عميق فعلاً.

كانت المرأة قد أُحضِرت إليَّ، وكنت قد عرفتها من قبل. عندما جاءت إلي، كانت تتصرف كما لو أنها عمياء بالكامل. كان على شخص ما أن يساعدها، فقلت لها: "إن زوجك منزعج جداً، لقد جاء إليّ هذا الصباح لكي يراني، وهو يعاني كثيراً، فلماذا لا ترين! الأطباء يقولون إنه لا توجد مشكلة في عينيكِ".

تحدثت كما لو أن زوجها كان حيّاً.. الآن كان ذلك صعب جداً، حيث أسقط في يدها فجأة، ووقعت على الأرض، ثم أخذت تدور، وقالت: "إن زوجي ميّت. لماذا تقول إنه أتى إليك هذا الصباح؟ إنه ميّت". لقد عاد بصرها، وها هو الشعور المتحجّر قد اختفى من عينيها فجأة، واستطاعت أن ترى.

ما العمل؟ ماذا حدث؟ لقد أدركت فجأة الحقيقة التي كانت تنكرها. لقد حدث العمى الزائف من خلال الإنكار، ولكن ما إن تقبّلت حقيقة أن زوجها ميّت، حتى صرخت. لم أري من قبل أحداً يصرخ بتلك الطريقة. لابد وأن ذلك ما يسمّيه جانوف الصراخ البدائي. لقد صرخت من أعماق أحشاءها. لم تكن هي التي تصرخ، وإنّما ذلك الذي استحوذ على كيانها برمّته، وعلى كل مسامات جسدها. دخل الجسد بأكمله في حالة بركانية، فكان كل كيانها يرتعش. استغرق ذلك قرابة نصف ساعة لكي تعود إلى الحالة الطبيعية. ثم هدأت العاصفة، وصمتت. بعد ذلك نظرت إلى وشكرتني.

لم تكن لديك الإمكانية من قبل لكي تنتصر على الحقيقة، ولا يمكن لأحد أن ينتصر عليها. بمقدورك أن تحاولَ لعدة حيوات قادمة، مثلما حاولتَ في حيواتك السابقة ولغاية الآن، ولكن لا يوجد نصر ضد الحقيقة. النصر دائماً يكون مع الحقيقة. تستطيع أن تصنع الأوهام، وتستطيع العيش في عالم أحلامك معصوب العينين، وتستطيع العيش بعينين مغمضتين، لكن ذلك لا يغيّر شيئاً: فعالمك الخيالي هو عالم خيالي، والحقيقة تنتظر أمامك.

كلما عشت في الأوهام، كلما خشيت من أن تتحطم أوهامك، وهذا هو الاستثمار.

على سبيل المثال: تعتقد أنك شخص ما، وكل امرئ يعتقد انه شخص استثنائي، وأنت تعرف أن ذلك ليس صحيحاً، ولا يمكن أن يكون صحيحاً، لأنك تدرك في أعماقك حقيقة أن لا أحد استثنائي. إن ذلك الاستثنائي، الذي هو الأنا، هو كينونة زائفة، وخيالية. تتشبث بها وتعرف جيداً أنها ليست حقيقية، ولا زلت تبني أمل على أمل، وتستمر بالادعاء، وتستمر بمحاولة تعزيز الكينونة الزائفة: بالمال، والهيبة، والسلطة، والمعرفة، والتقشّف. تمضي في محاولة إثبات أنك شخص استثنائي. تستمر في البرهنة على أنك مركز العالم بأكمله، وتعرف حق المعرفة أن هذا ليس صحيحاً، كيف يمكن أن تكون مركز العالم؟ العالم موجود قبل أن توجَد، وسيستمر في الوجود عندما لا تعود موجوداً. إنك مجرّد موجة، والأمواج تأتي وتذهب، ولا يبقى سوى البحر.

ليس لديك أيّ مركز، ولا يمكن ذلك، لأن المركز ينتمي إلى الكل، أمّا الجزء فلا يمكن أن يكون لديه مركز. هل يمكن ليدي أن تملك مركزاً خاص بها؟ إذا كانت يدي لها مركز، فإنها لا تعود جزءاً مني، وستكون موجودة بشكل مستقل. هل يمكن لساقي أن تملك مركزاً؟ إذن هي ليست جزءاً منّي. عندما أقول إنني أود أن أذهب للمشي، فقد لا ترغب ساقي في ذلك، فلديها مركز خاص بها، وستقول لي: "كلا لا أرغب بذلك، على الأقل ليس في هذا الوقت. عليك الانتظار. أقول إنني جائع، وأريد أن أكل، فتقول يدي: "كلا، إنني أشعر بالنعاس، ولا أريد التحرّك". كلا، ليس الحال كذلك. عندما تشعر بالغضب، فتحرك اليدان، حتى من دون أمر. سوف تتحرك اليدان حتى من دون أي أمر معين يُعطى لها. عندما تريد الخروج في نزهة، فتتحرك الساقين بكل بساطة. إنك لا تعطيهما أمراً، بل تتحركان ببساطة. إنهما جزء، ولا توجدان بشكل مستقل، بل موجودتان كوحدة عضوية.

الانسان موجود كجزء من الكل، وكجزء عضوي. لا يمكن أن يكون لديك مركز خاص بك. أمّا إذا اعتقدت أنك تستطيع ذلك، فأنت مخدوع.

ما من أحد لديه مركز سوى الله، ومركز الكل وحده من يستطيع قول: "أنا". عندما تقول "أنا"، وإذا كنت أيضاً تؤمن بذلك، فأنت مُضَلّل.

إذا كنت تستخدم كلمة "أنا" كأداة لغوية، فلا بأس، ولكن إذا كنت تشعر أنك تمتلك "أنا" في داخلك، فأنت تعيش في وهم.. وتعرف ذلك حق المعرفة، إذ كيف يمكن أن تتجنب معرفة الحقيقة؟ هناك لحظات كثيرة عندما تصبح فيها فجأة واعياً بأنك مجرد جزء من الكلّي، وبأنك موجة، لكنك تستمر في تأجيل هذا الإدراك، وتستمر في تأجيل التعرّف على الحقيقة، وتستمر بالادّعاء. وهذا الادعاء ذريعةً.

إنك تعرف جيداً أنك لم تحب أحداً، ولا حتى والديك، ولا زوجتك، ولا زوجك، ولا أولادك، ولا أصدقاءك.. كلا، إنك لم تحب أيّ شخص. تعرف ذلك جيداً، لكنك ما زلت تتجنب إدراك ذلك. ثم تستمر في الظن بأنك تحب، وتستمر في الظن بأنك محب عظيم. لو كنتَ محبَّاً عظيماً لكنت قد حققت ذلك بالفعل. حتى لو أحببت كلّياً شخصاً واحداً فقط، لكان الله قد انكشف لك بالفعل، وكان يمكن أن تدرك الحقيقة بكامل تجردها، ذلك أن الحب يعني موت كل الادعاءات.

عندما تحب شخصاً، فلا يمكنك أن تتظاهر بشيء حقيقي. عندما تحب شخصاً، فتصبح عارياً تماماً، وتكشف نفسك. إن كل الادعاءات تسقط لحظة الحب. ومهما كنت تظن نفسك، ستدرك فجأة أنك لست كذلك. ففي لحظة الحب يظهر شيء آخر: الوحدة العضوية مع الكلّي، حيث تختفي الذات، وتظهر اللاذات. إنك أنت، لكنك الآن لستَ منفصلاً؛ لست غريباً، وإنما جزء من الكلّي. وليس مجرّد جزء، لأن الجزء يمكن أن يكون جزءاً ميكانيكياً، أي جزءاً عضوياً من الكلّي.

ماذا أعني عندما أقول "جزء عضوي"؟ إنها تعني أنك لا تستطيع أن تكون موجوداً بدون الكلّي، والكلي لا يوجد بدونك أيضاً. هذا هو جمال الإدراك للاذات.

إنها المرة الأولى، التي تدرك فيها أهميتك المطلقة، عندما لم تكن كذلك.

لغاية الآن كنت تحاول أن تُثبتَ أنك شخص في غاية الأهمية، ولكن لا أحد يصدّقك، ولا حتى أنت نفسك، فالآن تعرف أنك غير مهم. ثم فجأة، وفي هذا المنزل الفارغ، تُسمَع الموسيقى، ويحل الانسجام.

فجأة، يبدأ الكلّي بالاحتفال بذاتيتك المتلاشية. لقد سمّى ذلك بوذا بـ أناتّا، أي إدراك اللاذات. وهذه هي الحريّة.

الحرية ليست الذات، بل إن الحرية تنبع من الذات. إنك لم تعد موجوداً، ولهذا السبب أنت حر. إذا كنت موجوداً، فلن تكون حرّاً أبداً، بل عبداً.

استمع إلى هذا الطير. إنه لا يغنّي، بل الأغنية هي التي تحصل. ما من أنا في الداخل تتلاعب بالأغنية، ولا أحد يحاول فعل أي شيء. إنها تحصل ببساطة. في حالة اللاذات، ستغنّي اغنية دون وجود مُغَنٍّ، وسوف تؤدي رقصة، لكن الراقص لن يكون موجوداً. سوف تتحرك وتحيا، وتكون منتشياً، ولكن ما من أحد داخل المنزل، ذلك المنزل الذي سيكون فارغاً تماماً. هذه هي الحقيقة. إنك تعرف الآن أنك منزلٌ خال، لكنك تواصل الادّعاء بأنك شخص استثنائي، وتستمر في تكلّف الوضعيات الزائفة.

أنت لا تحب، لكنك تستمر بالتظاهر في أنك تحب... ذلك انه لو كنت تحب، فكيف للألم أن يكون موجوداً؟ لو كنت تحب، فلماذا تعاني؟ لو كنت تحب، فلماذا تغضب كثيراً؟ المسألة لا تتوافق. لو كنت تحب فستكون منتشياً، لكنك لست كذلك، ومن ثم تستمر بالتظاهر بالحب. لقد فعلت باسم الحب الكثير من الأشياء، ولكن ليس الحب: لأنك ما لم تمت، فلن تحب. ما لم تختفي الأنا، فلن يُزهِرَ الحُب.

كيف تصلّي إذا لم تكن قد أحببت؟ ومع ذلك تواصل الادعاء. إنك تذهب إلى المسجد، وإلى المعبد، وإلى الكنيسة، وتتظاهر بالصلاة، فمن تظن أنك تخدع؟ ربما تخدع نفسك، بالتالي صلواتك خاوية كالصحراء، فلا شيء ينبت فيها، حتى في الصحراء هناك أشياء تنمو، لكن صلواتك هي صحارٍ قاحلة، ولا شيء ينمو فيها. ثم تستمر بالادعاء، وما من شيء ينتج عنه. إنك تظل كما أنت، والحياة تهرب من بين أصابعك في كل لحظة. ففي كل لحظة تموت، وتستمر بالادّعاء. ثم تصبح حياتك كلها مع الادعاء أشياء لا معنى لها، وهذه الأشياء التي لا معنى لها تصبح حجُباً ملقاة عليك. غير أن الله ليس مخفيّاً. الحقيقة موجودة.. أمام عينيك تماماً، وفي تجرّدها الكامل، لكنك مُحتَجِب. إنك مغطى بكثير من الحُجُب. كما أنك تستمر اكتساب المزيد من الحجب، ومن المعرفة، ومن التعليم، ومن هذا وذاك. لذا أسقط الحجب، وتوقف عن الادعاء.

سيكون ذلك صعباً، ولهذا السبب أقول إنك تستثمر في عماك، إنه لعبيء ثقيل وصعب ومؤلم أن تتخلى عن الادعاء. سوف تمر بمعاناة، ولكن على المرء أن يمرّ بها، فهي جزء من النمو، ولا أحد يمكنه تجنبها. إذا تجنبتها، فإنك تتجنب نموّك. إذا تجنبتها، آنذاك فلتفعل ما يحلو لك، ولن ينتج عن ذلك أي شيء حقيقي.

عليك أن تمر بمعاناة التحرر من الوهم.. وتذكّر هذه العبارة. تستطيع العيش في الأوهام، وتستطيع أن تخلق أوهاماً جميلة أيضاً، ولكن إذا كانت زائفة. ربما تكون أوهاماً جميلة، لكنها لن تفيد. تستطيع أن تحلم بأحلام جميلة، وأن تصبح إمبراطوراً في الأحلام، لكنك ستبقى متسوّلاً. فقريباً سيأتي الصباح، وقريباً سيترتب عليك أن تفتح عينيك، وقريباً سيذهب النوم وتختفي

الأحلام. حينها ستعرف أنك متسوّل. فالمتسولون يحلمون دائماً أنهم أصبحوا أباطرة.

إن كل ادعاءاتك أحلام، وذلك لكي تزيّف، وتخدع الحقيقة الموجودة حولك دائماً. ولكن إلى متى ستظل تفعل ذلك؟ وما الذي ستكسبه؟ عليك أن تمر بمعاناة التحرر من الوهم: ذلك هو التقشّف الوحيد الذي أعرفه. لستَ بحاجة لأن تذهب وتقف تحت الشمس الحارقة، ولا أن تحضر سريراً من الأشواك وتضطجع عليه. لا تحتاج لأن تعذّب نفسك، ولا أن تصبح مازوشياً. لا تحتاج لأن تعذّب جسدك، فتلك اشياء حمقاء، وغبية. إن التقشف الوحيد هو أن ترى الأشياء كما هي، وأن ترى أوهامك أوهاماً. التقشّف الوحيد هو أن تكون متحرراً من الوهم، وأن تسقط كل الآمال، ومن ضمن هذه الآمال: الأمل في الله، والأمل في التحرر، والأمل في الفوز بتحقيق الخلود. كما أن فردوسك وجنتك من ضمن هذه الأشياء.

كلها أوهام، وهي امتداد لنفس الأنا.

التحرر من الأوهام هو البوابة، وبعدها يمكن أن تتحوّل.

انظر إلى الأشياء على حقيقتها، مهما كان الثمن. إذا شعرت أن اناك سوف تتحطم إذا نظرت إلى الأشياء كما هي، فدعها تتحطم؛ وكلما كان ذلك أبكر، كلما كان أفضل. إذا شعرت أنك ستبدو كالحيوان إذا نظرت إلى كيانك كما هو، فليكن ذلك، فهذا هو أنت. سوف تكون هيبتك في المجتمع على المحك، فليكن كذلك، لأن المجتمع يتكون من أشخاص يشبهونك تماماً: أشخاص مُضللَون. أن تكون محترماً من قِبَلهم، فذلك ليس احتراماً على الإطلاق. أن تكون محترماً من أشخاص نائمين، وحالمين، فالأمر ليس بذي أهمية.

حدث ذات مرّة أن كان بوذا يتحدث في قرية. تجمّع الكثير من الناس. كان هناك القليل من التلاميذ، والكثير جداً من الفضوليين، والحشريين. ها هو بوذا قد أتي: تجمّع الناس لكي يروه ويستمعوا له، ولكن ليس بإخلاص. فقال بوذا شيئاً، ثم صفقوا له جميعهم، فغدا بوذا حزيناً، ثم توقف عن الكلام. فسأله أناندا، وهو تابع بوذا: "لماذا توقّفت؟ ولماذا أصبحت حزيناً؟". فقال بوذا: "لابد أنني تفوّهت بكلام خاطئ، وإلاّ فكيف صفّق هؤلاء الناس؟ لابد أنني قلت كلاماً خاطئاً!... ذلك أن هؤلاء الناس الضالّين لا يمكن أن يدركوا الحقيقة. إن تصفيقهم يُظهِرُ أنهم فهموني. لابد أنني كنت مخطأ، وإلاّ فيكف يفهمون ما قلته".

روي أن بوذا قال: "أن تسعى وراء احترام أشخاص هم تقريباً جاهلين، أو غير واعين، هو أمر يشبه تماماً السعي لنيل احترام الصخور.. رغم أن هذا أفضل.

ربما فُقِدَت هويتك الاجتماعية؛ لقد كنت معروفاً على أنك شخص ورع، فإذا أتيت للبوح بحقيقتك، فسيعرف الناس أنك مثلهم تماماً.. بل حتى أسوأ. فيا لها من معاناة! وهذا هو الثمن الذي ينبغي دفعه. تَذَكّر إن التحرر من الوهم وحده الذي يمكن أن يُحَضّرك للخطوة القادمة. وفي الحقيقة، إذا تحررت كلّياً من وهم الحياة التي كنت تعيشها، ومن الطريقة التي كنت تعيش فيها، فتكون قد أكملت نصف الرحلة تقريباً. إذا استطاع المرء أن يعرف الشيء المزيَّف أنه مزيَّف، فقد حقق بالفعل نفاذ البصيرة، وهو الآن جاهز لأن يعرف الحقيقة على أنها حقيقة. إن الخطوة الأولى هي أن تعرف المزيَّف على أنه مزيَّف. أمّا الخطوة الثانية فتصبح ممكنة بشكل تلقائي: وهي أن تعرف الحقيقة على أنها حقيقة. فالحقيقة لا يمكن أن تُعرَف مباشرة. ينبغي أن تعرف أولاً ما هو غير الحقيقي، فهو المكان الذي أنت فيه. بعدها تستطيع أن تبدأ الرحلة من حيث أنت.

ابحث، وراقب ادّعاءاتك، ثم أسقطها.

هذا هو الإنسان المحترم، والصادق تجاه نفسه، والأصيل الذي يجب أن يكون. ومهما كان الثمن، فادفعه، إذ لابد من دفعه. إذا كنت لست محبوباً، فاعلم جيداً أنك لست محبوباً، وقل لا حبائك أنه ليس لك محب أبداً، وأن حبك كان عملية استغلال ماكرة، وأنه لم يكن سوى خدعة، خدعة دبلوماسية للسيطرة، وأن حبك لم يكن سوى واجهة خادعة لرغبتك الجنسية، وأنه لم يكن سوى طموح الأنا.

اكتشف ماهيته، وليكن معروفاً لك وللآخرين أيضاً.

هذا ما ينبغي أن يكون عليه المتنسّك: إسقاط كل الأوهام، وبقاؤه صادقاً مع كيانه، مهما كان الأمر. حينها تصبح الكثير من الأشياء متاحة لك بشكل مفاجئ. ما إن تزيل الحجاب عن وجهك حتى تنكشف لك الحقيقة.. لأن الحقيقة لم تكن محجوبة قط.

انظر إلى هذا الحدث الصغير:

جاء رجل إلى أبا يزيد...

أبا يزيد البسطامي هو أحد المعلمين الصوفيين العظماء.

جاءه رجل وقال له إنه صام وصلّى ثلاثين عاماً، ومع ذلك لم يقترب من فهم الله.

لقد اتخذ الرجل منذ البداية موقفاً خاطئاً، ولابد أنه كان شخصاً حسابياً للغاية، وشديد المكر؛ وإلا فكيف يستطيع عَدَّ لحظات الحب والصلاة؟ كيف يمكنه القول: "كنت أصلّي ثلاثين عاماً؟". هذا الحساب يكشف عن عقل رجل أعمال: ثلاثين عاماً وهو يَعُدّ. لا بد أنه كان رجلاً من هذا العالم: جشع وحسابي. لقد انتقل إلى العالم الآخر، لكن موقفه لا يزال نفسه: "لقد صمت أياماً عديدة جداً، وصلّيت صلوات كثيرة جداً.. ورغم ذلك لا يحدث شيء؟". في الحقيقة، لو كنت تعرف ما هي الصلاة، فلا تهم النتيجة. الصلاة نتيجة في حد ذاتها. إن القيمة ضمنية، فأنت تصلّي، وهذا يكفي! ذلك أن الصلاة هي السعادة، هي النشوة، وحتى هذه في حد ذاتها كافية، وما من حاجة لأي شيء آخر. لكنك عندما لا تصلّي، إذن فلتنتظر النتيجة.

بعدها تصبح الصلاة وسيلة تفضي إلى نهاية ما: فهم الله، أو إدراك الله، أو أي شيء آخر. غير أن الصلاة لا يمكن أن تصبح وسيلة لأي نهاية، فالصلاة هي نهاية بحد ذاتها. كما أن كل شيء جميل: مثل الحب، أو الصلاة، أو التأمل.. كلها نهايات بحد ذاتها، وليست وسيلة لأي شيء آخر. وإذا حولتها إلى وسائل فإنك تفقد المغزى: أي الاستمتاع بها!

الأمر يشبه تماماً عندما تذهب للمشي في الصباح، حيث تشرق الشمس، ويولد يوم جديد، والحياة تبعث مجدداً. فمن الموت أثناء الليل، يعود كل شيء إلى الحياة: الأشجار، والطيور، وينطلق النسيم المنعش من جديد. إنك تذهب لنزهة الصباح وتستمتع بها. فهل تحتفظ بمفكّرة يومية تقول: "كنت لثلاثين سنة أمشي في الصباح، ولم يحصل شيء بعد؟". إن نزهة الصباح هي نزهة الصباح: نهاية ضمنية في حد ذاتها، وقد استمتعت بها. إن كل يوم تسير فيه يزيدك ثراءً، وهو لا يزيدك ثراءً في المستقبل، وإنما الآن.

الحياة دائما تعطيك نقداً، وليس سندات: إنها لا تعدك بشيء. الحياة مال نقدي: فوري، هنا والآن، وهي تعطيك ما تستطيع إعطائه.

عندما تشعر بالسعادة، وتبدأ بالغناء، أو بالرقص.. فهل تعدّ ذلك؟ هل لديك مذكّرة يومية تقول: "كنت أرقص وأغنّي لمدة ثلاثين سنة، ومع ذلك لم يحدث لي أن فهمت الله؟". هذا يعني أنك لم ترقص على الإطلاق، ولست راقصاً أبداً. قد تكون مُجَهزاً تقنياً للرقص، لكنك لست راقصاً. قد تكون تقنيّاً، لكنك لستَ مُغنٍّ، وهذا هو الفرق بين التقني والراقص. الراقص يرقص!... وفي تلك اللحظة بالذات يمكن الحصول على كل شيء، لأنه في تلك اللحظة يضيع الراقص، وتموت الأنا، ولن يعود هناك راقص. الرقص موجود، ولكن لا مركز له. إنه موجة في المحيط اللانهائي، حركة، وكيان، وذوبان.. وما من أحد في الداخل لكي يتلاعب بخطوات الرقص.

بخلاف ذلك سيكون التقني موجوداً، وهو الراقص المدرَّب الذي يتلاعب. ومهما كان رقصه متقناً، فهو رقص ميّت، لأن المتلاعب موجود. إذن، سوف يحسب: ما هو مقدار...كذا...وكذا...

هناك قصة جميلة أود أن أرويها لكم:

حدث ذلك في حياة موسيقي هندي عظيم هو تاناسين. كان في بلاط الإمبراطور أكبر العظيم، الذي كان إمبراطوراً لا يُضاهي. سأله ذات مرّة: لا يمكنني أن أتخيّل بأنه يمكن أن يتفوق عليك أحد، إذ يبدو ذلك مستحيلاً تقريباً.. يبدو أنك الكلمة الأخيرة. لكنني كلّما فكرت بهذا، تبرز في ذهني فكرة هي أنه لابد أنك كنت تلميذاً لمعلّم تعلمت منه الرقص، فمن يدري؟ ... ربما يتفوق عليك. فمن هو معلّمك؟ هل ما زال حيّاً؟ إذا كان على قيد الحياة، فادعه للبلاط".

فقال تاناسين: "إنه حي، ولكن لا يمكن دعوته للبلاط، لأنه كالحيوان المتوحّش. إنك لا تستطيع دعوته للبلاط. ومهما حدث، فإنه يتنقل، لأنه ليس رجل مجتمع. إنه يشبه الريح، أو الغيوم. ليس له جذور في المجتمع. إنه متجول لا موطن له. لذلك لا يمكن أن تطلب منه أن يرقص أو يعزف. إن ذلك ليس ممكناً. إنه يرقص كلما شعر بالرقص، ويغني كلما شعر بالغناء. علينا أن نذهب إليه، وننتظر، ونراقب.

كان أكبر مفتوناً للغاية، وقد جن جنونه بعد أن قال له تاناسين إن معلّمه على قيد الحياة.. وقد بات الأمر يستحق العناء. فقال أكبر: "مهما كان هذا الشخص، فسأذهب إليه".

كان درويشاً متجوّلاً، اسمه هاريداس.

أرسل تانسين رُسُلَهُ للاستعلام عن مكان وجوده، وقد وُجِد في كوخه قرب نهر جامونا.

ثم ذهب أكبر وتانسين لكي يستمعوا إليه.

فقال سكان القرية: " أحياناً يغني، وأحياناً أخرى يرقص، وذلك في الساعة الثالثة تقريباً عند منتصف الليل. ما عدا ذلك، فهو يجلس طيلة النهار صامتاً".

لذلك، وعند منتصف الليل، توارى أكبر وتانسين ينتظرون خلف الكوخ كاللصوص، لأنه لو عرف بوجودهم، فربما لا يغنّي.

لكن هاريداس بدأ يغني، ثم أخذ يرقص. كان الإمبراطور خامداً كالمنوَّم مغناطيسياً، ولا يتلفّظ ببنت شفة، لأنه ما من إعجاب يمكن أن يوفيه حقه.

عندما عادوا أدراجهم: أخذ يبكي بشكل متواصل. لقد ظلَّ صامتاً بعد أن توقف الغناء، وبقيت دموعه تنهمر، عندما رجع الإمبراطور إلى القصر، وبعد خطوات قليلة، قال لتانسين: كنت أعتقد أن لا أحد يمكن أن يضاهيك؛ كنت أعتقد أنك

شخص فريد، لكنني الآن يجب أن أقول إنك لا شيء مقارنة بمعلمك. فلماذا هذا الفرق الكبير؟".

فقال تانسين: "الفرق بسيط، فأنا اغنّي وأعزف لكي أحصل على شيء آخر: السلطة، والجاه، والمال، والإعجاب. إن موسيقاي لا تزال وسيلة للوصول إلى نهاية ما. إنني أغنّي لكي أحصل على شيء، أمّا معلّمي فهو يُغنّي لأنه حصل على شيء، وهذا هو الفرق إنه يُغنّي فقط عندما يكون لديه شيء في الداخل: عندئذٍ يتدفق الغناء، وعندئذٍ يرقص. غنائه ورقصه نتيجة ثانوية. عندما يمتلئ بالإلهي ولا يستطيع احتواءه؛ عندما يفيض، عندئذٍ فقط يغنّي. إن غناؤه نهاية بحد ذاتها. إنه يحتفل!"

ذلك هو الفرق بين الحب الحقيقي، والحب الزائف. الحب الحقيقي هو ببساطة احتفال. بالنسبة للحب الحقيقي ليس هناك مستقبل.

الصلاة الحقيقية احتفال، ليست مجهوداً، وليست وسيلة لشيء آخر. تصعد ثم تذوب في ذاتها. إن لحظة الصلاة أبدية في ذاتها. ورجل الصلاة لا يحسب أبدا، فتلك حماقة! حتى لحظة واحدة كثيرة جداً؛ حتى لحظة واحدة تصبح بهذا القدر العميق من الرضا: حيث يمتلئ به المرء، ولا يطلب المزيد. حقاً إنها كثيرة جداً. إن لحظة صلاة واحد هي أكثر من اللازم. هناك لا تعود موجوداً، فهي تملؤك بالكامل وتفيض.

إذا استطعت أن تحصل على لحظة واحدة من الصلاة، أو الحب، أو التأمّل، فستشعر بالامتنان إلى الأبد، ولن تتذمّر.

لم يكن الرجُلُ رجلَ صلاة، فقد كان جشعاً؛ لابد أنه كان طماعاً في هذا العالم.. أي في المتجر.

لقد ترك المتجر، لكن عقلية المتجر بقيت موجودة. ترك ثروة هذا العالم، لكن الموقف ظلَّ على حاله. إنه يعُد صلاته يومياً مثلما يعدّ النقود، إذ يقول إنه صام وصلّى ثلاثين سنة، ومع ذلك لم يقترب من فهم الله. والحقيقة أنه لن يقترب من فهم الله أبداً، ذلك أنه لم يتغيّر على الإطلاق. لقد حمل كل مواقفه الدنيوية إلى العالم الآخر.

تذكّر إن موقفك هو عالمك، ولا تستطيع أخذه إلى العالم الآخر. سوف تجعل العالم الآخر يشبه تماماً العالم الذي تركته. جاء شخص لرؤيتي. كان شخصاً غنياً جداً، وكان يتبرّع بالمال للكثير من المؤسسات، ولخطط الرعاية الاجتماعية، وللمعابد، ولهذا وذاك. جاء لرؤيتي وتحدث عن تبرعاته. أخذ يقدِّم نفسه متحدثاً عن تبرعاته، وكم أعطى. كانت زوجته تزوّده بالمعلومات المفقودة، فقالت: "لقد تبرع بمئة ألف روبية تقريباً".

نظر الرجل إلى زوجته وهو غاضب بعض الشيء وقال: "ليس مئة ألف، بل مئة وعشرة آلاف!".

إنك تَحسُبُ ما أعطيته، وتتذكر القيمة. وعندما تتذكر القيمة، فأنت لم تُعطِ على الإطلاق، ولم تُشارك. هذه لم تكن منحة، فعندما تحسب، فربما كانت صفقة.. صفقة للعالم الآخر.. وهذا الرجل ذات يوم سيشتكي حتماً، لأنه سيقول: "لقد أعطيت الكثير، ولم أقترب من فهم الله".

أخبره أبا يزيد إنه حتى مائة سنة فلن تكون كافية.

حتى مئات الحيوات لن تكون كافية. أنها ليست مسألة وقت، فإذا كنت تفعل شيئاً خاطئاً فيمكنك القيام بذلك إلى الأبد...انها ليست مسألة وقت. إذا كنت تفعل شيئاً خاطئاً، فيمكنك المضي في فعل ذلك، ولكن لمجرّد أنك تكرر الشيء الخاطئ ملايين المرات، فإنك لن تصبح محقاً. وإذا فعلت الشيء الصحيح، ولو مرة واحدة فقط، فإن كل الأشياء ستُحُل.

إذن يمكنك الاستمرار بالصلاة ملايين الحيوات، ولن يحدث شيء. وأقول لك: إذا كنت تصلي بحق ولو للحظة واحدة، فقد حدث كل شيء بالفعل. أنها ليست مسألة وقت وكمية: بل مسألة موقف ونوعيّة. ليست المسألة كم تصلّي، وإنما كم هي عميقة، وليست المسألة كم مرّة تصلي في اليوم.

إنّ المسلمين يصلّون خمس مرات في اليوم، ولابد أن هذا الرجل قد صلى خمس مرات في اليوم على مدى ثلاثين سنة. لكن عدد المرات لا يُحدِثُ فرقاً، وإنما نوعية الصلاة: سواء خمس مرات أو خمسين مرّة. المسألة هي النوعية التي تحملها.

هناك قصة في البنغال تقول: إن رجلاً منطقيّاً جداً، وعالم بالنحو والصرف، كان موجوداً منذ خمسمائة سنة تقريباً، واسمه باتّوجي. كان باتّوجي شخصاً مشهوراً في علم النحو والصرف للغة السنسكريتية. لم يذهب إلى المعبد يوماً. ثم أصبح عجوزاً، كان في الستين من عمره، فقال له والده الذي لا بد أنه كان في التسعين من عمره: "الآن المسألة لم تعد تُطاق، لقد كنت أذهب إلى المعبد واصلّي يوميّاً.

لم أخبرك أيّ شيء عن ذلك لأنني كنت أمل أن تتوصل إلى فهم نفسك، ولكن ذلك يأتي متأخراً: الآن، أنت أيضاً أصبحت كبيراً في السن، في الستين من عمرك، وقد أزِفَ الوقت للرحيل، وينبغي أن تُحضِّر نفسك للعالم الأخر. متى ستذهب إلى المعبد وتصلّي؟"

فقال باتّوجي: "أراك تذهب إلى المعبد يومياً وتعود كما أنت. كنت أتساءل في أن القضية ليست في عدد المرات، أو عدد السنين التي صلّيت فيها. يبدو أن المسألة هي كيف تصلّي، أي في نوعيّة الصلاة. وبما أنني كنت أراقبك كل يوم، ولعدة سنين، فقد كنت نذهب إلى المعبد مرتين في اليوم، ثم تعود كما أنت! فلم يبدو لي أن الصلاة مفيدة. ثم كيف يمكن أن تكون مفيدة؟ لابد أن ثمة خطأ.

على أيّة حال سوف اذهب غداً. إن يوم مولدي يصادف غداً. سأذهب وأفعل ما بوسعي فعله، وسأضع كل كياني فيها. سوف أصلّي لمرة واحدة فقط، لكنني لن أترك شيئاً في داخلي، وسأدخل بكل كياني في الصلاة، ولكن لمرّة واحدة فقط. فإذا حصل شيء، فلا بأس، وإن لم يحصل شيء، فقد انتهى الأمر. فبعدها لن أذهب مرة أخرى، لأنه ما الفائدة؟ لا معنى للذهاب!

إذا ألزمت نفسي بالكامل، ولم أترك خلفي أي شيء، فلا يمكنني فعل المزيد في اليوم التالي. أكثر من ذلك لا يمكن أن أفعل. إذا قمت بما في وسعي القيام به بكامل طاقتي العقلية، فسوف أصلّي لمرّة واحدة، فإذا حدث شيء، فقد حدث. إذا لم يحدث، فقد انتهيت. بعدها لن أذهب للصلاة مرّة أخرى".

فضحك الأب وقال: "إنك أحمق. على المرء أن يصلّي لعدة حيوات معاً، وبالكاد يحدث شيء. لكن دعنا نرى. اذهب غداً وحاول".

ذهب باتوجي إلى المعبد، وهو لن يعود مرّة أخرى، مثلما قال. صلّى لمرة واحدة وهو يقف أمام آلهة المعبد، ثم مات. لقد تقدّم للصلاة بكلّيته، ولم يترك شيئاً.

إن الصلاة، أو الحب، يحتاجانك بكلّيتك. إذ لا ينبغي أن ترك خلفك ولو جزءاً منك يراقب، ويحسب، ويتلاعب. عليك أن تكون في داخلها.. ليس جزء صغير منك، ولكن بكلّيتك. لهذا السبب تصبح الصلاة مقدّسة، لأنك فيها بكاملك.

أن تكون بكلّيتك، هو أن تكون إلهياً، ولا توجد ألوهة أخرى.

لقد مات باتوجي، وهذا هو معنى قول: "ما لم تمت"، أي تتلاشى، فتصل. لقد أصبح مستنيراً. ما كان موجوداً هو الجسد فقط، والجسد سقط.

عندما لم يعد باتوجي، وقد تأخر كثيراً، فأرسل والده شخصاً لكي يرى ما حدث. لم يكن باتوجي موجوداً، وإنما الجسد الميّت فقط. لكنك يمكن أن ترى التحوّل على وجهه، وأن ترى الجمال الإلهي. حتى أن الجثة كانت تُظهِر هالة غامضة، وقد تغيّر مظهره الخارجي.

تذكّر أنه مهما فعلت، فينبغي أن يكون حقيقياً: يجب أن يكون منجّزاً ليس بواسطة عقل جشع، وإنما بواسطة عقل مُحِب: بدون أي حسابات. ذلك أن الصلاة، أو الحب، أو الله، ليس مسألة حسابية.

قال له أبا يزيد إنه حتى مئة سنة لن تكون كافية.

فسأل الرجل عن السبب.

فقال أبا يزيد: "لأن انانيتك تعمل كحاجز بينك وبين الحقيقة".

ينبغي أن يُفهَمَ معنى كلمة أنانية. عادةّ ما تطلق كلمة أنانية على شخص: إذا قام بكل شيء لأجل نفسه، وإذا تلاعب بكل شيء لمصلحته. غير أن هذه أنانية سطحية، وعند ذلك المستوى بمقدورك أن تكون غير أناني، وليس ذلك صعباً، فهناك أشخاص غير أنانيين، ويعملون لأجل الآخرين، ويخدمونهم، ويقدمون العون دائماً. لكن ثمة أشخاص غير أنانيين ممن تعرفهم، لكنهم خطرين أحياناً كالأشخاص الأنانيين، بل أكثر خطراً. ربما تستطيع الهروب من الشخص الأناني، لكنك لا تستطيع ذلك مع غير الأناني. إنه خطر جداً: لأنه يخرج لمساعدك، ويعمل لأجلك، فيخلق لك عبئاً. هذه اللا أنانية، تتكشّف في العمق عن أنانية مرة أخرى: فهو يريد تحقيق الإلهي من خلال هذه اللا أنانية. انظر إلى مبشّري المسيحية، إنهم يعملون بجد، ويخدمون الناس. إنهم خَدَمة عظماء، لكن خدماتهم برمّتها في العمق خدمات أنانية، لأنهم من خلالها يريدون العبور إلى الضفة الأخرى. فمن خلال الخدمة يصنعون درجات السلّم الذي سيصعدون عليه إلى السماء. إذن السماء هي الغاية، والخدمة وسيلة، ولابد أنهم بذلك يقعون في المشكلة نفسها التي وقع فيها الشخص الذي جاء إلى أبا يزيد البسطامي.

سأروي لكم قصة.

كان هناك مهرجان كبير في مكان ما في الهند، حيث احتشد عدد كبير من البشر. وكان هناك بئر بدون جدران حوله، وقد سقط فيه شخص. فأخذ يصرخ بصوت عالٍ. لكن المهرجان كان كبيراً، والحشد كان هائلاً، فكان هناك صخب كثير، ولم يسمعه أحد. بعد ذلك جاء راهب بوذي، وكان يشعر بالظمأ. نظر إلى أسفل البئر، حيث كان الرجل يبكي وينحب قائلاً: "أنقذني!".

فقال الراهب البوذي: "لا أحد يستطيع إنقاذ شخص آخر.. وهذا ما قاله بوذا: كن نور نفسك! لا أحد يستطيع إنقاذ شخص آخر: إن ذلك مستحيل. لا تنتظر ذلك! علاوة على هذا، فقد قال بوذا أيضاً إن على كل شخص أن يعاني من كارماه الخاصة. لابد أنك اقترفت أثاماً في الماضي، وعليك أن تتعذب، لذلك فلتتعذب بصمت. لا تبكِ وتفتعل الكثير من الصخب، لأنك بالصراخ والتذمّر تخلق الكارما مجدداً".

فقال الرجل: "أنقذني أولاً وبعد ذلك سأصغي إلى خطبتك، في هذه اللحظة من المستحيل أن أصغِ".

لكن الراهب البوذي مضى في طريقه لأن بوذا قال: "لا تتدخل بكارما أي شخص".

بعد ذلك جاء راهب آخر، وكان كونفوشيوسياً. نظر إلى قاع البئر، فقال غريق البئر: "أنقذني! إنني أموت، ولا يبدو أن احداً يُصغِ".

فقال الراهب: "لقد كان كونفيشيوس على حق حين قال: ينبغي أن يصنع كل بئر مع جدار حوله. فلا تقلق.. سنخلق هذه الحركة العظيمة! ونغيّر المجتمع برمّته، وسنجبر الحكومة على بناء جدار حول كل بئر، فلا تقلق".

فقال الرجل: "ولكن حتى ذلك الوقت سأكون ميّتاً. ثم كيف سيفيدني ذلك، فأنا وقعت في البئر فعلاً"؟

فقال الكونفوشيوسي: "ليس ذلك مهمّاً. إن الفرد ليس مهمّاً، فهو يأتي ويذهب. المسألة هي المجتمع. ولكن تستطيع أن تموت معزّياً نفسك بعمق في أن ذلك لن يحدث مرّة أخرى لأي شخص". إن كونفوشيوس مصلح اجتماعي!

بعد ذلك جاء مبشّر مسيحي. نظر إلى البئر، وقبل أن يتفوه الرجل بأي كلمة، فتح حقيبته، حيث كان الدلو والحبل في داخلها. فالمبشّر المسيحي مستعد دائماً لكي يخدم، حتى قبل أن ينطق الرجل ببنت شفة. وبما أن الرجل كان يشعر بالتعب، فقال في نفسه: الأن لم تعد هناك إمكانية، فقد أتى هؤلاء المتدينين".

رمي المبشّر بالحبل والدلو، وقال للرجل: "تشبّث به، وسوف أسحبك".

كان الرجل ممتنًا للغاية، وعندما خرج من البئر سجد عند قدمي المبشِّر وقال: "أنت الرجل المتديّن الوحيد!".

فقال المبشّر المسيحي: "لا تنخدع– فهذا ما قاله المسيح: ما لم تصبح خادماً لأصغر وآخر واحد بينكم، فلن تتمكن من دخول مملكة الرب.

الخدمة هي السادهانا[5]. إنه من خلال الخدمة يصل المرء إلى الفردوس.

لذلك تذكّر جيداً أن تسقط مراراً وتكراراً في البئر، فانا لست المبشّر الوحيد. ثم عَلّم أطفالك أيضاً أن يسقطوا في البئر، لكي نأتي وننقذهم، إذ كيف لنا أن نصل إلى الفردوس ما لم تسقط؟".

حتى اللا أنانية تصبح في العمق أنانية، وجزء من الطمع، وفي غاية الخطورة: لأن المرء عندما يشعر بأنه على خير ما يرام، فيصبح متسلطاً، ومسيطراً. ثم يحاول تغييرك: يتناولك بيده كقطعة من الطين، ويحاول أن يعطيك شكلاً طبقاً لمعتقده.

المبشّرون أناس مجرمون، وكل المصلحين الاجتماعين هم أناس خطرين. إن الأشخاص الذين يسعون إلى الخدمة يمكن أن يكونوا في منتهى العنف، والعدوانية. إذا وقعت في قبضة رجلٍ خيّرٍ، فمن الصعب أن تفلت منه. إنك تصبح سجيناً، وهو يفعل كل شيء لأجلك. ومهما كان الذي يقوم به، فهو يحاول من خلالك أن يجد الطريق إلى جنته، فأنت مجرّد وسيلة. وهذه أكثر الأفعال لا أخلاقية في العالم: أن تتعامل مع الشخص كوسيلة. إنني أسمّي ذلك بالتصرف الأكثر لا أخلاقية، والأعظم خطيئة، أن تتعامل مع الشخص كوسيلة، ذلك أن كل إنسان هو غاية في حد ذاته.

شارك إن كنت تستطيع المشاركة، ولكن لا تحاول تغيير أي إنسان. فمن أنت لكي تغيّر إنساناً ما؟ من أنت لكي تحوّله؟ من أعطاك الحق في ذلك؟ ساعد إن استطعت إلى ذلك سبيلا، ولكن لا تجعل من هذه المساعدة وسيلة. فبخلاف ذلك، وباسم الدين أيضاً، ستبقى الشخص البارع نفسه الذي يحسب، ويخدع، ويستغلّ الناس: بسبب لا أنانيتك.

إذن، هذا معنى واحد من معاني الأنانية واللا أنانية من الناحية الظاهرية. غير أن اللا أنانيّة الحقيقية هي عندما لا تكون هناك ذات. إن العمل لنفسك هو أنانية، والعمل لأجل ذات الآخرين هو عمل غير أناني. بيد أن الأنانية حاضرة في الاثنين معاً، وبالتالي هما فرعين للشجرة نفسها، ولا يختلفان كثيراً، أمّا الجوهر فيبقى نفسه. إن الأنانية الحقيقية هي اللا أنانية؛ بالتالي مهما تفعل، سواء سمّاها العالم أنانية أو غير أنانية، فذلك غير مهم.. لأنها تنبع من اللاذات، أي من دون دافع. التمييز هنا دقيق؛ الأنانية هي فعل ذي دافع: وفيه تريد شيئاً لنفسك. اللا أنانية هي كذلك فعل ذي دافع: لكنك تريد شيئاً لأجل الآخرين، ومن خلال الآخرين، في العمق، تريد شيئاً لنفسك؛ أي أن الدافع ذاته ينتقل عبر الآخرين. فالأنانية الحقيقية تبقى نفسها، لكن الشكل يختلف.

بالنسبة لي فإن اللا أنانية هي الشيء الحقيقي. عليك أن تفهم حالة كيانك على أنها لا ذات؛ عندئذٍ تصبح الصلاة ممكنة، لكنها تأتي من اللاذات عديمة الدافع. عندئذٍ لا تَحسب ولا تعد، بل تستمتع وتحتفل بها. عندئذٍ يأتي الحب من دون دافع، ويتدفق بشكل عفوي، ومن دون سبب على الإطلاق، ولا تستطيع أن تساعد في تدفقه، فهو موجود، وهو طبيعي.

عندما تغيب الذات، حينها يصبح كل شيء غير أناني، ولا يمكن أن يكون خلاف ذلك. فبخلاف ذلك تستطيع الاستمرار في فعل الأشياء، لكنها ستبقى على حالها، والنوعية لن تتغير، وستظل تشعر دائماً بأن ثمة شيء ناقص.

يمكن أن تصلّي لسنوات، لكنك ستشعر أن ثمة شيء مفقود. يمكن أن تحب الكثير من الأشخاص، وستشعر أيضاً أن هناك شيء مفقود. سوف تظل مثل حفلة الزفاف: حيث وصل الضيوف، والوليمة جاهزة، والموسيقيون يعزفون، والكثير من الغناء، والجميع على أهبة الاستعداد، لكن العريس غير موجود.

إذا بقيت الذات، فسوف تظل دائماً تفتقد لشيء ما، فمهما فعلت، فستظل تفتقد لشيء ما.

ولكن ما إن تغيب الذات، حتى يصل العريس. والآن، فإن أي شيء تفعله سيصبح وليمة، وسيصبح احتفالاً.

مُت أولاً كما أنت، بحيث يمكن للإله أن يولَدَ في داخلك.

الصوفيون على حق عندما يقولون: "لا يمكن أن تحقق شيئاً ما لم تمت".

الفصل السادس:
الإنسان يحمل البذرة

الإنسان يحمل في داخله بذرة تعاسته أو سعادته، جحيمه أو جنته

أعلن المهدي عبّاس انه يمكن التحقق ممّا إذا كان الناس يحاولون مساعد شخص، أم لا، وما إذا كان هنالك شيء لدى الشخص يمكن ان يُحبط هذا الهدف.

وبما ان هناك اشخاص معيّنون اعترضوا على هذه النظرية، فقد وعدهم المهدي بتقديم البرهان.

عندما نسي الجميع هذا الأمر، أمر المهدي شخصاً بأن يضع كيساً من الذهب عند منتصف جسرٍ. ثم طلب من رجل آخر أن يأتي بشخص بائس مديون إلى نهاية الجسر، ويطلب منه اجتيازه.

وقف المهدي بصحبة شهوده على الطرف الآخر من الجسر، وعندما وصل الرجل الفقير إلى الطرف الآخر، فسأله المهدي: "ماذا رأيت وسط الجسر؟".

فقال الرجل: "لا شيء".

فقال المهدي: "كيف ذلك".

أجاب الرجل: "ما إن بدأت بعبور الجسر، حتى جاءتني فكرة انه سيكون أمراً مسلياً ان اعبر وانا مغمض العينين، وقد فعلت ذلك..".

الإنسان يحمل في داخله بذرة تعاسته او سعادته، جحيمه أو جنّته. إن أي شيء يحدث لك فهو بسببك، أمّا الأسباب الخارجية فهي ثانوية، والأسباب الداخلية هي الرئيسية، وما لم تفهم ذلك، فلن تكون هناك إمكانية للتحوّل، لأن العقل يستمر خداعك. العقل يشير دائماً إلى الخارج قائلاً: إن سبب، تعاستك أو سعادتك، موجود في مكان آخر.

لو كان السبب موجود خارج نفسك، لما كانت هناك إمكانية للتحرر، ولما كانت هناك إمكانية لأي انعتاق.

لو كان السبب في الخارج، لكنت حتماً في حالة عبودية إلى أبد الآبدين. إذ كيف تستطيع أن تغيّر السبب الخارجي؟ ثم إنك حتى لو غيّرت سبباً، فسيعقبه ملايين الأسباب.

هذا هو الفرق، وهو فرق اساسي، بين العقل الديني، والعقل اللا ديني.

الشيوعيون سيفكرون عكس ذلك تماماً. وماركس لن يكون مستعداً للموافقة على ما يقوله بهاء الدين في هذه القصة، فماركس يقول إن السبب موجود خارج المرء، والإنسان تعيس لأن هناك أسباب خارجية تخلق التعاسة، وسيكون سعيداً لو تغيّرت الأسباب، واستبدلت بأخرى. ووفقاً لماركس فإن الثورة مطلوبة، في العالم الخارجي. امّا وفقاً للنبي محمد، وللمسيح، ولمهافير، وكريشنا، فإن هذا التشخيص خاطئ برمّته.

إن الأسباب تكمن في الداخل، أما الخارج فهو مجرّد تبريرات.

تستطيع أن تغيّر الخارج، ولكن لن يتغيّر شيء إذا بقي الداخل على حاله، ذلك أن الداخل سيخلق النموذج ذاته مراراً وتكراراً، مهما كان الوضع في الخارج، لأن الإنسان يعيش انطلاقاً من الداخلي إلى الخارجي.

كنت أعرف شخصاً تزوّج ثلاث مرّات، وقد عانى كثيرا. عندما تزوّج أول مرّة، اختار امرأة سادّية كانت تستمتع بتعذيبه. أراد أن يأتي لرؤيتي لكي يروي لي تعاسته. أحياناً كانت تنهال عليه بالضرب، فيأتي لكي يريني الندوب. غير أنني كنت أشعر بكيفية ما أنه في أعماقه يستمتع بالألم ويتلذذ به، لأنه عندما كان يتحدث عن تعاسته، فيصبح وجهه مشرقاً وليس مكتئباً، وتتألق عيناه، ويصبح أكثر حيوية.

تابعتُ مراقبته بدقّة، فأحياناً كانت تذهب زوجته إلى منزل والديها، فلا يكون سعيداً. وعندما تكون معه، فلا يكون سعيداً، وكلتا الحالتين من عدم السعادة مختلفتان ومتمايزتان: فعندما كانت الزوجة موجودة، كان غير سعيد، لكنه سعيد بعدم سعادته، ويستمتع بها، ويتحدث عنها. كان لدي شعور بأنه كان يبالغ، فقد كان شاعرياً للغاية بخصوص ذلك.

عندها أصبحت السعادة أكثر من اللازم، فطلّق الرجل زوجته. قلت له في اليوم الذي طلّقها: " كن حذراً جداً الآن، لأنني أعتقد أنك ستقع في الحب مع امرأة من النوع ذاته مرة أخر. وربما أنك لا تزال كما أنت، فستحظى بامرأة من النوع ذاته مجدداً. لذلك كن حذراً الآن".

فقال: "لا يمكنني الزواج من امرأة كهذه مرة أخرى. لقد انتهيت إلى الأبد!".

غير أنه وقع ضحية مرّة أخرى في غضون ثلاثة أشهر مع امرأة من النموذج نفسه. فتزوّج، وأخذ يروي قصصه الحزينة من جديد: بأن المرأة كانت تعذّبه. فقلت له: "قد أخبرتك بأن هذا أمر ممكن، لأنه من سيختار المرأة؟ إنه أنت. أنت من اختار الأولى، وأنت من سيختار الثانية، لكنك بقيت كما أنت".

قلت له: "ستختار دائماً المرأة الساديّة، لأنك مازوشي. تريد أن تتعذّب.. تريد أن يسيطر عليك شخص ما ويسحقك. إنك تدين ذاتك، ولا تستحسن نفسك، ولا تحبها. إنك تحتاج إلى شخص يضربك ويركلك".

غير انه سرعان ما انتهى الزواج الثاني أيضاً، وغادرت الزوجة.

عندما شاهدته آخر مرّة، كان يجري وراء امرأة، فقلت له: "الآنّ كن يقظاً! ثمة شيء في داخلك سيختار مجدداً امرأة من النوع ذاته".

فقال: "الآن لن أكرر ذلك. من تظنني؟ هل أنا بهذه الحماقة؟ لا يمكن أن أنسى الدرس".

ثم تزوج مرة أخرى، وتلقّيت منه رسالة. حيث تتكرر الحكاية القديمة للتعاسة من جديد.

يمكن أن يعيش هذا الرجل آلاف السنين، ويمكن أن يطوف الأرض بأكملها، وسيختار نوع المرأة ذاته، لأن الذي يختار يبقى على حاله. إن التعاسة لا تكمن في المرأة التي يختارها، بل في الخيار ذاته.

إنك تحمل جنّتك في داخلك، كما أنك تحمل جحيمك. فإذا شعرت بالتعاسة، فلا تحاول إيجاد الأعذار في العالم الخارجي، لأن هذا لن يفيدك. في الحقيقة، ستصبح هذه الأعذار خِدَعاً. عندما تكون تعيساً، حاول أن تعثر في داخلك على الشيء الذي يحبطك، وتنبّه له. بخلاف ذلك سيستمر البشر لحيوات عديدة في التحرك في الأخدود نفسه، وفي الحلقة المفرغة ذاتها.

ذات ليلة حلم الملا نصر الدين أنه كان في الجنة. كان كل شيء حوله جميل للغاية: وادٍ ساكنٍ، وشمس مشرقة، والطيور تغنّي، وكان يجلس وحيداً تحت شجرة. غير أنه سرعان ما اخذ شعر بالجوع، ولم يكن هناك أحد، أو بدا ظاهرياً أنه ما من أحد في المكان. لكنه ما برح يقول: هيييي! الا يوجد أحد هنا؟

ثم ظهر شخص وسيم جداً وقال له: "إنني في خدمتك سيّدي. سأفعل أي شيء تقوله". ثم طلب منه طعاماً.

كان يزوّده على الفور بأيّ شيء يطلبه، ولم تكن تمضي لحظة واحدة حتى يكون الطعام قد حضر. لقد أكل حتى امتلأ، ونام جيّداً. ثم استمر على هذا المنوال. كلما احتاج شيئاً، فكان يحضر في الحال! احتاج إلى سرير عند المساء، فكان السرير موجوداً.

استمر ذلك لبضعة أيام.. ولكن إلى متى...؟

ثم أخذ يشعر بالضجر والملل، ذلك أن كل شيء كان على أحسن حال، بل أكثر من اللازم فعلاً.

لم يستطع التحمّل، فأخذ يبحث عن تعاسة ما، لأن كل شيء كان في غاية الجمال. أخذ يبحث عن التوتّر، لأنه لم يسبق أن عاش من دون توتّر، وشيء من القلق، وشيء يحزن له، ويكتئب منه. كان كل شيء في غاية السعادة، بل في سعادة لا تُحتَمل. لذلك استدعى الرجل وقال له: "لقد طفح الكيل، فهذا غير معقول! أود الحصول على عمل ما. إنني أجلس خالي الوفاض، وقد ضقت ذرعاً".

فقال الرجل: "أستطيع أن أفعل أي شيء لأجلك، لكن ذلك غير ممكن. لا أستطيع أن أمنحك عملاً، فذلك غير ممكن هنا. إنني مستعد لمنحك أيّ شيء آخر تحتاجه. ثم ما حاجتك للعمل؟ حينما يُقَدّمُ لك كل شيء على الفور، فلا تحتاج للعمل"!

فقال نصر الدين: "لقد ضقت ذرعاً! فمن الأفضل إذن أن.. أكون في جهنّم إذا لم أعطى عملاً".

فأخذ الرجل يضحك، ثم قال: "أين تظن أنك موجود؟" وأثناء الضحكة، استيقظ الملاّ، وكان قد تحطّم حلمه.

هرع إليّ في الصباح وقال لي: "إن هذا الحلم رمزياً للغاية. ما معنى ذلك؟".

فقلت له: " في المقام الأول، يجب ألاّ تكون قد انتظرت طويلاً. فكان ينبغي أن تفتح عينيك على الفور عندما وصلت إلى نقطة في الحلم حيث كنت في الجنة. فكيف يمكنك أن تكون في الجنة؟ أنت بالتحديد، وفي الجنّة؟ كيف تصدق ذلك؟".

أينما تذهب، فسوف تخلق جحيمك حولك. في الحقيقة، الجنة والجحيم ليسا شيئاً جغرافياً؛ ليسا أمكنة، ولا يوجدان في الفضاء الجنة والجحيم إن هما إلاّ مواقف إنها مواقف نفسية؛ موجودان في الفضاء الداخلي، وليس في الفضاء الخارجي. لا يمكن أن تذهب إلى الجنة، فكيف ذلك؟ اين الجنة. كما أنه لا يمكن أن تذهب إلى الجحيم.

إنك تحمل دائماً جنتك أو جحيمك حولك.

إنها تشبه شبكة العنكبوت تماماً، فقد قيل في الأبانيشاد – التي هي إحدى أكثر الرموز جمالاً: إن كل شخص يشبه تماماً العنكبوت الذي يحمل في داخله شبكته. فأينما يذهب العنكبوت، ينشر شبكته حوله. إنه يجلبها من أحشائه. وكلما أراد أن يتحرك، فإنه يبتلع الشبكة مجدداً، ثم يتحرّك!

إنك تحمل جنتك وجحيمك تماماً مثل شبكة العنكبوت، وأينما ذهبت، فستخلق نموذجاً حولك.

ينبغي أن تستوعب هذا بعمق قدر الإمكان، لأن الكثير من الأشياء تعتمد على فهمك. كما أن تحولك يعتمد بأكمله على فهمك. فإذا أخطأت فهم هذه النقطة، فسوف تستمر في الخسارة.

جاء إلى شخص وبقي عشر سنوات على الأقل. بدأ في التأمّل لبضعة أيام، بل على الأرجح لبضعة أسابيع، ثم أخذ يشعر بأنه على خير ما يرام. لقد شعر بإحساس مدهش. عندما كان يقوم بالتأمل، كان يأتي إليّ ويقول: "إنني على خير ما يرام بالمطلق! ولا أحتاج لأي شيء آخر. إني سعيد جداً كما لم أكن من قبل".

ذات يوم توقف فجأةً. بعدها اختفى لبضعة أشهر، ونسيني. ثم عاد مجدداً، بائساً وحزيناً، وفي كرب عميق. ثم قلت له مجدداً أن يبدأ في التأمّل، وسألته: "لماذا توقفت؟ ... لأنك كنت تبدو عظيماً جداً، وجميلاً جداً".

فقال: "عندما أشعر بالجمال والعظَمَة، كان شيء في داخلي يقول دائماً: "الآن لم تعد هناك حاجة للتأمّل!" ثم أتوقّف. بعد ذلك أسقط في الوادي من جديد، في الظلمة، ثم تبدأ التعاسة، وعندها أعود إليك مجدداً".

فسألته في تلك المرة التي جاءني فيها: "كم مرّة حصل ذلك؟ لا يمكن أن تتعلم شيئاً من التجربة؟ ففي عشر سنوات لابد أن يحدث ذلك ثلاثين مرّة على الأقل".

فقال: "هذه المرة أعود لكي التصق بالتأمل".

غير أني أعرف أن هذا ليس ممكناً، لأنه وعد بذلك عدة مرّات من قبل. لم يكن وعده موثوقاً، فقد أعطاني الوعد ذاته ثلاثين مرّة وأخلّ به. إنه لا يدرك مطلَقاً ما يفعله.

فما إن اقترب من لحظة الانفجار، حتى تراجع العقل وقال: ما الحاجة لذلك أنت الآن سعيد جداً، فلماذا تزعج نفسك بالاستيقاظ باكراً في الصباح؟ لماذا تزعج نفسك بالتأمل؟ الآن كل شيء على خير ما يرام، ولا حاجة لذلك. عندما لا يعود المرض موجوداً، فعلى المرء أن يوقف العلاج، لذلك أوقف التأمّل!" نكرر ذلك مرّات عديدة، ولم يتوصل إلى أيّ فهم خلالها.

هناك قصة جميلة للغاية في الماهابهاراتا، وهي أعظم ملحمة في العالم، تدور كلها حول عن خمسة أخوة طُرِدوا من مملكتهم، وينتقلون هائمين في غابة. ذات يوم، حيث كانوا يشعرون بعطش شديد، ذهب أحد الأخوة، وكان الأصغر بينهم، لكي يبحث عن الماء. اقترب من بحيرة جميلة، ولكن ما إن خطى إلى داخل البحيرة لكي يملأ جعبة الماء، حتى سمع صوتاً من مصدر مجهول يقول: "انتظر! إنك ما لم تُجِب على أسئلتي، فلن تأخذ الماء من هذه البحيرة. ذلك هو الشرط الوحيد: عليك

أن تجيب على أسئلتي الثلاثة، فإذا لم تستطع الإجابة فستموت في هذا المكان على الفور. السؤال الأول: ما هو الشيء الأكثر أهمية بالنسبة للإنسان؟ فلم يتمكن الشاب من الإجابة، وسقط ميّتاً.

بعد ذلك لحق به شقيقه الآخر، فحصل الشيء ذاته. ثم ذهب الأخ الأكبر بوديسثيرا إلى البحيرة بحثاً عن الماء، وبحثاً عن إخوته، ومعرفة ما حدث لهم.

أربعة أخوة كانوا يتمددون على ضفة البحيرة، وفي اللحظة التي خطى فيها إلى البحيرة سمع الصوت نفسه يقول: "أجب على هذه الأسئلة، وإلاّ ستكون ميتاً أيضاً. فإن أجبت، فلن تكون حياً فحسب، وإنما ستشرب من البحيرة، والماء نفسه سيجعل إخوتك احياء. فقط قم برش الماء على وجوههم، ولكن اجب على أسئلتي قبل كل شيء. السؤال الأول: ما هو العامل الأكثر أهمية بالنسبة للإنسان؟" فقال يوديسثيرا: "الأكثر أهمية بالنسبة للإنسان هي الأشياء التي لم يتعلمها".

فسُمح له بشرب الماء، وسُمِح له بإحياء اشقائه.

والحقيقة أن هذه إحدى أهم الحقائق بالنسبة للإنسان: وهي أن الإنسان لا يتعلّم أبداً. ربما تصبح في غاية المعرفة، لكنك لا تتعلّم أبداً. إن المعرفة والتعلّم شيئان مختلفان. فالمعرفة مُستعارة: إنها أشبه بالببغاء الذي تحشوه بالكلمات. تملأ ذاكرتك، ويصبح دماغك مثل الكومبيوتر. أمّا التعلّم فهو شيء مختلف كلّياً. التعلّم معناه التعلّم من خلال التجربة، ولا تكرر الخطأ ذاته مرّة أخرى، وتصبح أكثر حرصاً، وأكثر يقظة، وأكثر إدراكاً.

وهذه هي رسالة هذه القصة الصوفية: ثمّة شيء في داخلك يُحبطك باستمرار، وما لم تُمسك به وتحطّمه، فسوف تفشل بكل ما تقوم به، وبكل ما تفعله. ذلك العامل الموجود في داخلك، والذي يُحبطك بشكل مستمر، ينبغي أن تقضي عليه بالكامل، وتحرقه.

من الجائز أنك لاحظت– ربما لم تكن الملاحظة حادة جداً، وعميقة، وثاقبة، ولكن لابد وأنك لاحظت– في ظل حالة عقل ضبابي، غامض ومبهم، مع ستارة من الدخان، ولكن لابد أنك لاحظت إنك ترتكب بشكل مستمر نوع الأخطاء نفسها مراراً وتكراراً. يا له من حظ سيّئ! إنك حتى لا تستطيع اختراع اخطاء جديدة، فيا لها من حالة مشوهة وضحلة للعقل! إنك حتى لا تستطيع التفكير بارتكاب أخطاء جديدة، فتستمرّ في ارتكاب الأخطاء ذاتها المرة تلو الأخرى، ثم تصبح هذه الأخطاء كالتأمّل التجاوزي: رام، رام، رام. ثم تستمر وتستمر، وتصبح أسطوانة مشروخة. هل لاحظت إنك تستمر في ارتكاب الأخطاء نفسها؟ ... وفي علاقاتك، وفي حبك، وفي عملك، وفي صداقاتك، حيث تستمر في اقتراف الأخطاء ذاتها مجدداً. ثم تستمر على أمل أنها ستكون هذه المرّة مختلفة.

في الحقيقة لن تكون مختلفة، لأنك لم تتغيّر، فكيف إذن يمكن أن تختلف الأشياء؟ أنت تأمل ضد الأمل. ولكن: أحمق هو العقل، فهو يمضي في الأمل، ويعرف في أعماقه حق المعرفة أن هذا غير ممكن، لأنك سوف تُحبَط.

إنك تقع في حب امرأة، ويجري كل شيء برومانسية، وشاعرية كبيرة. غير أن ذلك لا يحدث للمرة الأولى، فقد حدث عدة مرّات. لقد وقعت عدة مرات في الحب، ولعدة مرات كان العالم شاعرياً ورومانسياً. أصبح العالم حلماً، وكل شيء كان جميلاً.. بعد ذلك ينقلب كل شيء إلى بشاعة: الجمال نفسه يتحوّل إلى بشاعة، والجنة نفسها تصبح جحيماً، وقد تكرر هذا مرّات عديدة، لكنك ستقع في الحب مجدداً، وسوف تنسى مرة أخرى.. وهكذا دواليك! إنك آلة تكرار، وما لم توقِف هذا التكرار، فليست هناك إمكانية للتغيّر.

كيف للمرء أن يوقف هذا التكرار؟ اولاً عليه أن يدرك أن التكرار موجود، وتلك هي الخطوة الأولى. إنك تعمل كالإنسان الآلي تماماً، وليس كإنسان.

يصعد الإنسان في داخلك عندما لا تكون آلة. يصعد الإنسان في داخلك عندما تبدأ بالسير على طرق نقيّة، وعندما تبدأ بالتحرك على مسارات جديدة، وعندما تبدأ بالسير نحو المجهول.

إنك تسير دائماً في المعلوم: فتفعل مجدداً الشيء ذاته الذي قمت به، ثم تصبح بارعاً في القيام به. تصبح بارعاً بإتقان في اقتراف الأخطاء نفسها من جديد. تصبح شيئاً يمكن التنبؤ به، وليس إنساناً: فما من إنسان يمكن التنبؤ بشأنه لو كان إنساناً. علم التنجيم الفلكي موجود بسبب حياتك الآلية؛ وإلاّ لما استطاع أحد التنبؤ باللحظة التالية. بيد أنه يمكن التنبؤ بها. فمن بين عشرة آلاف شخص، فإنه يمكن التنبؤ ب 9999 شخص.

هناك قصة جميلة تقول:

أصبح بوذا مستنيراً.

كان يتنقّل من قرية لأخرى، وكان الجو حارّاً في فصل الصيف. كان يسير بمحاذاة النهر، حيث كانت ضفة النهر رطبة، والرمل كان رطباً، وقد ترك وراءه آثار أقدامه على الرمال. وقد حدث بالصدفة أن مُنجّماً فلكياً عظيماً كان قد أكمل دراسته في كاشي، وهي قلعة في الهند، للتعليم والمعرفة. كان قد أكمل دراسته وأصبح مثالياً في التنبؤ.

أثناء عودته شاهد آثار أقدام على الرمال. لم يصدق ما شاهده، ذلك أن في كتبه المقدّسة كانت توجد آثار أقدام إمبراطور عظيم يحكم العالم بأكمله. لماذا يأتي إمبراطور، أو تشاكرافارتن، وهو من يحكم كل الأرض، في مثل هذا اليوم القائظ، وإلى مثل هذه القرية البائسة؟ ولماذا يسير حافي القدمين على الرمل؟ لقد كانت كل الرموز موجودة في الرمل. لذلك قال لنفسه: "إمّا أن علمي كله غير صحيح: فهذا الرجل يبدو أنه متسوّل، لكن عِلمي يقول إنه إمبراطور، بل أعظم إمبراطور في العالم، وإمّا سأضطر للعثور على هذا الشخص، فربما يكون إمبراطوراً أصابه الجنون من خلال حادث ما، ومرّ بالصدفة من هنا".

وهكذا تعقب الآثار: كان بوذا يجلس تحت شجرة. وصل إلى بوذا، وعندما نظر إليه كان أكثر حيرة من أيّ وقت مضى. لقد بدا كالإمبراطور، وكان متسولاً. كانت شخصيته برمّتها تشبه الإمبراطور. فقال لنفسه: "كلا. الإمبراطور لم يكن قط هكذا، فهذا متسوّل بثياب مهترئة".

لذلك سأله: "أرجو أن توضح التباسي.. لقد أثرت حيرتي. فقد أمضيتُ في كاشي خمسة عشر عاماً. أهدرتُ من عمري خمسة عشر عاماً في تعلم التنبؤ. والآن إذ أكملتُ دراستي، وتقدمتُ للامتحان، وحصلتُ على شهادة، وها أنت تحبطني تماماً. فقط أخبرني: هل أن متسوّل؟ أم أنك تشاكرافارتن، ذلك الإمبراطور العظيم الذي يحكم الأرض بأكملها؟ لأن حياتي بكاملها ستعتمد على جوابك. فإذا قلت إنك متسوّل، فسأرمي كل هذه الكتب التي أحملها إلى النهر، إذ لا قيمة لها، وسأذهب إلى منزلي، وأكون قد أهدرت حياتي كلها بدون داع. أو، إذا كنت تشاكرافارتن، فقل لي".

فتح بوذا عينيه وقال: "إن تشوشك طبيعي. لكنك بالصدفة أتيت إلى شخص الذي يشكّل واحداً من عشرة آلاف، أمّا بالنسبة لل 9999، فإن كتبك المقدسة ستكون دائماً صحيحة. أمّا بخصوص الواحد من أصل 9999 شخص، فإن كتبك المقدسة ستكون غير صحيحة. لكنك لن تصادف هذا الواحد مرّة أخرى، لذلك لا تهتم، ولا ترمِ كتبك في النهر. إنه من المستحيل تقريباً أن تصادف هذا النوع من البشر مرّة أخرى".

فسأله المنجّم: "ما سر ذلك؟ كيف أصبحت غير قابل للتنبؤ؟".

فقال بوذا: "لكوني متنبهّاً، فأنا لا أرتكب الخطأ نفسه مرة أخرى، ولا أكرر النموذج ذاته مرة أخرى. لقد أصبحتُ إنساناً: فلم أعد آلة، ولا تستطيع أن تتنبأ بي. إن اللحظة التالية مجهولة، ليس بالنسبة لك فقط، وإنما بالنسبة لي أيضاً. إنها مجهولة تماماً، وسوف تتنامى، لأنه لا أحد يعرف ما سيحدث".

إن الكائن الواعي ينتقل من المعلوم إلى المجهول، والكائن اللاوعي يتنقل من معلوم إلى معلوم: أي أنه يتحرك في دائرة.

لذا فإن أول شيء يجب أن تدركه هو أنك آلة تكرار. سيكون ذلك تحطيماً للأنا، لأنك كنت دائماً تعتقد أنك أصيل. لكنك لست كذلك. العقل لم يكن أصيلاً قط، فهو متوسط دائماً. وبما أن بنية العقل بالذات هي تراكم المعلوم، فهو لا يستطيع معرفة المجهول. يستطيع العقل أن يتحرك ضمن دائرة المعلوم، ويواصل تكرار نفس ما يَعلَمَهُ، فكيف يمكن للعقل أن يعلم المجهول؟ في الحقيقة لا يوجد أيّ احتمال لذلك.

لكي تعلم المجهول، فينبغي أن تتخلى عن العقل، وعندئذٍ ستجد نفسك وسط المجهول فجأة. إن الكلّي مجهول، بل كل شيء مجهول، إذ ذاك يصبح الكلّي جَمالاً.

إن المعلوم ميّت، والمجهول حيٌّ. المجهول المطلق هو ما يسمّيه الناس المتدينون: الله. إن عبارة "المجهول المطلق" تعني: كل ما تعرفه سيظل مجهولاً، ومهما كنت تعرف، فسيظل مجهولاً. لأنه غير قابل لأن يُعرَف.

هناك ثلاثة انتقالات: من المعلوم إلى المعلوم: وهو العقل. ومن المعلوم إلى المجهول: وهو الوعي. ومن المجهول إلى المجهول: وهو أعلى مراحل الوعي. حينها يصبح الإنسان حكيماً. حينها يصبح الإنسان إلهاً بحد ذاته عندما ينتقل من المجهول إلى المجهول، عندها يكون العقل قد أسقط بالكامل. عندها لا يكون هناك ماضٍ، وحينما لا يكون هناك ماضٍ، فلا يكون هناك مستقبل.

الموجود فقط هو هذه اللحظة، بل هذه اللحظة بالذات. ففي هنا والآن: كل شيء يبلغ الذروة. الكلّي موجود في هنا والآن، في كامل عريّه وجماله، وفي كامل ألوهته وقداسته.

تذكّر إن العقل يتّسم بالتكرار، وهو ليس أصيلاً. إنه شيء آليّ، أو شيء يشبه الحاسوب، أو حاسوب بيولوجي، وعلى المرء أن يتخطاه. إذا لم تتخطى العقل، فسيظل يُحبطك باستمرار. سيظل يقدم لك النموذج نفسه مراراً وتكراراً، لهذا السبب يضجر الهندوس ويقولون: "الله، متى ستأتي اللحظة عندما نتحرر دولاب الحياة والموت؟" لِما يقولون هذا؟ بسبب التكرار: فالقضبان التي تربط الطوق الخارجي للمركز تكون في الأعلى تارة، وفي الأسفل تارة أخرى. إن العجلة تدور وتكرر نفسها، وما من شيء أكثر تكراراً من العجلة، الدولاب، لهذا السبب يسميها الهنود دولاباً. يلفظونها للعالم: سانسار، وهي تعني الدولاب الذي يتحرك ويدور.

هناك دافع وحيد فقط: هو كيف نتخلص من دولاب الحياة والموت هذا؟

هذا الأمر رمزي للغاية: كيف نتخلص من هذا الدوران؟ كيف ننتقل إلى الصفاء الأبدي؟ كيف ننتقل إلى الحياة الأبدية؟ كيف ننتقل من الموت، ومن هذه الحياة؟ لأن هذه الحياة ليست سوى موت طويل الأمد، أو موت تدريجي. يولد الطفل ويشرع بالموت في اللحظة نفسها. سيكون ميتاً في غضون سبعين سنة.

سوف يموت رويداً رويداً، وسيستغرق موته سبعين سنه. إن هذه الحياة ليست سوى موت تدريجي.

إن دولاب الحياة والموت ما هو إلاّ العقل. والخطوة الأولى هي أن تصبح واعياً بذلك.

الخطوة الثانية هي أن تكون منتبهاً عندما يدخل العقل مجدداً في الروتين. فإذا كنت منتبهاً، فتكون قد أدخلت إليها ظاهرة جديدة.

فعلى سبيل المثال: إنك تقع في الحب مراراً، فكن حذراً. عيب في الوقوع في الحب؛ إنه جميل. فلتقع في الحب، ولكن لا تكرر التجربة السابقة. كن حذراً! ومن خلال الحذر فقط، تكون قد قدمت ظاهرة جديدة لم تكن من قبل. وأيّاً كان ما تقوله لزوجتك/أو لزوجك، فقله بحذر تام.

حدث أن وقع الملا نصر الدين في حب امرأة، وكنت أقول له باستمرار أن يبقى حذراً. فعندما قال للمرأة: "أنتِ المرأة الأكثر روعة، وأكثر جمالاً في العالم"، فتذكّر فجأة ما قلته له، فقال لها مستدركاً: "مهلاً! اعذريني.. هذا ما كنت أقوله للكثير من النساء، ولست متيقناً من أنني لن أقول ذلك مرة أخرى من بعدك لنساء أخريات".

لقد دخل إلى وعيه شيء جديد، وهو أنه أصبح واعياً فجأةً بأنه كان يقول هذا باستمرار للكثير من النساء: "أنت المرأة الأكثر روعة في العالم". والنساء مخلصات للغاية. إنهن يثقن ويصدقن ببساطة، رغم معرفتهن بأن ذلك غير صحيح، ولكن يصدّقن ذلك. فهنَّ يكررن إحباطهنَّ، والرجل يستمر في تكرار آليته. ولولا ذلك لكانت ستقول المرأة: "مهلاً! لا حاجة لأن تذهب بعيداً. إن الحب شيء جيد، ولكن لا تحتاج امرأة لأن تكون المرأة الأجمل لكي يكون الحب موجوداً عندئذٍ فقط، وإلاّ فلن يدوم الحب لفترة طويلة".

لماذا لا تحب امرأة عادية؟ ما العيب في كونها عادية، وبسيطة، وغير متكلّفة؟ لماذا تخلق الأحلام؟ إنك عندما تخلق الأحلام، فإنها تقيّدك لكي تحطمك يوماً ما، لأن الأحلام لا يمكن أن تصبح حقيقة، وسوف تحبطك. كما أنه بمجرد عقد ملك الأحلام، والوعود الكاذبة، والكلمات، فسوف تصبح عبئاً ثقيلاً عليك، وستبدو المرأة بعد ذلك كأنها حجر عنقك. فلا تفعل ذلك. ثم لماذا لا تكون طبيعياً؟ لماذا لا تقول ببساطة: "أحبك". ما الفائدة من المغالاة في ذلك، تلك المغالاة التي ستؤدي بك إلى الانسحاب عاجلاً أم آجلاً؟ وعندما تنسحب منها، فسينهار كل شيء، وسينهار القصر بأكمله، لأنك بنيته على أساس زائف.

الأمر الثاني الذي يجب أن تتذكّره هو أنك كلّما وجدت نفسك تكرر العادة القديمة، فامنح نفسك نكزة لكي تنتبه، وستشعر فجأة بالتغيّر. إذا غضبت مجدداً، انكز نفسك، أو اصفع وجهك، أو اذهب إلى الصنبور واسكب الماء البارد في عينيك. احترس. احذر ولو قليلاً، لاحظ أنك ستدخل مجدداً إلى النموذج عينه. إن الحذر بحد ذاته سيحدث تغيراً.

علماء الفيزياء الآن يقولون شيئاً مذهلاً.

يقولون إنه حتى المادة تغيّر سلوكها عندما تراقبها، لأن المادة في الحقيقة هي عقل أيضاً. على سبيل المثال: تستحم في حمامك الخاص، ثم فجأة تتنبه إلى طفل ينظر من خلال ثقب المفتاح. فهل تظل كما أنت، أم سيطرأ عليك تغيّر مفاجئ. سيتغير كل شي بصورة مفاجئةً! فثمة أحد بالقرب من ثقب المفتاح، فتصبح شخصاً مختلفاً. قبل دقيقة فقط كنت شخصاً مختلفاً. قبل دقيقة كنت تصنع وجوهاً في المرآة.. والآن لم تعد تصنعها. كنت تدندن أغنية.. والآن توقفت الأغنية.

لمجرّد أن طفل، أو أي شخص ينظر ويراقب، فسيدخل عامل جديد: وهو أنك لم تعد وحدك، فثمة مراقب دخل الحمام..

وها هي المراقبة تحدث تحولاً.

كما أن ذلك لا ينطبق على الإنسان فقط، لأن علماء الفيزياء يقولون إن ذلك يحدث حتى مع الأشجار. فإذا كنت تراقب شجرة، فسوف تغيّر سلوكها على الفور: عندما يمر صديق بالقرب منها، فستتخذ الشجرة موقفاً مرحباً، وسعيداً. إنها تتراقص بعض الشيء؛ تناديك: "اقترب أكثر!" كما أن الشجرة لها أعداء أيضاً: كالأطفال، والحيوانات، والبستاني. عندما يقتربون منها حاملين أدوات التقليم، فتشعر الأشجار بالصدمة حتى جذورها، وتخاف، وتنكمش. هذه الأشياء التي أقولها هي اكتشافات علميّة، وليست تخيلات شاعرية، أو اعتقادات فلاسفة، فقد أثبت العلماء هذه الأشياء، وهي أنه حتي الأشجار لها عقول. عندما تراقبها بمحبة، فتكون مختلفة عما إذا كنت تراقبها بشكل حيادي.

عندما تأتي لكي تفتك بها، فتكون مختلفة عما سبق.

بالمراقبة فقط تُحدِث تغيّراً في سلوك الشجرة. كما أن الفيزيائيون يقولون إن الإلكترونات تتغير على الفور عندما يكون هناك مراقب. أجل، الإلكترونات. نحن لا نعتقد أن للإلكترونات حياة، ولا نعتقد أن لديها عقولاً. لكن في الحقيقة لديها حياة، ولديها عقول.

لقد ثبت أن الدين كان على حق بكل تأكيد ضمن العشرين سنة هذه من البحث العلمي: وهي أن كل الوجود حَيٌّ. إنه محيط شاسع من الحياة والوعي. فما من شيء ميّت! حتى الصخور. عندما يغيّر الإلكترون مداره، وسلوكه، وموقفه، فما الذي يُظهِرهُ؟ يا لها من طاقة هائلة تحصل من خلال المراقبة!

عندما تراقب نفسك، يكون قد دخل فيها عامل جديد، بل اهم عامل في الحياة: وهو عامل المراقبة، إذ تتغيّر الأشياء فجأة، فلا يعد بمقدورك تكرير العادة، ذلك أن المادة تحتاج إلى شخص غير واعٍ لكي تتكرر. فعندما يدخل الوعي، تسقط العادة.

يأتي إليَّ الناس ويقولون: "لا نستطيع الإقلاع عن التدخين" "لا يمكننا التوقف عن تناول المشروبات الكحولية. فما ينبغي نفعل؟ فأقول لهم: "لا تحاولوا الإقلاع عنها. اشربوا بوعي، ودخنّوا بوعي. لا تحاولوا التخلّي عن عادتي الشرب والتدخين، لأنكم تحاولون ذلك منذ سنين، وذلك الجهد المبذول أصبح بدوره عادة، ولم يتمخّض عنه شي. دخِّن وأنت بكامل وعيك، وبوعي تأمّلي. دخّن وكن حاضراً. اسحب الدخان إلى الداخل وانت منتبه له وهو يدخل. ثم ازفروا الدخان وأنتم منتبهين لخروجه. سوف تجدون قريباً أن السيجارة قد سقطت من بين أصابعكم من دون أن تتعمدوا ذلك".

بالوعي تسقط العادات. امّا من دون الوعي فسيكون ذلك مستحيلاً تقريباً، والطريقة الوحيد لإسقاط العادة بدون استخدام الوعي، هي استبدالها بعادة أخرى، أو بعادة بديلة، وسوف تفلح هذه الطريقة. إن كنت لا تستطيع التخلّي عن السجائر، فابدأ بمضغ اللبان. والواقع أنك تستطيع التخلي عن مضغ اللبان، وتمضغ شيئاً آخر، لكنك ستقوم بعمل أحمق، إذ لا فرق سواء كنت تدخّن أو تمضغ اللبان. ولكن يبدو أنه لا بد أن تقوم بعمل أحمق؛ لأنك لا تستطيع أن تسمح لفمك بالراحة، فالتوتر موجود في أعماق فمك وشفتيك، وذلك التوتر يخلق العادة. تستطيع استبدال عادة بأخرى، لكن النمط ذاته سيكون موجوداً: مضغ اللبان، أو تدخين السجائر، فلا فرق. لكن أفضل طريقة هي ان تقوم بمصّ إبهامك، مثلما يفعل الأطفال. غير أن ذلك لن يُشعِرَ أحدٌ بالراحة، لأنك ستبدو أخرقاً إذا بدأت فجأة بمضغ ومصِّ إبهامك. إن مضغ اللبان، أو تدخين السجائر، ليس سوى بدائل للكبار، فالأطفال يستمتعون بمصِّ إبهامهم لأنهم ليسوا خائفين من المجتمع. والحقيقة أنك عندما تكبر، فإن الحاجة نفسها ستكون موجودة في مكان ما في فمك: لا بد من مص شيء ما. ربما لم تمنحك أمّك الثدي بمقدار ما أردت، فقد أُخِذَ منك قبل أن تُلبّي حاجتك.

أو ربما كانت أمك تمانع كثيراً في اعطائك ثديها. حتى لو كانت معتادة أن تعطيك إيّاه، فربما كانت تعطيك ثديها بنفور عميق، وما يزال الأثر موجوداً في الأعماق؛ ولهذا لم تكن شفتاك تسترخيان، لأنهما تحملان التوتر، فتُخلق العادة.

والواقع أنك تستطيع أن تتغيّر، لكن ذلك لن يفيد مالم تصبح واعياً. فإذا أصبحت واعياً، فستكتشف التوتّر في شفتيك، ونكتشف النشاط المستمر في فمك: الفم الذي يريد عمل شيء ما. إن المرأة تدخّن أقل من الرجل، خاصّة في الشرق، لأن النساء في الغرب هن أقل ثرثرة. فالنساء في الشرق أقل تدخيناً لأنهن يثرثرن أكثر، وتلك هي عادتهن البديلة. يواصلن التحدّث، بالنشاط ذاته، ومن خلال شفاههن: يكون قد حُرِّرَ التوتر.

سمعتُ ذات مرّة أنه كانت هنالك مباراة عظيمة في الصين: حول من يستطيع قول أكثر شيء لا يُصَدَّق، ومناف للعقل. لقد كانت منافسة عظيمة؛ كان هناك الأفّاقون، والمخادعون، والشعراء، وصنّاع القيل والقال، ومراسلي الصحف.. وكل انواع البشر احتشدوا هناك. أمّا الشخص الذي حصل على الجائزة فقال شيئاً في غاية البساطة: "ذات مرة ذهبت إلى حديقة عامة، وشاهدت امرأتين يجلسن على مقعد واحد بصمت لخمس دقائق". فقال الحَكَم: "هذا هو الشيء الذي لا يُصدَّقُ أبداً". بهذا حصل المتسابق على الجائزة الأولى.

لا بد أن يحدث شيء أو آخر إذا لم تصبح واعياً. عندما تصبح واعياً، وتغدو متوتراً، فلا تفعل أيَّ شيء: فقط كن واعياً للتوتر في فمك، ومن ثم سيعمل الوعي ذاته على تهدئته، ولا حاجة حتى للاسترخاء! فما إن تصبح واعياً بأن هناك توتّر فسوف تسترخِ بالفعل، ذلك أن التوتر لا يكون موجوداً إلا في العتمة اللاواعية، ولا يمكن أن يوجد في نور الوعي.

الأمر الثاني هو أن تصبح أكثر وأكثر وعياً عندما تكرر أنماطك القديمة.

أمّا الأمر الثالث فهو أنك عندما تجد أن هناك شيئاً من التعاسة، فانظر في الداخل دائماً، لأن السبب موجود هناك.

عندما تجد أنك تشعر بالسعادة: انظر في الداخل، فالسبب هناك أيضاً. إذا نظرت إلى الخارج فستجد سبباً زائفاً، ليس سبباً حقيقياً، وإنّما انعكاس لما هو موجود في الداخل. إنه يشبه السينما تماماً: فانت تجلس، وأمامك على الشاشة توجد الصور المسلطة، لكنها في الحقيقة موجودة في الخلف. إنها موجودة في جهاز الاسقاط، وجهاز الإسقاط موجود خلفك، بينما عيناك مركزّتان على الشاشة، أمّا على الشاشة فلا يوجد شيء، لأن الشاشة فارغة، ولا يوجد فيها سوى ضوء وظل يتراقصان، ويكوّنان أشكالاً. لديك جهاز إسقاط في داخلك؛ جهاز إسقاط للنعيم والبؤس، وللجنة والجحيم. لديك إله في داخلك، ولديك شيطان. عندما تشعر بوجود شيطان في مكان ما، فانظر في الداخل، وسوف تجده هناك.

الآخرين هم مجرّد شاشات، إنهم يكشفون حقيقتك لنفسك، وليسوا الأسباب الحقيقية.

والآن انظر إلى هذه النادرة الجميلة:

أعلن المهدي عبّاس – وهو أحد المعلمين الصوفيين العظماء – إنه يمكن التحقق ممّا إذا كان الناس يحاولون مساعدة شخص، أم لا، ومما إذا كان هناك شيء لدى الشخص يمكن أن يُحيط هذا الهدف.

وبما ان هنالك اشخاص معيّنون اعترضوا على هذه النظرية، فقد وعدم المهدي بتقديم البرهان.

لقد حصل ذلك في حالة معيّنة، فقد جاء شخص فقير جداً، ومتسوّل، وعليه دَينٌ كثير، وكان المهدي يساعده، لأنه حتى الملك كان يأتي إلى هذا المعلم الصوفي، وبإشارة من المهدي، كان الملك يزوّد هذا الرجل بكل ما يحتاجه. لهذا السبب أتى

هذا الرجل إلى المهدي. كان يبكي وينحب، قائلاً: "ساعدني! ما عليك إلاّ أن تشير إلى الملك، ومن ثم تزول تعاستي، وإلاّ سأظل عبداً طوال حياتي. بل حتى لو مارست عملاً، فلن أتمكن من سداد ديوني، فهي مستحيلة السداد. كما أنني لدي زوجة وأطفال، وأقرباء، ونحن نعاني كثيراً، ولا نملك ما يكفي من الطعام والثياب".

غير أن المهدي قال له: "إن هذا غير ممكن؛ لا أستطيع أن أقول شيئاً للملك".

تلك هي الحالة.

اعترض اشخاص مُعيَّنون على هذه النظرية...

ذلك أن المهدي قال: "حتى لو تمت مساعدة هذا الرجل، فذلك لن يجعله غنيّاً، لأن ثمة شيء في داخله يثبطه". هناك اشخاص مثل المهدي لا ينظرون إلى سطحك الخارجي. لابد وأن المهدي نظر إلى الداخل، واخترق هذا الشخص. لابد أنه رأى ذلك الشيء الذي يجعله فقيراً أكثر فأكثر، وسيظل فقيراً.

"لا يمكن مساعدته، فالمساعدة لن تكون لها فائدة لأنه يحمل في داخله شيئاً يحبطه". لذلك قال إنه سواء حاول الناس مساعدة شخص أم لا، فإن شيئاً في الشخص سيحبط هذ المسعى. غير أن أناساً معيّنين، من العطوفين، اعترضوا على هذه النظرية.

...وعد المهدي بتقديم البرهان.

قال المهدي: "مهلاً، سأقدم لكم الدليل!".

عندما نسي الجميع هذا الأمر، امر المهدي شخصاً بأن يضع كيساً من الذهب عند منتصف جسرٍ. ثم طلب من رجل آخر أن يأتي بشخص بائس مديون إلى نهاية الجسر، ويطلب منه اجتيازه.

وقف المهدي بصحبة شهوده على الطرف الاخر من الجسر، وعندما وصل الرجل الفقير إلى الطرف الآخر، فسأله المهدي، "ماذا رأيت وسط الجسر"؟

فقال الرجل "لا شيء".

فقال المهدي: "كيف ذلك"؟

أجاب الرجل: "ما إن بدأت بعبور الجسر، حتى جاءتني فكرة انه سيكون أمراً مسلياً ان اعبر وانا مغمض العينين، وقد فعلت ذلك...".

كان كيس الذهب موضوعاً. هناك. ما من أحد كان على الجسر، وقد عبر الرجل الجسر. كان يمكن أن يرى كيس الذهب؛ كان يمكن أن يأخذه، ولم يكن لأحد أن يطالبه به... غير أنه لم يره.

أن مثل هذه الأفكار قد تحصل لك أيضاً، وكذلك قد تفعل الشيء ذاته.

لقد رأيت الكثير من الأشخاص يصلون إلى نقطة يكون فيها كل شيء ممكن على الفور، وبعدها مباشرة تحدث لهم فكرة ما، وأحياناً تكون فكرة مضحكة للغاية، ولا يمكن ان تصدق لماذا تحدث لهم هذه الفكرة: على الفور يغيّرون مسلكهم، ويتوقف

الحدث الذي يكون على وشك الحدوث. إن عقلك ظاهرة معقدة جداً. إنه يستمر بالتخطيط للأشياء.

هذا الرجل كان فقيراً، وكان مديوناً، وكيس الذهب هذا كان أكثر من كافٍ. ولكن فجأة.. وكان قد قطع هذا الجسر مرّات كثيرة ولم تخطر في ذهنه هذه الفكرة من قبل أبداً.. فجأةً قفزت في عقله فكرة أنه سيكون أمراً مسلّياً عبور الجسر بعينين مغمضتين. ربما أنت أيضاً مشيت أحياناً على الطريق وأنت مغمض العينين في صباح يوم لم يكن يوجد فيه أحد، ثم تبرز الفكرة. ولكن عندما تبرز الفكرة، انظر حولك فربما يكون في انتظارك كيس ما من الذهب.

اعتاد رجل أن يأتي إلي. كان رجلاً في غاية الذكاء، وكان محامياً في المحكمة العليا. كلما كان يعد في ذلك الوقت بأنه سيأتي ويبدأ بالتأمل اعتباراً من يوم غد، فكان يحدث شيء ما؛ فقد تمرض الزوجة، أو تكون هناك حالة مفاجئة، وعليه أن يذهب إلى نيودلهي. أو يشعر بخمول شديد عندما يتوجب عليه القدوم في الصباح، فيؤجل ذلك إلى يوم غد.

لقد حدث ذلك مرّات عديدة عندما وعد قائلاً: "إنني قادم، بالتأكيد قادم للتأمّل غداً"، ولكن سوف يحدث شيء. وقد استمر ذلك.

سألته ذات مرّة: "هل سبق لك أن ألقيت نظرة إلى الخلف؟ ... إنك كلما وعدت، فيحدث شيء ما. هل هناك علاقة داخلية بما يحدث؟ تارة يمرض طفلك، أو أن زوجتك ليست على ما يرام، وتارة تشعر بالكسل، وبانخفاض الطاقة.. فهل هناك شيء له علاقة بذلك؟ بما أن هذا قد حدث عدة مرّات، فلا يمكن أن يكون مجرّد صدفة"!

فقال الرجل: "كيف يمكن لهذا أن يحدث"؟ لأنني أنا القادم للتأمل، وليس ابني. ثم إنه لا يعلم بقدومي، حتى أنه لا يدرك أنني ذاهب للتأمّل، إذن كيف يمكن لهذا أن يحدث"؟

لكنك الآن إذا سألت علماء النفس، فسوف يتوصّلون إلى العديد من الاكتشافات. إن العقل ليس فرداً، بل ظاهرة جماعية، فعقلك وعقل طفلك ليسا عقلين، وإنّما عقل واحد؛ فهما يلتقيان في موضع ما. الآن يقول علماء النفس إن الأطفال شديدو الإدراك لأنهم يتسمون بالبراءة. لديهم قدرة كبيرة على الاستقبال إلى درجة أنهم يستطيعون تلقّي أفكار شخص قريب منهم: فإذا اراد والدهم الذهاب إلى النادي، والأم لا تريد ذلك بطبيعة الحال، ولم تقل ذلك، بل ربما هي نفسها لا تدرك أنها لا تريد ذلك، فسيمرض الطفل فجأة، أو يشعر بالغثيان. لقد عثر علماء النفس مصادفة على حقيقة أن الأطفال ببساطة يُظهِرون لا شعور امهاتهم، فإذا مرض الطفل، فلن تسمح الأم للأب بالذهاب.

عندما اخترق علماء النفس العقل البشري تدريجياً، توصلوا إلى أنه لا يمكن معالجة شخص واحد ما لم تعالج العائلة بأكملها، ذلك أن المريض ليس فرداً واحداً، بل الأسرة بأكملها. إن الشخص الذي يظهر عليه المرض هو إلاّ الحلقة الأضعف، وهذا كل شيء. فإذا كانت الأسرة مكوَّنة من أربعة أطفال، ومع الأب والأم تصبح الأسرة ستة أشخاص، فسوف يمرض أضعف فرد في العائلة؛ سوف يصبح عُصابيّاً. إن العائلة بأكملها عصابية، إلاّ أن الآخرين أقوى بعض الشيء، وهو الأضعف بينهم. يمكنك علاجه؛ فإذا أبعدته عن العائلة، فسوف على ما يرام، أمّ إذا أعدته إليها، فسيصبح مريضاً من جديد.

الآن، وضع هذا الرجل صعب جداً، فما العمل؟ لابد من علاج العائلة، ولكن حينها تصبح المسألة أكثر تعقيداً، لأن العائلة تعيش ضمن المجتمع، أو ضمن جماعة، ولابد أن الجماعة بأكملها مريضة، وهذه العائلة هي العائلة الوحيدة الأضعف بين الجماعة. عندئذٍ تصبح المشكلة أكبر: فالجماعة توجد ضمن أمّة، والأمة موجودة على هذه الأرض، والوعي موجود كمحيط شاسع. إذن، لا يمكنك علاج شخص بمفرده، فذلك يصبح في غاية الصعوبة، لأن العديد من الأشخاص الآخرين ساعدوا على أن يكون مريضاً.

كل قرية من قرى الهند لديها شخص ابله خاص بها، وذلك الأبله يساعد أهل القرية برمّتها على البقاء سليمي العقل. ففي طفولتي أقمت في عدّة قرى. لقد عشت مع جدّي وجدّتي في إحدى القرى، وبعد ذلك عشت مع والديَّ في قرية أخرى.

لقد تنقلتُ من قرية لأخرى، وقد أدهشني أن كل قرية كان لديها ابلهها الخاص، وكان لابد من ذلك، لأنه كان أعقل من في القرية. لقد أصبح مريضاً بالعُصاب، ومجنوناً، يصرخ ويبكي في جميع أنحاء القرية، ويجري هنا وهناك، والأولاد الأشقياء يجرون وراءه، ويرمونه بالحجارة. والواقع إن هذا يساعد سكان القرية على البقاء سليمي العقل. فإذا أزلت ذلك الأبله، فسوف يحلّ مكانه شخص آخر على الفور.

في عصور الهند القديمة كان القرويون يعبدون البلهاء، وقد فعلوا خيراً، لأنه كان يؤدّي خدمة عظيمة. كان البلهاء يُعبدون كالقديسين. وكان يطلق عليهم اسم باراماهانساس: أي العظماء الذين بلغوا الهدف. وبالمناسبة فإن هذا كان أمراً جيداً، لأن الأبله كان يخدم القرية بأكملها. فإذا شعرت بالعصبية قليلاً، فيمكن أن تذهب وتلعب مع الأبله، ويمكن أن تفعل أي شيء له، ولا أحد يمنعك.

لدينا في الهند مهرجان مقدّس، وهذا المهرجان مجرّد تنفيس عن البلد برمّته للتخلص من كل الأشياء التافهة، وهذا أمر جيد، فهو يقوم بالتنظيف، والواقع أن هناك حاجة لعدة أيام بسبب وجود الكثير من الأشياء التافهة، إذ لا يكفي يوم واحد، وفي الحقيقة، تحتاج إلى يوم مقدس كل شهر بحيث يتمكن الناس من رمي الحجارة، والقمامة، والألوان، والأوساخ علي بعضهم البعض، واستخدام كلمة من خمسة أحرف: تطهير.

تذكّر دائما أن الوعي هو ظاهرة محيطية شاسعة. إنه في داخلك وخارجك. كما أنه شيء تخاطري، وذو قابلية للاتصال بوعي الآخرين. فإذا راقبته جيداً، فسوف تتوصل إلى استنتاج أن وعيك يضع الحواجز مرات عديدة؛ وحتى لو لم تضعها، فإن لاوعي شخص آخر سيضعها لأنك تريد منه ذلك. فالأب يريد المجيء لكي يتأمّل، ولكن في أعماقه لا يريد المجيء، فيفهم الطفل ذلك بشكل تخاطري، وها هو يمرض في الصباح، فلا يتمكن الأب من الحضور. والآن لديه عذر.

حدث مرّة أن جاء شخص إلى بوذا عندما كان بوذا يحتضر. بقي بوذا يمرّ من قرية الرجل ثلاثين سنة- ثمان مرات تقريباً خلال ثلاثين سنة- ولم يأتِ إلى بوذا أبداً. كان دائماً يؤجّل ويؤجّل مثلما يفعل الناس عادة...

(هناك الكثير من الأشخاص في بونا: عندما غادرت بونا، حينها فقط أدركوا أنني كنت موجوداً بينهم. كنت في جبلبور لعدة سنين، وعندما غادرتها، بدأ الناس في جبلبور بالقدوم إلى موميباي لرؤيتي، وقد شعروا بتعاسة كبيرة، والسبب هو انهم لم يكونوا مدركين لوجودي هناك. لقد قالوا لي إن الناس في بومباي محظوظين للغاية. فقلت: "لا تقلقوا! عندما أغادر بومباي، فسيكونون مثلكم في الحالة ذاتها". ثم تركت بومباي، والآن جاؤوا هنا من بومباي. إن معظم الأشخاص من بين مستمعيّ في بونا كانوا من بومباي. والواقع أنني أكون في بونا فقط عندما أغادر بونا، وليس قبل ذلك...).

.... إذن؛ مرّ بوذا من القرية نفسها ثمان مرّات في ثلاثين سنة.

لقد مكث بوذا في القرية أربعة شهور، طوال فصل الشتاء. لكن الرجل لم يجد الوقت؛ كان منشغل المظهر ولكن من دون أيّ عمل. يدير دكانا يملكه، وعائلة صغيرة يرعاها، وكان دائماً لديه شيء أو آخر يُشعله. ثم جاءه ضيف في الوقت الذي كان يُغلق فيه الدكان، وكان فقيراً جداً، فلم يحتمل أن يترك الزبون ليذهب إلى شخص آخر، لذا كان عليه أن يفتح الدكان من جديد.. وفي ذلك الوقت كانت العظة قد انتهت. لقد حدث شيء من هذا القبيل مرّات كثيرة على مدى ثلاثين عاماً.

بعد ذلك، في اليوم الذي سمع فيه أن بوذا كان يحتضر، اغلق الدكان وهرع إلى خارج البلدة حيث كان بوذا. وهناك أخذ يبكي وينحب لأن بوذا سيرحل، وكان قد القى على الناس آخر كلمة وداع. سأل أتباعه ثلاث مرّات: "هل لديكم سؤال ما"؟ كانوا يبكون وينحبون، ولم يكن هناك من سائل. لقد كانت تملأهم مشاعر الأسى لأن بوذا كان يحتضر. فقالوا: "كلاّ، ما من شيء نسأله، فقد اعطينا كل شيء"، سألهم ثلاث مرات، ثم تواري خلف شجرة، وأغمض عينيه، وبدأ يحتضر. ولأن شخصاً مثل بوذا لا يموت مثلما تموت أنت؛ فهو يترك جسده ويموت طواعية. أمّا أنت فتُرغَمُ على ترك جسدك. أخذ يحتضر ببطء، ثم ترك جسده، وغاص في الداخل؛ ترك عقله، وغاص في الداخل أكثر.

في تلك اللحظة جاء الرجل وقال: "كلاّ! لا تمنعوني. دعوني أذهب إلى بوذا".

فقال أناندا: "إنني أعرفك. لقد مررنا من قريتك لثلاثين سنة بشكل مستمر، مرّات كثيرة. مررنا ثمان مرّات تقريباً، وقد تحدّث بوذا في قريتك، فأين كنت آنذاك"؟

فقال: "ماذا يمكنني أن افعل؟ أحيانا كان طفلي مريضاً؛ وأحياناً كانت زوجتي حامل، وأحياناً يأتي زبون، وأحياناً يأتيني ضيوف فجأة. فلم أتمكن من المجيء، والآن، لا تمنعني بعد أن أتيت".

فقال أناندا تابع بوذا: "لقد فات الأوان، ولا نستطيع أن نطلب منه العودة. لقد دخل في الموت فعلاً".

غير أن بوذا عاد إلى جسده بعد أن سمع ذلك، وقال: أناندا، لا تمنعه، وإلاّ ستبقى لطخة سوداء على رحمتي، بأنني لا زلت حيّاً، ورجل طرق بابي ولم أساعده".

كان بوذا محقاً في رحمته، وكذلك المهدي. لا يمكنك أن تساعد شخصاً يقف ضد نفسه، فثمة شيء في داخله سوف يُحبط المساعدة.

سأله بوذا: "ما الذي تحتاجه؟ ما هو سؤالك، وعن ماذا تبحث؟

لقد سأل الرجل عدة أسئلة، وبوذا ساعده. غير أن أحداً لم يسمع عن الرجل شيئاً، وماذا حدث له؟ لم يصبح مستنيراً. عاد إلى دكانه، وإلى نفس الزبائن، وإلى طفله وزوجته، وإلى البلدة نفسها. وكل ما في الأمر أنه أصبح أكثر معرفة بعض الشيء.

إن رحمة بوذا لا تساعد كثيراً. إنه لأمر جيد أن بوذا كان رحيماً، لكنك لا تستطيع مساعدة شخص يقف ضد نفسه.. فثمة شيء سيحبط هذه المساعدة. لقد كان سعيداً جداً في أن بوذا اجاب على أسئلته، وهذا كل ما في الأمر. كان يمكن أن يجمع تلك المعرفة من الكتب المقدسة، أو من الأتباع. ولكن حتى هذه المعرفة العظيمة، وهذه النعمة الكبيرة، كانت عديمة الجدوى، فبقي على حاله.

أجاب الرجل، "ما إن بدأت بعبور الجسر حتى خطرت في ذهني فكرة أنه سيكون أمراً مسلياً ان اعبر الجسر بعينين مغمضتين، وقد فعلت ذلك..".

تذكّروا الاّ تفعلوا ذلك. أنتم الان معي، ويمكن عمل الكثير. يمكن القيام بكل ما هو ممكن، فلتراقبوا فقط ذلك الشيء الموجود في داخلكم، والذي يمكن أن يحبطكم. أنتم أنفسكم قد تضحكون من مثل هذا الأمر التافه؛ فبسبب التوافه الصغيرة، يمكن أن تفوتوا الفرصة، وأنتم تعلمون ذلك لأنكم في المحنة نفسها، والتي هي أشياء صغيرة جداً.

تطلبون موعداً اليوم، لكنه لن يُعطى اليوم، وإنّما غداً، فتشعرون بالغضب. تستطيعون تركي، ولكن ما هذا الذي تفعلونه؟

ولأجل ماذا؟ هل المسألة كما لو أنكم تبحثون عن عذر لتتركوني؟ إنني أعرف أفضل منكم متى ينبغي أن تروني: عندما تكونون سلبيين، فتريدون رؤيتي على الفور. غير أن ذلك ليس الوقت المناسب، لأنكم عندما تكونون سلبيين، فيمكن أن تحصلوا في أحسن الأحوال على تعاطفي. أمّا عندما تكونون إيجابيين، فعندئذٍ فقط تحصلون على محبّتي، لأنه لا يمكن أن تُعطى المحبة للعقل السلبي. العقل السلبي لن يستقبل المحبة. إنكم دائماً تأتون عندما تكونون سلبيين. عندما تشعرون بالكآبة والإحباط الوهن، فتسعون إليَّ على الفور، أما عندما تشعرون بالحيوية، فتنسوني. عندما تشعرون بالخير والسعادة، فمن يحتاجني حينها؟ ما من شك في ذلك.

تذكّروا هذا: عندما أقوم بتأجيل المواعيد، فذلك لأني أعرف تماماً أن الوهن لن يستمرّ إلى الأبد. الوهن موجود اليوم، أمّا غداً فلن يكون موجوداً. لا أحد يصيبه الوهن إلى الأبد، فهذه الأشياء تأتي وتذهب. المزاجات تأتي وتزول. أريدكم أن تأتوا إلى فقط عندما تكونوا إيجابيين، حينها فقط يمكن أن يُعطي لكم شيء ما. وهذا هو الفرق بين الدين والعلاج النفسي. إنك تذهب إلى طبيب نفسي عندما تكون سلبياً، ومريضاً، وعندما لا تكون في هيئة سليمة. إنك تذهب إلى الطبيب عندما تكون مريضاً، وسيعيدك إلى الحالة الصحيّة. غير أنك تذهب إلى شخص متديّن عندما تكون بصحة جيّدة لكي يمنحك صحة أفضل. إنك تذهب إلى شخص متديّن عندما تكون إيجابياً تماماً، وعندما تشعر بالبهجة والسعادة، حينها يمكن أن يقودك إلى أرقى العوالم.

إن المجيء إليَّ لا يكون طلباً للصحة فقط، بل لأجل صحة أكثر من الصحة العادية؛ ليس لأجل السعادة فقط، بل لكونك سعيداً. ليس لأجل الصحة، بل لكونك معافاً. بيد أن الأشياء الصغيرة يمكن تسبب الإحباط.

جاءت إلى راهبة منذ بضعة أيام فقط، وقالت إنها تريد المغادرة.

فسألتها: "ماذا حدث"؟

فقالت: "أراد متسوّل رؤيتك فرُفِضَ من الباب. لا أستطيع البقاء هنا. لماذا رُفِض ذلك المتسوّل"؟

الآن كانت مستعدة للمغادرة، فهل تركها لي سيفيد المتسوّل في أي حال من الأحوال ثم من تكون هي حتى تقرر من يُسمح له بالدخول، ومن لا يُسمح له؟ القرار يعود لي. إن المتسوّل أتى لأجل أشياء صغيرة، وهذه الأشياء يمكنه الحصول عليها من أي مكان. إنني لا أسمح إلاّ للمتسولين العظماء بزيارتي: للذين جاؤوا يطلبون الله، وليس أقل من ذلك. ثم من تكون أنت حتى تقرر في هذه الأشياء؟ بيد أنك تصبح غاضباً، وبالغضب تتمكن من المغادرة. المتسوّل سيبقى متسوّلاً، ولن تتم مساعدته بتركك لي. غير أن شيئاً في داخلك حاول خداعك. وثمة شيء سوف يحبطك باستمرار، وفي كل مكان، وأينما تذهب. وذلك الشيء الذي في داخلك سوف يجد الأعذار دائماً.

تذكر دائماً أنك هنا لأجل نفسك، وليس لأجل شخص آخر. ذلك ليس من شأنك. إن القرار يعود لي بشأن من يُسمَحُ له بالدخول، ومتى يُسمَحُ له، وكذلك من يُرفَضُ، ومتى يُرفَض. ذلك أنه أحياناً تكون هناك حاجة لأن يُرفَض الشخص، وأحياناً تكون هنالك حاجة لأن يُرفَض عدة مرّات. ولكن في حالتك العقلية لا تستطيع فهم ذلك. في الحقيقة لست بحاجة إلى هذا، ولكن لا تجد الأعذار، لأن تلك الأعذار ستكون انتحاراً بالنسبة لك.

الفصل السابع:
المعرفة خطيرة

إن الإنسان الحر بالفعل هو شخص تجاوز الخير والشر، والخطيئة والفضيلة

ذهب رجل إلى طبيب وقال له ان زوجته لم تنجب أطفالاً.

شاهد الطبيب المرأة وفحص نبضها وقال: "لا أستطيع معالجتك بشأن العقم، لأنني اكتشفت أنك ستموتين على اية حال في غضون أربعين يوما".

عندما سمعت المرأة ذلك، قلقت كثيراً إلى درجة انها لم تأكل شيئاً خلال الأربعين يوماً التالية.

لكنها لم تمت في الوقت المتوقع، وبالتالي تحدث الزوج بهذه المسألة مع الطبيب الذي قال: "نعم كنت اعرف ذلك، والان ستكون خصيبة".

فسأله الزوج كيف حصل ذلك.

فقال الطبيب: "زوجتك كانت سمينة جداً، وهذا يوثر على خصوبتها. كنت اعرف ان الشيء الوحيد الذي يبعدها عن الطعام هو الخوف من الموت، ولهذا السبب تعافت الان.

إن مسألة المعرفة امر خطير جداً.

أجل، إن مسألة المعرفة هي مسألة خطيرة جداً، وذلك لعدة أسباب:

السبب الأول هو أنه عندما يعرف المرء، فهو يعرف أيضاً تعقيدات الحياة. عندما يعرف المرء، فهو يعرف أيضاً الطرق الغامضة التي تعمل الحياة من خلالها. بالتالي فإن المسألة ليست مسألة تأكيد حقيقة ما. السؤال الجوهري هو كيف تقود شخصاً ما إلى الحقيقة. أحياناً تُستَخدَمُ الأكاذيب لأنها تساعد، وأحياناً لا يمكن استخدام الحقائق لأنها معيقة.

إن كل المعلمين العظماء، هم كذّابون عظماء. وهذا الأمر يصعب تصديقه؛ ولكن عندما أقول ذلك، فأنا أقوله ببالغ الاعتبار، وأعرف لماذا.

إن المسألة الجوهرية لا تكمن في إخبارك بالحقيقة، وإنّما في كيفية إرشادك إليها.

سأل أحد الأشخاص بوذا: "ما هي الحقيقة؟ فقال بوذا: "تلك التي يمكن الاستفادة منها".

هذه ليست تعريفاً للحقيقة، لأن الأكاذيب يمكن الاستفادة منها أيضاً. بيد أن بوذا كان مُحِقاً. فإذا كان لشيء أن يساعدك، وقد يكون خيالاً، لكنه إذا كان يساعدك ويرشدك إلى الحقيقة، فهو صحيح. وأحياناً يكون الأمر خلاف ذلك: إنك تعرف الحقيقة، لكنها تصبح معيقة، وتقودك إلى التشوّش أكثر فأكثر، وإلى الظلمة. لذلك فإن المحصلة النهائية النتيجة النهائية، هي التي ينبغي أن تكون الفيصل.

حدث ذات مرّة أن شعر أحد المعلمين الصوفيين بالظمأ. كان محاطاً بأتباعه. فطلب من ولد صغير، كان أيضاً يجلس ويستمع له، بأن يذهب إلى البئر. أعطاه قدراً فخارياً وقال له: "كن حذراً! القدر مصنوع من التراب، لكنه ثمين للغاية. إنه قطعة أثرية، فلا تُسقطها، ولا تكسرها". بعد ذلك صفع الولد على وجهه بقسوة مرّتين أو ثلاث وقال له: " الآن اذهب"!

الناس الذين كانوا يجلسون هناك لم يصدّقوا ذلك. فسأله شخص طيب القلب: "ما الذي تفعله؟ إن هذا لأمر سخيف! لم يُخطئ الولد بشيء. لم يُسقِط القدر، ولم يكسره. إنه لم يفعل شيئاً، وأنت تعاقبه".

فقال المعلّم الصوفي: "نعم أعرف ذلك، ولكن إذا أسقط القدر، فما فائدة العقاب حينها"؟

المعلم الصوفي يقول: في الحياة، لا تعقب النتيجة السبب دائماً. فأحياناً السبب يعقب النتيجة؛ أحيانا النتيجة تسبق السبب. إن الحياة معقدة، فبعض الأحيان يأتِ المستقبل أولاً، ثم يأتِ الماضي. ليس دائماً يأتي الماضي اولاً، وبعد ذلك يأتي المستقبل.

الحياة ليست بسيطة مثلما تظن، بل صعبة ومعقدة، فالماضي والمستقبل يجتمعان فيها، وذلك الذي كان، لا يزال موجوداً بطريقة أو بأخرى، إذ كيف يزول؟ إن كل ما كان في الماضي، لا يزال موجوداً! الماضي كله موجود في هذه اللحظة بالذات، وهذا يعني ضمنياً ليس ماضي البشرية فحسب، بل ماضي الكون برمته. إن أمك وأباك، ووالد والدك، وجده، وجد جده، وآدم وحواء، كلهم متضمنون فيك. ثمة شيء منك كان موجوداً في آدم وحوّاء، وهم موجودون فيك كلّياً. إن الماضي بأكمله موجود، وكذلك المستقبل بأكمله. إنك تحمل كل ما سيحصل في العالم، وفي الكون، كإمكانية.

أنت العالم بأكمله، بأسبابه ونتائجه، بماضيه ومستقبله.. لقد اجتمع كل شيء فيك. بل إن كل خطوط الوجود تتقاطع فيك.

إن مسألة المعرفة هي مسألة خطيرة. عندما يعرف الإنسان، فهو يعرف هذا التعقيد. وكلما فعل شيئاً، فعليه أن يراعي التعقيد بكامله، وإلا سوف يخطئ الفهم، ولن يكون شخصاً مفيداً.

لهذا أقول إن كثيراً من الأشخاص أصبحوا مستنيرين، ولكن المعلمين قليلون للغاية؛ والسبب هو أنك لكي تصبح مستنيراً، فعليك أن تحل مشاكلك فقط، وعندما تصبح مستنيراً، فيصبح من الصعب جداً التعامل مع هذا المحيط الشاسع من المعرفة، ومساعدة الآخرين. بعض الأحيان يعتقد الذين لا يدركون خطر هذه المعرفة أنهم يساعدون، لكنهم في الحقيقة يخربون. ربما يعتقدون أنفسهم أنهم لطفاء، لكنهم ظلفاء خشنون. ربما يعتقدون أنهم يُخرجونك من التشوّش، لكنهم في الحقيقة يقذفون بك إلى المزيد من التشوّش.

لقد حدث ذلك مرّات عديدة، حتى مع الأشخاص المستنيرين. ان الهوة كبيرة، والتعقيد شديداً، لكنك عندما تقول شيئاً لشخص ما، فيصبح الأمر بسيطاً. ذلك أنه يترتب عليك أن التقليل من شأنه، وتحويله إلى ظاهرة بسيطة، وبالتالي يضيع معظمه، وبعدها قد يصبح عديم الفائدة.

على سبيل المثال: كريشنامورتي، وهو شخص مستنير؛ إذا كان لشخص أن استنار من قبل، فهو المستنير. بيد أن التعقيد هائل، وقد اختصر المسألة برمتها إلى صيغة بسيطة للغاية، بحيث ضاعت الأحجية. لقد بدا كأنه شخص منطقي، ويناقش بشكل عقلاني: فضاع اللغز. لقد كان يكرر صيغاً مُعَيَّنة، لم تساعد أي شخص. لقد ضُلل كثيرون من خلاله، ولم يقدّم أيّ مساعدة لأحد: لأنه كان ذا موقف متصلّب للغاية، في حين أن الحياة مرنة. صحيح أن المرء أحياناً يتوصل إلى الحقيقة من دون مساعدة أيّ معلّم، لكن العكس صحيح أيضاً: فأحياناً يتوصل المرء إلى الحقيقة ليس بمساعدة معلّم واحد فقط، وإنما بمساعدة الكثير من المعلّمين، صحيح أنه بمقدورك أن تتقدم لوحدك، لكن العكس صحيح أيضاً، وهو أن تتقدم داخل مجموعة، أو في مدرسة، أو داخل أسرة من الباحثين. صحيح أن المرء يمكن أن يصل إلى النهاية دون اتباع أي منهج، لكن العكس صحيح أيضاً ولكن عندما يكون الأمر مع أشخاص لديهم موقفاً منطقياً للغاية تجاه الحياة، فيصبح ذلك صعباً، لأنهم يقسّمون الحياة الي نعم، أو لا. فهم يقولون: "إمّا أن تقول نعم، أو تقول لا".

ربما سمعت باسم المفكّر الغربي دي بونو (Edward de Bono) هذا الرجل لديه شيء جميل يقوله لكل شخص: فقد صاغَ كلمة جديدة هي "بو po". هذه الكلمة لن تجدها في أيّ قاموس، لأنها كلمة جديدة. إذ يقول: "هناك حالات إذا قلت فيها نعم، فستكون مخطئاً، وإذا قلت لا، فستكون مخطئاً أيضاً، ذلك أن هناك حالات عندما تحتاج فيها لأن تكون في الوسط، فتقول: "بو". إنها كلمة لا تعني نعم، ولا تعني لا، بل تعني الإثنين معاً، ففي العادة إمّا أقل من نعم أو لا، أو أكثر من نعم أو لا. في حين أن "بو" – وهي الكلمة التي لا يمكن تقسيمها. تعني نعم +لا.

هناك حالات: إذا سأل شخص ما سؤالا معيّناً تكون معنيّاً فيه بشكل كبير: "هل تعتقد أنك تحبّني؟ فسوف يكون من الصعب الإجابة عليه لأنك لست متأكّداً مئة بالمئة ممّا إذا كنت تحبه أم لا. فإذا قلت نعم، فأنت تتفوه بكلام خاطئ، فمن هو الذي يستطيع أن يقول نعم؟ فقط الشخص الكلي هو من يستطيع قول نعم بكامل كيانه الذي يقبع خلف الكلية. فكيف يمكنك أن تقول نعم؟ لأنك في اللحظة التي تقول فيها نعم، فإن جزءاً منك مازال يقول لا. إذن تريّث، ولا تقرر. هناك تشوّش: فجزء من عقلك يقول: "لا أعرف ما إذا كنت أحب أم لا". وإذا قلت لا، فذلك سيكون خاطئاً ايضاً، لأن جزءاً منك سيقول نعم. إنك دائماً جزء، ولست كلاً. إن كلمة "بو" هي كلمة ملائمة: فعندما يسألك شخص مرّة أخرى: "هل تحبني"؟ فقل له: "بو"، فهي تعني نعم ولا في آن معاً: جزء معيّن منّي يحبك، وجزء آخر لا يحبك".

كان ملا نصر الدين في محكمة، حيث كانت هناك قضية ضدّه، لأن زوجته أبلغت المحكمة بأنه كان يضربها. فإن سأله القاضي: "هل كنت تضرب زوجتك"؟ فبإمكانه أن يقول نعم، أو يقول لا.. مهما كانت الحالة. لكن القاضي سأله: "ملا نصر الدين، هل توقفت عن ضرب زوجتك"؟ فإن أجاب بنعم، فهذا يعني أنه كان يضربها من قبل. وإن قال لا، فهذا يعني أنه لازال يضربها.

لذا هرع إليّ بعد أن قال للقاضي: "امنحني قليلاً من الوقت؛ سأجيبك غداً".

عندما أتى إليّ فقلت له: "عليك أن تقول: بو".

فسألني: "ما هي هذ البو"؟

فقلت: "هذه مشكلة القاضي. دعه يقرر ما هي بو. قل له ذلك بكل بساطة".

إن كل لغة في العالم تنقسم إلى نعم ولا، وإلى أسود وأبيض، لكن الحياة رمادية، وهذه ال بو تعني أن الحياة رمادية؛ فمن جهة تكون سوداء داكنة، ومن جهة أخرى تكون بيضاء، ولكن ما بين الطرفين تماماً توجد الموجات الرمادية.

ثمة مصيبتان وقعتا على العقل الغربي: الأولى هي أرسطو، لأنه قدم لك موقفاً منطقياً تجاه الحياة، وهو موقف مُضلّل. لقد قدم لك إمّا نعم أو لا، وذلك بقوله: "لا يمكن أن يصحّا كلاهما معاً. في حين أنهما دائماً يصحّان معاً. إن الأول لا يمكن أن يصح من دون الآخر، لأن الحياة هي كليهما: الليل والنهار، الصيف والشتاء، الله والشيطان. إن الحياة كُلٌ مُجتمِعٌ، لا تنفصم. وعندما يتوصل الإنسان إلى إدراك هذه الوحدة للحياة، فسيصبح من الصعب جداً أن يصح ما يقوله، أو ما لا يقوله فيها. إنه مهما يقول فيها فسيكون كلاماً مُضلّلاً، لأن اللغة لا تسمح إلاّ بنعم أو لا.

المصيبة الثانية التي وقعت على العقل الغربي هي صلب المسيح. فبسبب ذلك الصلب، أصبح العقل الغربي برمته مشوّشاً. فأرسطو قسم الحياة إلى قسمين، ثم جاء صلب المسيح ليقسم القلب إلى قسمين. فإذا كنت مسيحيّاً، فاذهب إلى الجنة؛ وإذا لم تكن، فاذهب إلى الجحيم. إذا كنت مسيحياً: عندها فقط تكون إنساناً، وإذا لم تكن مسيحياً، فلا أحد يكترث بأمرك. ويمكن أن تُقتَل بكل سهولة، فلا حاجة لأن تفكّر مرتين بشأن ذلك.

ان عملية الصلب قسَّمت القلب، وهو الجزء العاطفي للإنسان. لقد ارتكبت المسيحية الكثير من العنف، ما لم يفعله دين من قبل بهذا الحجم، وذلك بسبب صلب السيد المسيح.

لهذا السبب قُتِلَ اليهود على مدى ألفي سنة متواصلتين، فقد أصبحت المسيحية حرباً صليبية ضد اللامسيحية، وضد الوثنية. لقد قُسِّمَ الحب، وقُسِّمَ القلب، وقُسِّمَ العقل، بل أصبح الغرب كله فصامياً، منقسم الشخصية.

إن كل ما تسعى إليه الصوفية هو كيف تجعلك واحداً، بحيث تختفي كل التقسيمات، وبحيث يكون قلبك واحداً، وعقلك واحداً، وحدة كلّية. وليس هذا فحسب، بل أن تجعل أيضاً عقلك وقلبك واحداً، وحدة كلّية. عندئذ تصل إلى ما هو حقيقي.

ولكن الآن، كيف يمكن مساعدتك على التوصّل إلى ما هو حقيقي؟ ستكون هناك حاجة لأجهزة، لأن مجرّد الحديث عن الحقيقة لن يفيد، وهو لم يُفِد من قبل، لا بل كان معيقاً. إذا قيلت لك الحقيقة، فسوف تصبح عقيدة، والعقيدة معرقِلة. سوف تصبح الحقيقة نصاً مقدساً، وتقليداً، والتقليد شيء مضلل.

الحقيقة لا يمكن أن تُقال بشكل مباشر، فثمة شيء ينبغي عمله لكي تتقدم تدريجياً نحو الحقيقة. يجب أن تُنقل المعرفة بطريقة غير مباشرة للغاية، لأن المعرفة لا يمكن أن تكون مباشرة؛ يجب تنميتها بشكل تدريجي في داخلك من خلال حالات معيّنة. وبالطبع، بما أنك شخص مزيّف، فأن الحالات المزيّفة هي التي ستساعدك فقط، أمّا الحالات الحقيقية فلن تكون مفيدة.

والواقع أنك شخص مزيّف، وتفهم لغة التزييف، وبالتالي تحتاج لأن يكون الوضع المزيّف حولك باستمرار، لكي يرغمك على التوجه نحو نافذة معيّنة حيث يمكنك رؤية السماء.

على سبيل المثال: تعيش في منزل مقفل، ولم تخرج منه أبداً، ولم ترى الشمس، ولم تسمع صوت الطيور، ولم يمسسك النسيم الذي يعبر الأشجار. لم تخرج قط وترى الأزهار، والمطر. لقد عشت في منزل مغلق، مغلق بالكامل، لا توجد حتى نافذة مفتوحة. ثم جئت إليك، وأريدك أن تخرج وتغنّي مع الطيور، وترقص مع النسيم، وتكون كالورود المتفتّحَة، المتفتّحَة نحو اللانهائي. ولكن كيف اخبرك عن العالم الخارجي؟ لا توجد لغة. إذا تحدثتُ عن الأزهار فلن تفهم، وستقول: "الأزهار"؟ ماذا تعني بكلمة أزهار؟ اثبت لي أولاً أن الأزهار موجودة". كيف يمكن إثباتها إذا لم تكن قد عَرفتَها؟ ثم إنه مهما فعلتُ لإثبات وجودها، فيمكنك دحضها، ويمكنك أن تجادل في ذلك. فالأشخاص الذين عاشوا في عالم مغلق هم دائماً اشخاص جداليون. وكلما كان العقل مغلقاً، كلما كان أكثر مجادلة، لأنه لم يعرف أي شيء يتجاوز الحجة والمنطق والاستنتاج. إن

العقل محصور، لأنك عشتَ في الظلمة، فكيف أحدثكَ عن النور، وعن شروق الشمس واشعتها؟

والحقيقة أنك لست وحدك في الظلمة، فكثيرون يعيشون معك في الظلمة. غير أنني الوحيد هنا الذي يتحدث عن الأزهار، والنور، والعالم في الخارج، وعن السماء المفتوحة. ولستَ الوحيد الذي سيضحك من هذا الأمر، وإنما ستضحك الغالبية العظمى، وتعتبرني مجنوناً.

سوف تسألني: "ما الذي تقوله؟ لابد أنك تحلم. إنها أوهامك. لا يوجد عالم في الخارج. هذا هو العالم الوحيد، ولا يوجد عالم آخر. عن ماذا تتحدّث"؟ لكن البعض منكم لابد أن يعتقدوا أن لدي مخطط، أو مؤامرة ما، لكي آخذكم وأسلب منكم شيئاً: "بما أنه لا يوجد عالم في الخارج! فلماذا يحاول هذا الرجل باستمرار ان يثبت أن هناك عالم في الخارج؟ لابد أن هناك دافع ما للربح وراء ذلك، فلا تنخدعوا بهذا الرجل".

في الحقيقة، هكذا تصرّفتم مع السيد المسيح، ومع النبي محمّد، ومهافير؛ وهكذا تتصرفون مع الذين يجلبون لكم الأخبار الجيّدة من عالم آخر ما، وممن كانوا رسلاً لشيء مجهول بالنسبة لكم. والواقع أن الغالبية معكم؛ إذ يمكنكم اجراء تصويت، وتقرروا ما هو صحيح، وما هو غير صحيح.

غير ان المشكلة هي: بأي لغة أتحدث إليكم، وبأية أمثال، وما هي الرموز استخدمها؟ بيد أنه مهما قيل لكم، سيساء فهمه، لأنه لا يمكن فهم شيء إلاّ عندما تكون التجربة الأساسية موجودة. لو أتيحت لكم ولو لمحة صغيرة عن العالم في الخارج، لمحة واحدة فقط، بل حتى لو نظرتم من ثقب المفتاح، عندها ستكون هناك إمكانية للفهم، ويصبح الاتصال والتواصل ممكناً. لكنكم لم تنظروا مطلقاً، بل حتى لم تحلموا، أو تتخيّلوا أن العالم الخارجي دخل فيكم.

إنك منغلقَ بالكامل، فما العمل؟

سوف أضطر لاستخدام أداة ما، والأداة ليست حقيقية ولا زائفة. إنها أداة "بو"، حيث لا يمكن أن تقول نعم، ولا أن تقول لا. كما سأضطر لاستخدام لغتك وحالتك، وسأضطر للتحدّث إليك باستخدام مصطلحاتك، إذ لا جدوى من الحديث عن الأزهار، لأنك لا تعرفها، ولا جدوى من الحديث عن السماء، لأنك لا تعرفها. لقد نسيتَ تماماً أن لديك أجنحة.

وكمثال على الأداة، أستطيع أن أخلق انفعالاً في داخلك: "هذا المنزل سوف ينهار، فاخرج منه بأسرع ما يمكنّك! الوقت يمضي! وسوف يسقط هذا المنزل". هذا ما فعله السيد المسيح، وهذا ما قاله: "العالم سينهار! الوقت يمضي، والنهاية قريبة...إنه يوم الحساب".

لم يأت يوم الحساب بعد، فقد قال المسيح لتلامذته: سيأتي يوم الحساب قبل أن تموتوا، لذا حوّلوا أنفسكم.. غيروا أنفسكم، وتوبوا! لأن الوقت ينفذ، والمنزل آيل للسقوط. إنه يحترق بالفعل، أفلا ترون"؟ فما الذي يقصده المسيح؟

في الحقيقة لا تستطيعون فهم لغة الحرية، وإنّما تستطيعون فهم لغة الخوف. الحرية لا يمكن أن تقال لكم، بل الخوف. أجل، إنكم لا تستطيعون فهم لغة الحرية. تستطيعون فهم لغة الموت، ولا تستطيعون فهم لغة الحياة. لهذا يقول لكم إن يوم الحساب قريب.

كما أن المسيح يقول: هناك حياة واحدة فقط، إن خسرتموها، فقد خسرتموها إلى الأبد. لهذا السبب لم يستخدم المسيح وسيلة التقمّص الهندية.

جميع الأديان الثلاثة التي ولدت في الغرب، كاليهودية، والمسيحية، والإسلامية لم تستخدم وسيلة التقمّص، في حين أن الأديان التي ولدت في الشرق كالبوذية، والهندوسية، واليانية، والسيخية، كلها استخدمت هذه الوسيلة. الحالتان كانتا مختلفتان، لذا سأقول لكم لماذا استخدموا تلك الوسيلة. عندما يأتي إلى الناس ويسألونني: "هل التقمّص معتقد صحيح؟ فأقول: "نعم ولا". إنه ليس صحيحاً ولا زائفاً. التقمّص وسيلة لمساعدة الناس. حاولوا أن تفهموا المسألة: الأديان في الشرق والغرب هما وسائل تقودكم إلى النقطة ذاتها، وإلى الحالة العقلية ذاتها، وبالتالي فإن كل الأديان –في الشرق والغرب- صحيحة لأنها تساعد الناس. إنها معتقدات واقعية، ويمكنكم الاستفادة منها، وقد تم الاستفادة منها سابقاً.

يقول المسيح: "هذه هي الحياة الوحيدة"، لكي يخلق الانفعال والخوف. لأنه لو قال: هناك عدة حيوات، فسوف تسترخِ وتقول: "إذن لا داعي للعجلة، فهذا الجسد لن ينهار في حياتي، وستكون هناك حيوات أخرى، فلماذا العجلة إذن"؟ تستطيع أن تؤجّل، فإذا كانت هناك الكثير من الحيوات، فهذا يعني أن هناك الملايين من الفرص، إذن لماذا نكون في مثل هذه العجلة؟ لماذا لا نستمتع بهذا الجسد، وبهذه الظلمة قليلاً؟ يمكننا الخروج في أيّ وقت. سيكون الجسد موجوداً، ونكون موجودين. الباب سيكون موجوداً، والخارج لن يزول". في الحقيقة تستطيع التأجيل.

لكن المسيح أسقط التأجيل، فقد قال: "هناك حياة واحدة فقط، وهي هذه الحياة لا غير. وهذه الحياة ستهرب من بين يديك، ومن بين أصابعك. إنك تموت لحظة تلو أخرى، وقريباً، في هذه الحياة، وقبل أن تأتيك المنيّة، سيأتي يوم الحساب، وتحاكم على آثامك، وتُعاقَب. أمّا هؤلاء الذين معي، فسوف ينجون"! فما الذي يقصده المسيح؟

إنه يقول: "تعالوا معي. كونوا معي". إنه يحاول إخراجك من منزلك. سوف ينقلك إلى الخارج، فإذا وثقت به، وإذا أصبحت خائفاً جداً، فقد خلق الاضطراب لديك إلى حد ما، وأحدث فيك الخوف، والارتعاش. وفي ذلك الخوف يتبعه الناس.

ما إن تتبع المسيح، فقد خرجت، رغم أنك تعلم أنها خدعة. لقد غُرر بك، لكنك عندئذٍ لن تغضب، بل ستكون ممتناً، لأنها الطريقة الوحيدة لإخراجك، فقد كنت مزيّفاً إلى درجة أنه حتى المسيح كان عليه أن يستخدم كذبة لكي يُخرِجَكَ. غير أنك ما إن تخرج، فتنسى كل شيء يتعلق بيوم الحساب، والرب، والمملكة، وتسمى الموت والخوف. ما إن تخرج إلى العالم المفتوح:

من سماء، ونسيم، وشمس مشرقة، فسوف تحتفل، وتبتهج، وتشعر بالامتنان إلى الأبد تجاه المسيح، لأنه كان رحيماً للغاية، ولأنه استخدم أيضاً كذبة لكي يُخرِجَكَ.

في الهند علينا أن نستخدم وسيلة أخرى لأسباب محددة.

إن الهند بلد قديم جداً، وهو أقدم بلد في العالم. إنه موجودة منذ آلاف السنين. أمّا الغرب فحديث العهد جداً. عندما تتحدث إلى شخص كبير في السن، فعليك أن تتحدث بشكل مختلف؛ وعندما تتحدث إلى شاب، فعليك أن تتحدث بشكل مختلف عما تتحدث به مع كبير السن، ذلك أن مواقفهما قد تغيّرت تماماً. الشاب ينظر دائماً نحو المستقبل، والعجوز ينظر دائماً إلى الماضي، لأنه لا يوجد مستقبل بالنسبة للعجوز؛ إذ لا يوجد سوى الموت، وبالتالي لا يوجد مستقبل. إن العجوز يتطلع نحو الماضي، لأنه لا وجود سوى للماضي بالنسبة له.

مع تقدمك في العمر، يكبر الماضي أكثر فأكثر، والمستقبل يتضاءل تدريجياً. أما بالنسبة للطفل فلا يوجد ماضٍ، بل مستقبل وحسب. إذا تحدثت مع طفل، فعليك أن تتطلع نحو المستقبل لهذا السبب يستمر المسيح بالحديث عن مملكة الرب القادمة، حيث المستقبل، والحياة الوفيرة.

أمّا في الهند، فذلك الحديث لم يكن مفيداً على الإطلاق، لأن الناس أصبحوا هرمين للغاية، بل العقل برمّته أصبح هرماً للغاية، إلى درجة أنك لا يمكن أن تنخدع بكلمات مثل "مملكة الرب". لقد عاشوا أكثر من اللازم، ولا يمكنك إغراءهم بالمزيد من الحياة. لقد شعروا بالملل، وانتهوا من الحياة، ولا يمكن أن تقول لهم إن وفرة الحياة ستكون هناك. سوف يقولون: "لقد كان هذا الكثير أكثر من اللازم! فماذا سنفعل بوفرة الحياة"؟ كلاّ، إن العقل الشرقي يريد التحرر من الحياة ومن الموت في آن معاً. إن الشرق أصابه الممل، مثل أي عجوز يصيبه الملل. لقد بحث في كل بعد، ووجد أن كل شيء كان عقيماً، وغير مثمر.

العقل الهرم هو عقل أصابه الملل. والشرق ضجِرَ من الحياة، ولا يمكن أن تعِدَه بمزيد من الحياة، لأن ذلك لن يكون وعداً، وإنّما سيبدو اشبه بالعقوبة. لهذا نستخدم في الشرق وسيلة أخرى مختلفة كلّياً، وهذه الوسيلة هي: دولاب الحياة والموت.

في الشرق نقول إنك ولدت ملايين المرّات – حيث ندفع بالعقل نحو المزيد من الملل – وعشت ملايين الحيوات (يقول الهنود إن كل شخص كان موجوداً في هذا العالم، قبل أن يولد الإنسان، ثمانمائة وأربعين مليون مرّة على أقل تقدير، وإن كل شخص كرر النموذج ذاته: مرحلة الطفولة، وأوهام الطفولة، ثم مرحلة الشباب، وحماقات الشباب، ثم مرحلة الكهولة، وهي مرحلة الضجر، أي مرحلة الموت. ثم يدور الدولاب ويدور، ثم يدور.

لقد كنت نفسك تماماً ثمانمائة وأربعين مليون مرّة: تتوق دائماً، وترغب في الأشياء ذاتها، وتحصل عليها، أو لا تحصل عليها، لكن النهاية هي الإحباط، سواء حصلت أو لم تحصل عليها. القصة بأكملها تنتهي إلى النقطة ذاتها: الإحباط.. لكل من نجح، ومن لم ينجح.

تأمّل في هذا فقط: لقد أحببت ثمانمائة وأربعين مليون مرّة، ثم أصبحت محبطاً. حاولتَ ثمانمائة وأربعين مليون مرّة، فأصبحت طموحاً، ونجحت في الحصول على قليل من المكانة، والمال، ثم أصابك الإحباط.

وُلِدتَ ثمانمائة وأربعين مليون مرّة، ثم تخرج الحياة تدريجيّاً، ثم تموت مرّة أخرى.

فما هي الرسالة من نظرية التقمّص هذه؟ الرسالة هي: كفى! لننتهي من ذلك الآن! لنخرج الآن! إذا بقيتَ في الداخل، فسوف تستمر هذه العجلة بالدوران إلى ما لا نهاية. اخرج منها الآن!... ليس أن تخرج من المجتمع، أو من المدرسة، بل اخرج من عجلة الحياة والموت. فقط اخرج واهرب من المنزل.

هذه هي اللغة التي يمكن أن يفهمها إنسان أصابه الملل. غير ان كلتا النظريتين وسيلة، فلا تسألني أيهما صحيحة. إنها ليست صحيحة ولا خاطئة. الحقيقة ستعرفها عندما تكون خارج المنزل، أي أنك لن تعرف الحقيقة أبداً عندما تكون داخله. لذا فإن فأي شيء يساعدك على بلوغ السماء، وبلوغ الحرية، والانفتاح، فهو صحيح، ولهذا السبب أقول إن كل الأديان صحيحة، بمعنى أن كلها عامل مساعد. ويصبح الدين غير صحيح عندما يتوقف عن المساعدة.

يحدث أنه عندما يصبح المجتمع قديماً – الآن لن تساعد فكرة المسيح الغرب كثيراً، لأن الغرب نفسه أصبح قديماً. لهذا السبب يتحوّل العقل الغربي نحو الشرق، ذلك أن فلسفة الملل ستكون أكثر فائدة الآن. الآن أنتم أيضاً أصبحتم قدماء، فالمسيحية باتت أقل جاذبية، أمّا الهندوسية، والبوذية فأكثر جاذبية. الآن أصبحتم قدماء! وفكرة المسيح لن تفيد كثيراً. يمكن للمسيح أن يحافظ على تأثيره في أمريكا لبضع سنين فقط لأن أمريكا لازالت شابّة، وهي بلا تاريخ، وبلا ماضٍ. ولولا ذلك لأصبح الغرب شرقياً أكثر فأكثر.

إن التقمص يقتضي أكثر من حياة واحدة، لذلك يبدو يوم الحساب شيئاً صبيانياً، فحياة واحدة لا تبدو أنها كافية، إذ كيف تحاسب شخصاً لم يُعطى سوى فرصة واحدة؟ يتطلب الأمر عدة فرص على الأقل كي تحكم عليه، لأنه يجب أن يتعلّم بالتجربة والخطأ. إذا أعطيته فرصة واحدة فقط، فأنت في الحقيقة لم تعطه أية فرصة. إذا أخطأ، أخطأ. لم يترك له وقت لكي يرقي بنفسه فوق الخطأ، لذا يحتاج إلى المزيد من الفرص.

تلك وسائل، وكلمة "وسيلة" لا تعني حقيقي أو زائف. الوسيلة تساعد، فإذا ساعدت، فهي صحيحة. أمّا إذا أعاقت فهي غير صحيحة. إن كل دين يكون صحيحاً عندما يولد، ثم يصبح شيئاً غير صحيح. ولأن الأوضاع تتغير، فيصبح الدين غير صحيح. الاديان تصلح في حالة معينة، وبعد ذلك لا تعود كذلك. بعد ذلك تصبح عبئاً. بعد ذلك تقتلك، فتصبح قاتلة. بعد ذلك تخنقك. بعد ذلك لا تمنحك ولو قليلاً من الحياة. بل إنها تصبح سامّة.

إن كل دين له يومه. في الحقيقة يصبح الناس أكثر وعياً، ويبصرون عندما يولد الدين، وعندما يكون شاباً؛ سيستمتعون بالدين عندما يكون يافعاً ومفيداً. أما عندما يموت فسيفعلون الشيء ذاته مثلما ستفعل مع والديك عندما توافيهم المنيّة: بالطبع ستأخذهم، مع الكثير من المعاناة والألم، إلى القبر، أو إلى المحرقة. ستحرقهما والدموع في عينيك، لكنك ينبغي أن تحرق جثتيهما! لا تعرف أنها كانت أمك، وهي التي ولدتك، وتعرف أنه كان أباك، وقد كان كل شيء بالنسبة لك.. لكنه مات! بعدها لن يكون في وارد عقل المرء تحمل أعباء الموت التي لا لزوم لها.

يوجد الآن ثلاثمائة دين في العالم، وكلها تقريباً أدياناً مينة. فقط عدد قليل منها لديها حياة بعض الشيء.. وهذه أيضاً أشبه بشمعة صغيرة، وليست كالشمس التي تلملم نفسها بطريقة ما.

إذا فهمت أن الدين وسيلة، عندئذ سيتضح لك أن الوسيلة لا يمكن أن تكون وسيلة إلى الأبد.

إنني أخلق عدة وسائل، وسوف تموت ذات يوم. حينها عليك أن تتخلى عنها! فإذا كنت تتبع طريقة تأمّل معيّنة كنت قد أعطيتك إياها، فسوف تجد، حتى في حياتك، عاجلا ام آجلاً، أنها ميّتة، ذلك أنها أدت عملها، ولم تعد هناك حاجة لها، فقد تجاوزتها. إذن، لا تحملها ولا تتشبث بها، لأن ذلك التشبث سيكون انتحاراً. والأمر يشبه تماماً تغييرك لملابسك – فقد كبر جسدك وأنت تستمر بالتشبث بملابسك– إذ تمضي بتغيير وسائلك بالطريقة نفسها. وعندما تصبح في الخارج حقاً، فلا تعود هناك حاجة لأي وسيلة، لأن كل الوسائل وجدت فقط لكي تسحبك إلى خارج انغلاقك، وإلى خارج قبرك، وإلى خارج بلادتك، وإلى خارج لا وعيك.

لقد قيل هذا في حياة معلّم الصوفية، وذلك عندما كان يسير في شارع على مقربة من الجامع.

كان المؤذِّن على المئذنة، فسقط بالصدفة على معلّم صوفي وكسر عنقه، لكن المؤذِّن لم يصبه أيّ أذى. بعدها تم نقل المعلم إلى المشفى، وتجمع أتباعه هناك، ذلك أن المعلّم اعتاد أن يستفيد من كل وضع؛ لذا اجتمعوا وسألوه: "كيف ستستخدم هذه الحالة"؟

فتح المعلم الصوفي عينيه وقال: "إن نظرية الكارما نظرية زائفة، لأنها تقول: إن تحصد، فيمكن أن تزرع؛ وان تزرع، فتحصد. لكن ذلك شيء خادع. انظروا! شخص سقط، فكسرت عنق شخص آخر. إذن شخص يزرع، وشخص آخر يحصد".

تذكّروا هذا: يقول الصوفيون إن الحياة مترابطة للغاية، إلى درجة أن نظرية الكارما لا يمكن أن تكون صحيحة، كما أنها صحيحة لأن تلك الوسيلة صحيحة أيضاً؛ فإذا كانت الحياة مترابطة للغاية، فكيف للكارما أن تكون ذات معنى؟ إن نظرية

الكارما تقول إنك مرتبط بحياتك السابقة، فقط بحياتك السابقة؛ أي أنك نتيجة الكارما التي تخصك، وأنت تحصد نتائج كارماك الخاصة. غير أن الصوفيون يقولون إن الحياة مترابطة: أي أن كارما الجميع هي كارماي، وكارماي هي كارما الجميع. إنها شبكة من العلاقات المتبادلة. إنك تهزُّ وردة، فتهتز اساسات النجوم ذاتها مثلما يقول الصوفيون. إن تفعل شيئاً، فيتأثر العالم برمّته. ترمِ بحصاة في البركة، فتتأثر البركة بكاملها.

والحقيقة إن كل شخص هو مجرّد حصاة صغيرة في بركة، وأيّ فعل تقوم به، فإنك تخلق موجات، واهتزازات. وعندما لا تعود موجوداً، فسوف تستمر تلك الاهتزازات في مكان ما. بالقرب من نجم ما، بعيد جداً عن الأرض، لكن تلك الاهتزازات ستكون موجودة.

حدث ذات مرة لأحد أصدقائي أن كان مسافراً في قطار، فتوقف القطار في وسط المحطة تماماً. لم يكن توقفاً معتاداً بالنسبة للقطار، لكنه توقّف لسبب ما، كان قطار آخر يقف عند رصيف المحطة، وهذا الصديق كان يجلس في مقصورة مكيّفة. نظر خارج النافذة الزجاجية فشاهد سيدة جميلة في القطار الآخر. لقد نظر إليها لثانية واحدة فقط، ثم غادر القطار. بعدها غيّرت تلك المرأة حياته برمّتها. ربما لم تكن المرأة تعلم حتى إن شخصاً ما نظر إليها. لقد قال إن المرأة لم تكن تنظر إليه، بل حتى لم تكن منتبهة لذلك. غير أن شكل المرأة، ووجهها، وتناسق جسدها، استمر في أحلامه.

لم يكن قد تزوّج بعد. كان يبحث عن تلك المرأة، ولم يكن يعرف اسمها، ولم يعرف إلى أين ذهبت، ومن أين قدمت.

لم يُعرَف عنها شيء. لقد توقّف القطار للحظة فقط؛ نظر إلى النافذة، والنافذة لم تكن مفتوحة، وكانت مغطّاة بالزجاج، وفي غرفة مكيّفة، وكانت مجرّد لمحة. بعدها غادر القطار! كانت مجرّد حصى صغيرة في بحيرة.

لقد ظل عازباً وهو يقول: "ما لم أعثر على تلك المرأة، أو على شيء من تلك المرأة، فلن أتزوّج". وأنا لا أعتقد أن هناك أيّة إمكانية بالنسبة له لكي يجدها، فقد مرّت تسع سنين تقريباً. لكن تاريخ العالم بأكمله سيكون مختلفاً، لأن هذا الرجل ربما تزوج من امرأة، وربما أنجب أدولف هتلر، فمن يدري؟ لكنه لم يتزوّج، وسيبقى هتلر غير مولود، والحرب العالمية الثالثة لن توجد. من يدري ماذا كان سيحدث لو أنه لم ير هذه المرأة من النافذة؟

الآن التاريخ كله لن يكون هو نفسه مثلما كان...مجرّد توقف قطار لمدة ثانيتين أو ثلاثة، وسوف لن يكون الكون هو ذاته مرة أخرى.

هل يمكن أن يخطر في ذهنك أنه لو لم يولد هتلر، لكان العالم مختلف كليّاً؟ ماذا لو أن والدة هتلر اجهضت...؟ ماذا لو أنها أخذت حبة منع الحمل.. مجرد حبة صغيرة!... لكان تاريخ العالم بأكمله قد اختلف كليّاً، وربما لم تكن موجوداً هنا. لقد أحدث هتلر هذا التغيّر الكبير، بل إن كل شخص يحدث تغيّراً. وأنا لا أتحدث فقط عن صانعي الاضطرابات الكبيرة مثل هتلر، أو الماهاتما العظماء. كلا. لأنه حتى كلب في بلدتك هو كائن مهم بالمحصلة مثل أي أدولف هتلر. إنك لا تعرف أبداً أنه لو لم يكن الكلب موجوداً، لكان العالم مختلف كليّاً. مجرّد كلب متشرّد لا يملكه أحد، هو جزء من الكلّ، وإن كل جزء هو بأهمية أي جزء آخر، ذلك أنه داخل الكل يكون كل جزء بأهمية أي جزء آخر. ليس هناك صغير أو كبير. لا يوجد شخص أكثر أهمية، ولا أقل أهمية. إن الكلّي هو كلّي بسبب جميع أجزائه.

يقول المتصوفة إن نظرية الكارما هي أساساً موقف انابي، وهم على حق في ذلك! فهي تقول إنك ستجني أي شيء تزرعه، وهذا القول يعطي لأناك قوة.

لقد استخدموا نموذجاً آخر لأخذك بعيداً عن كل شيء. مما يعني أنك لم تعد موجوداً، والموجود هو الكلّي. إنك مجرّد موجة، فما المغزى من التفكير بانك موجود؟ يقول المتصوّفة إنك عندما تفهم هذا الترابط، فسوف تسقط مفهومك عن الأنا بكل بساطة، ولن تعود ذاتاً. المتصوفة يقولون إن الله وحده الذي له الحق بقول كلمة "أنا"، ولا أحد غيره، فهو الوحيد الذي يملك المركز.

إذن هذه وسيلة، فالهندوس أيضاً لديهم وسيلتهم الخاصة عندما يقولون: "إنك تحصد ما تزرعه". إنهم يقولون إنك إذا كنت تعيساً، فأنت السبب، لذلك لا تلقي المسؤولية على أحد. إذا كنت تتألّم، فقد حصدت بعض السم الذي زرعتَه في مكان ما، وفي حياة ما، وها أنت تجنيه. فلماذا يصرّون على ذلك؟

يصرون على ذلك لسببين:

السبب الأول هو أنك إذا كنت المسؤول، أو إذا كنت تشعر بأنك المسؤول، حينها فقط تستطيع أن تُسقِط آلامك؛ وإلاّ فيكف يمكن أن تسقطها؟ إذا كنت تعتقد بأن شخصاً آخر هو مسؤول مثلما أنت مسؤول، فسوف تستمر على حالك.

ما الذي يمكن فعله؟ إنك لن تستطيع تغييرها بنفسك، لأن إسقاطها مستحيل.

السبب الثاني وهو الأكثر أهمية: الوسيلة الهندية تقول إن ظاهرة ماضيك بأكملها، وكل ما فعلته، أو كل ما فكّرت به، حاضرة في داخلك الآن. يعتقد الناس أن الماضي لا يمكن إلغاؤه. امّا الهندوس فيقولون لا. الماضي يمكن إلغاؤه لأن الماضي جزء من الحاضر، وأنت تحمله. كما يمكنك ليس تغيير الحاضر والمستقبل فحسب، بل يمكنك تغيير الماضي أيضاً، واسقاطه. فكلما شعرت بالمسؤولية، كلما أصبح إسقاطه ممكناً. كما يقول الهندوس: بما أنك المسؤول الوحيد عن حياتك، فإن الحرية ممكنة أيضاً. إذا كانت كل الأشياء مرتبطة ببعضها البعض، عندها يصبح الجميع مستنيرين، بل عندها فقط يصبح الجميع مستنيرين، وإلاّ كيف يمكن أن أصبح وحدي مستنيراً؟

لقد تم إحداث عدة وسائل لمساعدتك، وكل تلك الوسائل أتت من أشخاص عارفين، غير أن كلها وسائل محدودة. وفي الحقيقة لا توجد وسيلة غير محدودة، فقد اخترعها شخص معيّن، لأجل أشخاص معيّنين. وهي ذات معنى في سياق معيّن فقط. لهذا السبب المعرفة خطرة، فإذا نقلتها خارج سياقها، فسوف تصيبك بالشلل. إذا أخرجتها من سياقها، فسوف تخنقك، بل ستصبح سمّاً.

هذه المعرفة لن تخرجك، بل على العكس من ذلك: سوف تصبح عائقاً، وباباً موصداً. وهذا أيضاً أمر لا بد من فهمه.

على سبيل المثال: يقول المتصوفة إنك لا تستطيع التخلّي عن الأنا إذا كنت تؤمن بنظرية الكارما، وهذا صحيح.. هذا استخدام صحيح، لكنك يمكن أن تستخدمه بشكل خاطئ إذ تقول: "إذا كانت كل الأشياء مترابطة للغاية، فكيف يمكن أن أصبح مستنيراً لوحدي؟ إن ذلك مستحيل. فإمّا أن يصبح العالم كله مستنيراً، أو يبقى كله جاهلاً". الآن تستخدم الوسيلة ذاتها لكي تبقى حبيس المنزل، وموصد الأبواب. إن الممر ذاته يمكن أن يقودك إلى الخارج، ويمكن أن يقودك إلى الداخل، وبواسطة السلّم ذاته يمكن أن تصعد، أو أن تهبط، فذلك يتوقف عليك.

الهندوس يقولون إنك المسؤول عن الكارما التي تخصّك. وهذا جيد، فإذا كنت مسؤولاً عنها، فيمكنك أن تتغيّر، ويمكنك أن تتحوّل، فأنت المعني لوحدك. يمكنك أن تسقط أو أن تحمل حسبما ترغب، فمن الذي يرغب بحمل الألم، والشقاء، والجحيم؟ في الحقيقة سوف تتخلى عنها.

لكنك تستطيع استخدامها بطريقة معاكسة تماماً، فتقول: "إذا كنت مسؤولاً عن الكارما خاصتي، فأكون شخصاً في غاية الأهمّية. بالتالي لا يمكن أن تجد أناساً أكثر أنانية من الرهبان الهندوس.

لو نظرت إلى الصوفي فستجده دائماً شخصاً متواضعاً للغاية. لو أنك اقتربت من صوفي مسلم، فستشعر دائماً بأنه شخص في غاية التواضع، ولا مجال للمقارنة في أي مكان. سترى التواضع في وجهه، وعيناه، وفي جوهر كيانه، فهو عديم الكيان: لأن الموجود هو الكلّي.

أمّا إذا جئت إلى راهب هندوسي فلن تجد سوى شخص أكثر أنانية: في طريقة مشيه، وشكله. انظر إلى عينيه، وبالتحديد إلى أنفه، فستجد الأنا مكتوبة في كل مكان. لقد استخدم كل شيء على نحو خاطئ؛ ذلك أنك إذا كنت مسؤولاً عن كارماك، فسوف تقوى الأنا، وعندئذٍ تصبح أكثر وأكثر أنانية.

تستطيع استخدام الوسيلة بشكل خاطئ، لأن كل وسيلة لها حدّين، فتذكّر هذا. لهذا السبب يقال إن مسألة المعرفة هي مسألة خطرة.

والان سندخل في هذه القصة:

ذهب رجل إلى طبيب وقال ان زوجته لا تنجب اطفالاً. فحص الطبيب المرأة وقاس نبضها، ثم قال لها: "لا يمكنني معالجة عقمكِ، فقد اكتشفت أنك ستموتين على ايه حال في غضون اربعين يوماً".

قلقت المرأة كثيراً بعد أن سمعت هذا، إلى درجة انها لم تأكل شيئاً في الأربعين يوماً التالية. غير انها لم تمت في الوقت الذي تنبأ به الطبيب، لذلك تناول الزوج المسالة مع الطبيب الذي قال "أجل، كنت اعرف ذلك.

الآن ستكون خصبة.

فسأل الزوج "كيف حصل هذا"؟

فأخبره الطبيب قائلاً: "زوجتك كانت سمينة جداً، وهذه السمنة تعيق خصوبتها. لقد عرفت ان الشيء الوحيد الذي سيمنعها عن الطعام هو الخوف من الموت. ولهذا السبب شفيت الان".

إن مسألة المعرفة مسألة خطرة للغاية.

لقد كذب الطبيب، لأنه قال شيئاً لم يحدث. ولكن حدث شيء آخر: قال إن المرأة ستموت، فأصبحت قلقة للغاية، وأضحى الموت شبحاً يلازمها، وغدا كابوساً. لابد أنها فكرت بشكل متواصل بالموت؛ فلم تأكل، لكنها لم تمت. بعد أربعين يوماً قال الطبيب: "لقد عولجت، والآن ستكون خصبة". فما الذي حدث؟

كان يمكن أن يقول منذ البداية: " عليكِ أن تتبعي حمية، أو تصومي". وكان من الممكن أن يصح ذلك، غير أن هذا لن يكون أمراً حكيماً، لأن المرأة لن تستمر في الحمية، كما أنها لن تسمر في الصيام لأربعين يوماً. والحقيقة أنه لابد وأن أطباء كثيرون قالوا لها ذلك من قبل، ولم تصغ لهم أبداً. لهذا كان من الصحيح القول: "الحمية أو الصوم لأربعين يوماً" لكن هذا لم يكن من الحكمة بشيء. والواقع إن الحقيقة ليست حكيمة دائماً، والكذب ليس دائماً حماقة. إن مسألة المعرفة هي مسألة في غاية التعقيد.

لقد خلق الطبيب وضعاً، وقد كان طبيباً حكيماً بالفعل. لقد خلق وضعاً: عرف أن الخوف من الموت وحده يمكن أن يساعدها.

لقد صدم المرأة عبر الخوف من الموت؛ لقد أعطاها هذا القدر الهائل من الهمّ والكرب والقلق بحيث نسيت أمر الطعام بالكامل. فمن سيأكل؟ ومن الذي سيستمتع بالأكل عند وجود الموت؟ كان هذا أمراً مستحيلاً. لكنها لم تمت، وبدلاً من ذلك تجدد جسدها تماماً، وحدثت فرصة جديدة للحياة.

انها كذبة، لكنها كذبة حكيمة.. وهذا هو حال كل معلّم.

كان غوروديف كثير الانتقاد، لأنه كان كاذباً فالكذب أتي من المتصوفة: فقد كان غوروديف صوفيّاً. كان منتظماً في أديرة ومدارس صوفية. والحقيقة أنه قدِّم التصوف للغرب بنسخة جديدة تماماً، ولكن حينها كان يستحيل على العقلية المسيحية العادية أن تفهم غوروديف، لأن الحقيقة على قدر كبير من الأهمية، ولا يمكن لأحد أن يعتقد أنه يمكن لمعلّم مستنير أن يكذب.

هل تعتقد أن السيد المسيح كان يكذب؟ إنني أعرف أنه كَذَبَ، ولكن لا يمكن للمسيحيين الاعتقاد بذلك: "المسيح يكذب؟ كلاّ. إنه أصدق إنسان".. إن المعرفة هي مسألة خطيرة للغاية. فقد كذب في أمور شتى، ويجب أن يكذب.. لكنك حينها لا تعرف ما إذا أراد أن يساعد أم لا، وإلاّ فكيف يكون قدّيساً إذا لم يكن يستطيع تقديم المساعدة. إن قديساً من دون أن يساعد الناس هو قديس ميت فعلاً. إذا القديس لم يساعد، فما الفائدة من وجوده؟ في الحقيقة، لا معنى لوجوده.

إن كل ما يمكن أن يحصل عليه خلال حياته قد حصل عليه. إنه موجود لكي يقدم المساعدة.

كان غورديف شخصاً منتقداً جداً، لأن الغرب لم يفهمه؛ فالعقل المسيحي العادي لا يستطيع فهمه. لهذا كانت هناك روايتين في الغرب حول غورديف. الأولى تعتقد إنه كان شخصاً مؤذياً جداً، وليس حكيماً على الإطلاق، بل كان الشيطان بعينه. أمّا الثانية فكانت تعتقد إنه أعظم قديس عرفه الغرب في القرون القليلة الماضية. وكلا الاعتقادين صحيح، لأنه كان في الوسط تماماً. لا يمكن أن تقول بشأنه نعم، ولا يمكن أن تقول لا. تستطيع أن تقول عنه إنه كان آثماً مقدساً، أو قديس آثم. لكنك لا تستطيع تجزئته، ولا تستطيع أن تكون بسيطاً جداً معه، فالمعرفة التي امتلكها معقدة جداً.

ذات مرّة أتى شخص إلى غورديف، وتحدث عن نفسه: بأنه نباتي، ولم يقرب المشروبات الكحولية قط، ولم يدخن السجائر أبداً، وهذا ذاك.. فقال غورديف: "إذا أردت أن تكون برفقتي، فعليك أن تترك كل شيء تحت تصرفي".

لم يكن الرجل مدركاً لطبيعة غورديف، فقال: بالطبع! لقد جئت إليك، وأنا مستسلم".

فقال غورديف: "أول شيء، عليك أن تأكل اللحم الآن".

أسقط الرجل في يده، ولم يصدق ذلك. لقد ظن أن غورديف كان يمزح، فقال: "أنت تقول ذلك"؟

أجاب غورديف: "نعم، فتلك هي الطريقة الوحيدة التي أحطم فيها أناك.

هذه النباتية ليس نباتية: إنها جزء من اناك. اذن، هنا عليك أن تأكل اللحم، وأن تشرب الكحول بقدر ما تستطيع، وأن تدخّن، وأن تذهب مع النساء، وتترك كل شيء لي".

في الحقيقة لا يمكن أن تصدق بأن قدّيساً يتحدث هكذا.

ولكن حينها لن يكون قديسيك في غاية الحكمة. لكن غوردييف ساعد ذلك الرجل، لأن ما أدلى به الرجل كان مشكلة. ستجد دائماً أشخاصاً نباتيين، ولا يتعاطون الخمور، وغير مدخنين، وسوف تجد دائماً أنا ماكرة. ثم إن الكحول لا يسبب الأذي بقدر ما تسببه الأنا الماكرة.

امتثل الرجل، وكان ذلك صعب جداً. كان بسبب الغثيان له، لكنه امتثل ما إن قال ذلك، وقد تغير الرجل في غضون ثلاثة أسابيع.

كان كورديف يقدم له الكثير من الشراب.. لقد اعتاد كورديف أن يقيم مأدبة كل مساء، وهذه المأدبة تستمر ثلاثة ساعات، أو أربعة، أو خمس ساعات. تبدأ في التاسعة، أو العاشرة مساء، وتنتهي عند منتصف الليل. كان كورديف نفسه قادراً على الشرب بأقصى ما أمكنه دون أن يصبح ثملاً، كما كان يرغم تلامذته على الأكل، حتى تكاد معدتهم أن تتفجر. كانوا يبكون، والدموع تملأ أعينهم، ويقولون: "كلا. لا مزيد من الطعام الآن"! وكان يرغمهم على المزيد.

كان يحاول تغيير كيمياء جسدك، وقد غير الكثير من الأشخاص الذين اتبعوه، ممن كانوا مؤهلين، وشجعان بما فيه الكفاية للسير معه؛ فالأشخاص العاديين الخائفين لا يصبحون متدينين، وإنّما الشجعان.

هذا الرجل الذي أتحدث عنه أطاع غورديف. كان يسقط على الأرض في حالة سكر، وفي اليوم التالي يصاب بالصداع الكحولي. لكن غوردييف غير تفكير الرجل بالكامل في غضون ثلاثة أسابيع. تخلى عن اللحم تدريجياً، وأقلع عن الكحول، وعن كل شيء. بعدها قال الرجل: "لأول مرّة أصبح نباتياً، فقد كانت تلك النباتية القديمة غير حقيقية. كانت مجرّد قناع للأنا". عندما فرض غورديف على تلميذه أكل اللحم وشرب الكحول، فكان بذلك يحطم أناه. والواقع أن الرجل تحطم بالكامل.

بعض الأحيان يمكن أن يحصل العكس تماماً؛ إذ يأتي شخص مدمن على الخمر، ولاحم، ومدخّن، فيوقف غوردييف كل هذه الأشياء، ويجعله يسير على نظام غذائي، أو يجعله يصوم.

علي المعلّم إذا أراد تقديم المساعدة أن يكون في غاية الحكمة. كان من عادة غوردييف أن يسمّى طريقته: "طريقة الرجل الماكر". إن كل المعلمين ماكرين. فإذا كان عليهم أن ساعدوا، فينبغي أن يكونوا ماكرين. غير أن مفاهيمك تعتبر أن المعلّمين عذارى بريئين، أو مجرّد حالمين، أو بلا جوهر، أو تماثيل من الرخام، حيث يمكنك أن تذهب وتلمسه، وتشعر ببرودته، وهذا كل شيء. في الحقيقة يوجد أشخاص مثل هؤلاء، لكنهم غير جديرين بالثقة، ولم يساعدوا أحد. وبالطبع ربما نعموا بشيء من الصمت والسلام، لكن ذلك الصمت ليس فيه خاصيّة الحياة. إنهم تماثيل رخام ميّتة. إن الصمت بارد. الصمت ليس دافئاً بما فيه الكفاية ليكون حيّاً. لقد هدأوا أنفسهم، وأصبحوا ضمن السيطرة، لكنهم ليسوا أحراراً، ولم يبلغوا الحرية.

إن الإنسان الحر بالفعل هو شخص تجاوز الخير والشر، والخطيئة والفضيلة. وفي الحقيقة، هو شخص تجاوز كل الانقسامات، وكل الازدواجيات. إنه كلا الطرفين، وكذلك ليس أيّ منهما. فمثل هذا الشخص فقط، المفعم بحياة في غاية الخصوبة، والذي يشتمل على المتضادات، وكل المتناقضات، يمكن أن يكون ذا نفع وفائدة لأي شخص. لكن القدوم إلى هكذا معلّم هو أمر صعب، لأنك تأتي بأفكارك، ومفاهيمك، وأحكامك.

لذلك هنا تكمن المشكلة: سوف تكون واقعاً تحت تأثير شخص لا يستطيع مساعدتك، وسوف تهرب من الشخص الذي

يمكن أن يساعدك، وهنا يكمن بؤس العقل البشري. فكن واعياً لهذا كي لا تقع في الخطأ نفسه.

حقاً إن مسألة المعرفة هي مسألة في غاية الخطورة.

الفصل الثامن:
هذا أيضاً سينقضي

عبارة تستطيع فتح الباب الأكثر سرّية في كيانك، ومن خلالها ستعبر إلى كيان الوجود ذاته

ملك قوي، وحاكم للعديد من المقاطعات، وعلى قدر كبير من العظمة، إلى درجة ان الحكماء كانوا مجرّد موظفين لديه. ذات يوم شعر أنه مشوَّش، فاستدعى اليه الحكماء، وقال:

"لا اعرف السبب، ولكن ثمة شيء يدفعني إلى البحث عن خاتم معيّن من شأنه ان يمكنني من تحقيق الاستقرار لحالتي. لابد ان امتلك مثل هذا الخاتم الذي يجب ان يجعلني سعيداً عندما لا اكون سعيداً، وفي الوقت ذاته، إذا كنت سعيداً ونظرت إليه، فيجب ان يجعلني حزيناً.

فاستشار الحكماء كل منهما الآخر، وزجّوا أنفسهم في تفكّر عميق. في النهاية توصلوا إلى قرار بشأن سمة هذا الخاتم الذي يناسب ملكم.

الخاتم الذي استنبطوه كان خاتما نقشت عليه اسطورة: "هذا أيضاً سينقضي".

إنها قصة عظيمة، وهي عظيمة لأنها استخدمت من قبل الصوفيين لقرون خلت. هذه القصة ساعدت الكثير من الناس على الوصول إلى الاستنارة. إنها ليست قصة عادية، بل هي ما أسمّيه: الفن الموضوعي. إنها وسيلة، وهي ليست للقراءة والترفيه فحسب، وإنما شيء يجب أن يصبح جوهر اسلوبك في الحياة، وعندها فقط تعرف معناها.

ظاهرياً تبدو القصة بسيطة، ويمكن لأي شخص فهمها؛ إذ لا تتطلب ذكاء خاصاً، ولكن إذا تأمّلت فيها بعمق، فستنكشف لك بواطنها العميقة.

كما ستصبح القصة سلاحاً في يدك، تستطيع أن تقطع بها عقدة الجهل عينها. إنها أداة قويّة، وما إن تفهمها حتى تصبح المفتاح العمومي التي يفتح أعمق باب في كيانك. إنها قصة تحمل إمكانية كبيرة، وحبلى بمعنى عميق. بيد أنه ينبغي التفكّر والتأمّل فيها بحدّة. وينبغي للمرء أن يبذل، بوعي، كل جهد لكي يعثر على مغزاها العميق. لكن ذلك وحده لا يفيد كثيراً، فهو يساعدك في البداية. لكنك إذا أردت أن تفهم القصة حقاً، فعليك أن تعيشها، وعندئذٍ فقط ستتوصل إلى فهم معناها.

ثمة بضعة أشياء ينبغي التنويه لها قبل الدخول في القصة:

الدين لي طقساً، وليس شيئاً تفعله، بل شيئاً تصبح عليه. لهذا السبب هناك دائماً إمكانية لوجود دين زائف في مكان ما من المجتمع. الدين الزائف يكون عندما يُستبدّلُ التحول الباطني بطقوس ظاهرية. ففي تلك الحالة تستمر بفعل أشياء تصبح عادة متجذرة لديك، ولكن من دون الوصول إلى شيء. فالناس يذهبون إلى الكنيسة، وإلى المعبد، ويكررون الصلاة نفسها مراراً، ولا يحدث لهم شيء. لقد تاهوا على الطريق في مكان ما. قد أضاعوا العملة الحقيقية في مكان ما على الدرب، واستبدلوها بعملة مزيّفة.

تذكّر إن الدين الحقيقي والأصيل معنيٌّ بالكائن، وليس بالفعل. ولا علاقة له بطريقة حياتك الظاهرية، بل بمركزك. وبالطبع عندما يتغير المركز، فسوف يتبعه المحيط الخارجي؛ أي أن حياتك الخارجية تتغيّر أيضاً. لكن العكس ليس صحيحاً: إذ يمكنك تغيير السطح الخارجي، لكن المركز لن يتغيَّر. ستعيش حياة نفاق ورياء، وسوف يكون لديك ظاهراً مختلفاً عن المركز، وليس مختلفاً فحسب، بل معاكساً، وعلى النقيض تماماً. وسوف تنقسم إلى قسمين.

الدين ليس طقساً، وليكن هذا في حسبانك. الدين هو وعي داخلي، ويقظة داخلية. سوف تتغير الكثير من الأشياء على السطح، لكن التغيّر يجب أن يحدث في داخلك أولاً.

تخيّل نفسك دائرة ذات مركز. الدائرة معنية بالآخرين. الدائرة تلامس حدود الآخرين، أي أنها تلامس دوائر أخرى. الدائرة تعيش، وكذلك المحيط، في مجتمع حدود الآخرين. لذلك هناك حاجة إلى أخلاق معيَّنة؛ فلكي تتعايش مع الآخرين، تحتاج إلى قانون معيّن، وإلى دستور، وإلى نظام. وكل هذا جيد، لكنه ليس ديناً.

الأخلاق هي كيف تتعايش مع الآخرين، أمّا الدين كيف تعايش مع نفسك. الأخلاق هي أن لا تتعامل بشكل خاطئ مع الآخرين، أمّا الدين فهو منهج لكي لا تخطئ في التعامل نفسك. الدين هو ما تفعله عندما تكون في عزلة تامة، وفي أعماقك الأكثر قدسية.

من الواضح أنه سيتم تغيير المحيط الخارجي، لأن النور المنبعث من المركز قادم شيئاً فشيئاً، وسيتخلل المحيط بأكمله.

سوف تصبح شخصاً ينشر النور؛ حتى الآخرين سيشعرون بالإنارة، بسبب النور القادم منك. لكن ذلك النور لن يكون نور أفعالك الجيّدة، لأن النور سيكون شيئاً لا علاقة له بالجيّد وبالسيّئ.

سيكون النور أشبه بتفتّح وردة، وأشبه بالعطر الفوّاح، وليس بالجيّد أو بالسيّء. فعندما تشرق الشمس، وينتشر نورها، فليس ذلك جيّد أو سيّئ. وعندما تأتي الغيوم وتمطر.. فليس ذلك جيّداً ولا سيّئاً. إنها لا تكترث بما هو جيّد أو سيّئ.

عندما يأتي النور من المركز، فهو يتخطى الجانب الأخلاقي؛ الخير والشر، حيث يذوب كل شيء. إن الضوء البسيط رائع في حد ذاته، وفي قيمته الفعليّة.

إن كلمة "دين religion" هي كلمة جميلة للغاية. وهي تأتي من المصدر "religere". وكلمة "religere" تعني العودة الى الانضمام، أي: لم الشمل والاتحاد مجدداً. ولكن مع من؟ إنه الاتحاد مع نفسك، ومع مصدر كيانك. ولكن لماذا الاتحاد مجدداً؟ لأنك متحد مع المصدر أساساً.. ولهذا كان الاتحاد مجدداً. الأمر لا يعني أنك تصل إلى المصدر للمرّة الأولى؛ وإلاّ فمن أين أتيت؟ لقد جئت من المصدر، وفي أعماقك لا تزال في المصدر. فمن الناحية الظاهرية فقط، يبدو الأمر كما لو أن الأغصان نسيت جذورها، لكنها ليست مقطوعة عن الجذور، لأنها آنذاك لا يمكن أن تعيش. المسألة ببساطة هي أنها نسيت

جذورها، ففي أناهم الخاصة، وفي ارتفاعهم نحو السماء، ومع القمر في رومانسيتهم، قد نسوا بالكامل أن لهم جذوراً تحت الأرض.. تلك الجذور هي التي تغذّيهم، وتقوّيهم، والتي بدونها لا يستطيعون البقاء لثانية واحدة.

كما أن كل هذا الاخضرار، وكل هذه الورود، وكل هذه الثمار، ستختفي ببساطة مثل الحلم ما إن تنقطع عن الجذور. هكذا يحدث للإنسان، إنك تتحرك في الأغصان، بعيداً عن الجذور، وتصل إلى العديد من الأزهار، فتصبح مفتوناً. العالم جميل من حولك، لكنك تنسى الجذور تماماً، غير أن المسألة لا تعني أنك اقتُلِعت من جذورك، فالنسيان هو مجرّد نسيان.

ذلك هو معنى الدين: وهو الاتحاد مجدداً، والتذكر. جديد. إن كلمة تذكّر هي أيضاً كلمة جديدة، وهي تعني أن تعود عضواً من جديد.. أن تصبح جزءا من المصدر من جديد. وان تمضي إلى المصدر وتصبح عضوا فيه من جديد.

الدين هو إعادة الاتحاد مع مصدرك. الدين هو تذكُّر لكي تصبح من جديد جزءاً من الوحدة الأصلية التي أنت عليها. الدين لا علاقة بالآخرين، بينما الأنا في تهتم بالآخرين بطريقة أو بأخرى. عندما تصبح معنياً بنفسك تماماً، فسوف تسقط الأنا ببساطة، ولا يعود هناك معنى لوجودها، وستكون وحدك من دون أن يكون لديك أنا. حاول أن تجلس لوحدك تماماً، ولا تفكر بالآخرين، فهل سيبقى هناك وجود لأي أنا؟ في الحقيقة لا توجد إمكانية لذلك، فالانا تحتاج إلى كلا الطرفين (انت والآخرين) لتكون موجودة، ذلك أنها تشبه الجسر تماماً، إذ لا يمكن أن يوجد الجسر من دون ضفتي النهر، فهو يحتاج لدعم الضفتين. إن الأنا موجودة كالجسر بينك وبين الآخر. والحقيقة أن الأنا ليست في داخلك: إنها بينك وبين الآخر تماماً.

وهذا ما ينبغي أن تتذكره دائماً: الأنا ليست في داخلك، ولا يمكن أن تكون موجودة في داخلك. إنها دائماً بينك وبين الآخر، مثل الزوج والزوجة، والصديق، والعدو. لذلك عندما تغوص في الداخل، فلن تجد الأنا. إنها تختفي ببساطة عندما تكون أنت في وحدة تامة. لهذا السبب تستمر الأنا في ممارسة الخِدَع؛ حتى عندما تبدأ في السعي والبحث عن الحقيقة، فتقول لك الأنا: "ساعِدِ الآخرين، غيّر الآخرين". وهكذا يضيع الدين من جديد، ويصبح مهمة تبشيرية.

الدين ليس مهمّةً تبشيرية، فها هم المبشرون على المسار الخطأ مرة أخرى. لقد أصبحوا مجدداً مهتمين بالآخر، لكنهم الآن باسم الدين، وباسم الخدمة. غير أنك عندما تهتم بالآخر، فقد تركت المصدر.

إن رجل الدين يساعد الآخرين أيضاً، لكنه غير معني بهم، وهذا أمر طبيعي، فالدين ليس مهمّة. الدين ليس شيئاً موجوداً في العقل، وهو لا يبحث ولا يسعى لمساعدة شخص ما، إلاّ بمحض الصدفة. إنه ببساطة يشارك الآخرين بكنوزه الداخلية، لكنه لا يغيّر أحداً! إنه لا يسعى خلفك لكي يقولبك في نمط معيّن. والحقيقة أن هذا هو السبب الأكثر مكراً للعنف في العالم؛ وهو السعي لتغيير الآخر، وقولبته؛ مما يعني أنك منفصل وعدواني، ولا تتقبل الآخر كما خلقه الله، كما يعني أن لديك عرض أفضل، وافكار أفضل من الله ذاته. ها أنت تريد أن ترتقي على الله.

إنك بكل بساطة شخص أحمق، وهذه هي الطريقة التي تأتي فيها الأنا.

سمعتُ عن مدرسة صغيرة، وهي مدرسة يوم الأحد، أن الكاهن، أو المبشّر، كان يعلّم الأولاد الذين أرغموا على الذهاب إلى مدرسة الأحد لتعلّم الإنجيل، والمسيح، والله. والحقيقة إنه لأمر همجي أن ترغم الأطفال، بيد أنك تستطيع إرغامهم، ولهذا السبب يصبح الكثير من الناس فيما بعد ملحدين، وضد الدين. ذلك أنك منذ البداية فرضت عليهم الدين، وبعد ذلك أخذوا ينتقمون، فرموه جانباً، وانتقلوا إلى الطرف الأخر.

كان عيد الميلاد يقترب، لذلك قال الكاهن للأولاد: "الآن هذا هو واجبكم: عليكم أن تجلبوا المزيد من الأولاد إلى الصف؛

يجب أن يجلب كل واحد منكم ولدين على الأقل. بهذا سوف تساعدون المسيح في عمله على هذه الأرض".

لم يكن الأولاد متحمسين. لقد كانوا أنفسهم مرغمين، وأرادوا الهروب بطريقة ما. نظروا إلى بعضهم البعض، فلم يكن أحد منهم يُظهر أي اهتمام. ثم فجأة رفع أحد الأولاد الجدد يده – والأعضاء الجدد خطرون دائماً، لأنهم يمكن أن يوغلوا إلى أقصى الحدود في حماسهم– وكان الكاهن في غاية السعادة، فقال: "إذن أنت مستعد لأن تجلب ولدين إلى الصف". فقال الصبي: "ليس تماماً، اثنان شيء كثير، ومن الصعب أن أجلب ولدين. أستطيع أن أجلب ولداً واحداً فقط، لدي رفيق يافع يسكن بجواري ممن أستطيع التغلب عليه. أعدك سيدي أنني سأبذل المستحيل لكي أحضره".

هذا ما كان يقوم به كل المبشّرين من جميع الأديان في العالم بأكمله: يفعلون المستحيل لدفع الناس عنوة نحو الدين.

الدين ليس مهمّة تبشيرية، ولست بحاجة لأن ترغم أحد. عندما يبرز الدافع، فلا بأس في ذلك. لا يمكن خلق الدافع بشكل مصطنع. لا يمكن لأحد خلق حافز ديني مصطنع، لأن ذلك مستحيل. هذا الأمر أشبه بخلق حافز جنسي عند طفل صغير؛ حتى لو سأل الطفل أسئلة تتعلق بالجنس، فهو غير عابئ بالجنس. حتى لو سأل الطفل من أين يأتي الأطفال، فسوف تسيء فهمه إذا اعتقدت أنه مهتم بالجنس. إنه بكل بساطة ينتابه الفضول حول الأطفال، ومن أين يأتون. الطفل لا يهتم بالجنس على الإطلاق، فلا تبدأ بتعليمه شيئاً حول الجنس، لأنه ببساطة سيصاب بالضجر. سيكون ذلك شيئاً لا معنى له بالنسبة إليه، لأنه عندما لا يكون الحافز موجوداً، وعندما لا يكون ناضجاً جنسياً، فإنه لن يستوعب أيّ شيء تقوله حول الجنس.

هذا الأمر نفسه ينطبق على الدافع الروحي، وهو مشابه تماماً للدافع الجنسي. فعندما ينضج المرء روحياً، فقد نضج شيء في داخله، وبعد ذلك يبدأ البحث. لا أحد يمكنه فرض ذلك. غير أن كل الديانات حاولت فرض ذلك، فقتلوا إمكانية الحافز ذاته.

لقد أصبح العالم في غاية الإلحاد بسبب المبشرين والكهنة. أصبح العالم في غاية الإلحاد لأنك بالغت في تعليم الدين، ومن دون أن تفكر أبداً فيما إذا كان الحافز موجوداً أم لا.

لقد سئم الناس من تعاليمكم، وضجرت الكنائس منكم، وباتت كلمات جميلة مثل "الله" و "الصلاة" و "الحب" و "التأمل" كلمات بشعة. إن أعظم الكلمات أصبحت وضيعة بسبب مبشريكم.

لقد كانوا يفرضون عليك هذه الكلمات الجميلة، وعندما يُفرض شيء جميل، فيصبح قبيحاً. والحقيقة أنك تستطع أن تشارك في الجَمال، ولكن لا يمكن أن يُفرَض عليك، فعندئذٍ يصبح عنفاً.

الدين لا شأن له بالآخرين، وإنما معني بك أنت، وبشكل قاطع. الدين شيء شخصي، وليس ظاهرة اجتماعية، وفي الحقيقة لا يمكن أن يكون هناك علم اجتماع الدين، إذ ليس هناك سوى علم النفس، أما المجتمع فهو مسألة مختلة تماماً؛ الحشد مسألة مختلة تماماً: الحشد هو حيث تلتقي النهايات الخارجية. أمّا الدين فيكون عندما تكون وحدك تماماً، وحيث لا يكون هناك أحد لتلتقي به. ففي تلك الوحدة النقية تولد أقصى نشوة راقية، ولكن عليك أن تصبح ناضجاً.

تذكّر إن النضج هو كل شيء، وقبل ذلك لا يمكن عمل شيء ربما تعتقد أنك جاهز، أو ربما يظن شخص آخر أنه جاهز؛ فذلك بسبب فضولك الذي يمنحك إحساساً خاطئاً، وإشارة بأنك أصبحت جاهزاً، غير أن الجاهزية لا تعني سوى أنك جاهز لكي تغامر بحياتك، وإلاّ فليست جاهزية.

إن الدين اسمي من الحياة، لأن الحياة هي حياة مع الآخرين. الحياة علاقة، والدين هو اللاعلاقة.

الدين أعلى شأناً من الحياة، فهو القدرة على أن تكون وحيداً، وهو استقلال كامل عن الآخر. وما لم تكن على استعداد للتضحية بالحياة لأجله، وما لم تكن مستعداً لكي تموت بالكامل مثلما كنت ولغاية الآن، فأنت لست جاهزاً. في تلك الجاهزية، ثمة رسالة صغيرة يمكن أن تصبح قوية للغاية بحيث يمكن أن تحولك.

الدين لا يكترث بالآخرين، وبالتالي لا يكترث بالكتب والكلمات. الكلمات الحكيمة موجودة، لكنك لست الهدف بالنسبة لتلك الكلمات، ولم تكن موجهة إليك. لقد تحدث گريشنا مع أراجونا، وكان حواراً شخصياً. كما تحدث المسيح إلى تلامذته –وكانوا مجموعة صغيرة– وكان يعرف كل واحد منهم، ويعرف ما يقول، ويعرف لمن يقول ذلك. لكن الإنجيل أصبح ميتاً، والجيتا أصبحت ميتة.

الدين لا يشبه محطة إذاعية في الراديو، حيث لا تعرف إلى من تتحدث. عندما تتحدث عبر الهواء، فإنك لا ترى وجه المستمع، ومكان المستمع غير موجود. لا أحد موجود. ومن الممكن أن لا أحد يستمع للبث، وبالتالي أنت تتحدث إلى الفراغ. غير ان الدين يشبه رسالة شخصية، تكتبها لشخص ما، فقط لشخص ما؛ أي أن المقصود هو شخص ما. لهذا السبب لم أحاول أبداً كتابة أي شيء.. باستثناء الرسائل. فما لم تكونوا موجودين هنا، كمراكز حيّة، مستقبلة ومستمعة، فلا أستطيع قول شيء. إن ذلك مستحيل! لمن أقول ذلك؟ إنها ليس كلمات ميتة.

عندما يوجد مستمع، فيصبح الحوار حيّاً؛ وعندئذٍ يصبح حواراً ذو معنى لم يسبق لكتاب أن امتلكه. لذلك على كل شخص أن يسعى وراء معلّم حي. والواقع أنك تستطيع قراءة الجيتا.. وهي جميلة؛ كما يمكنك أن تقرأ الإنجيل.. وهو كتاب مدهش؛ لكن هذه الكتب قطع أدبية.. جميلة كالأدب، والشعر والنثر، لكنها ليست ديناً. الدين يحدث بين شخصين فقط: واحد يعرف، وآخر لا يعرف، لكنه جاهز لأن يعرف. والأمر الثالث، الذي يجب أن تتذكره، هو أن الدين يولّدُ فجأة.

هذه هي الأشياء الثلاثة التي يجب أن تتذكرها، وبعدها يمكننا الانتقال إلى هذه القصة:

ملك قوي، وحاكم للعديد من المقاطعات، وعلى قدر هائل من العظمة، إلى درجة ان الحكماء كانوا مجرّد موظفين لديه.

وهذا ممكن؛ إذ بمقدورك أن تستأجر حكماء. إذا كنت تمتلك ما يكفي من النقود، فمن الممكن أن يكون الحكماء مجرد موظّفين لديك.

كان لديه الكثير من الحكماء، لكنني لم أسمع أبداً بأن إمبراطوراً تعلّمَ أيّ شيء من أولئك الحكماء.

يقال إن الإمبراطور العظيم أكبر، كان لديه تسعة حكماء في بلاطه. وقد تحمّل نفقاتهم. كانوا يُسَمَّون الجواهر التسعة، لكنني لا أرى أنه تعلم منهم أي شيء أبداً، ذلك أن التعلم يحتاج إلى علاقة مختلفة: فالعلّم يتطلب من المتعلّم أن ينحني، ويستسلم. لذلك فكيف تنحني لخدّامك؟ إن هذا مستحيل تقريباً! يمكن أن تأمرهم، لكنك لا تستطيع أن تستسلم لهم.

يقال إن ذلك حصل في حياة أكبر، فقد استدعى حكمائه التسعة، وكان غاضب جداً، فقال: "أنتم موجودون هنا، والناس يقولون إنكم أعظم حكماء في العالم اليوم، لكنني لم أستطع تعلّم أي شيء منكم. فما هو الموضوع؟ إنكم هنا، وأنا بقيت على حالي؛ إذن ما الذي تفعلونه هنا؟

ثمة طفل جاء برفقة حكيم، وقد أراد أن يرى بلاط الإمبراطور. ضحك الطفل، بينما كان الحكيم صامتاً. فقال أكبر: "لماذا تضحك؟ هذه إهانة للبلاط! ألم يُخبرك والدك عن آداب السلوك؟

فقال الطفل: "إنني أضحك لأن هؤلاء الحكماء التسعة صامتين، وأنا أعرف لماذا هم صامتين، وأعرف لماذا لم تكن قادراً على الاستفادة منهم".

نظر أكبر إلى وجه الطفل البريء للغاية، ولكن القديم جداً وأيضاً. ذلك أنه عندما يكون الطفل بريئاً جداً، فيمكنك أن ترى القِدَمَ السحيق في عينيه أيضاً، لأنه ما من طفل يكون طفلاً. لقد عاش، واختبر الكثير؛ حمل كل المعرفة من جميع تجاربه في الماضي. فقال أكبر: "إذن هل يمكن أن تعلمني شيئاً؟".

فقال الطفل: "نعم!".

قال أكبر: "هات علّمني".

فقال الطفل: "إذن عليك أن تتبعني. تعال هنا إلى حيث اجلس، وأنا سأجلس على العرش. بعد ذلك تسأل كتلميذ، وليس كمعلّم".

ويقال إن أكبر فهم الأمر؛ فهؤلاء الحكماء التسعة كانوا بلا فائدة على الإطلاق.

لم يتعلّم الإمبراطور؛ ليس لأنهم لم يعلّموه –فقد علّموه– ولكن لأنه لم يكن جاهزاً، ولم يكن متلقياً، ولا متواضعاً بما فيه الكفاية.

يقال إنه جلس على الأرض، وجلس الطفل على كرسي العرش، وقال: "الآن اسأل كتلميذ، وليس كإمبراطور".

لم يسأل أكبر أيّ شيء. وقيل انه شكر الطفل، ولمس قدميه، ثم قال: "لا حاجة للسؤال. فبمجرد الجلوس بموقف متواضع عند قدميك، تعلمتُ الكثير".

إن التواضع هو الشيء الجوهري. فحتى من دون رجل حكيم، إذا كنت متواضعاً، ستتعلم الكثير. تستطيع التعلّم من الأشجار، والينابيع، والغيوم، والرياح. إذا كنت متواضعاً، فإن كل الوجود يصبح معلماً لك. ولكن إذا لم تكن متواضعاً، وكان بوذا موجوداً، فلن تحدث أية مودّة. بوذا حولك، لكن المودة لا تحصل، فأنت لست متواضعاً. الحقيقة أنك تريد أن تتعلم، ولكن دون أن تنحني، ودون أن تخفض أناك للأسفل.

ملك قوي، وحاكم للعديد من المقاطعات، وعلى قدر هائل من العظمة، إلى درجة ان الحكماء كانوا مجرّد موظفين لديه.

إنه لأمر سهل أن تجمع الحكماء حولك، لكن هذا ليس بيت القصيد. النقطة الجوهرية ليست في أن تجلب حكيماً إلى بيتك؛ وإنّما كيف تذهب إلى رجل حكيم، لأنك في عملية الذهاب نفسها تتعلم. كما أن هؤلاء الحكماء لم يكونوا حكماء حقيقيين أيضاً، لأن الحكيم لا يهدر حياته في القصور.

قد يكونوا مفكرين، وعلى معرفة كبيرة، وعلماء كبار. لكن المعرفة والحكمة شيئان مختلفان.

قبل أيام فقط كنا نتحدث عن حقيقة أن مسألة المعرفة خطيرة للغاية. فلو قال الطبيب للمرأة: "عليك الصوم لأربعين يوماً"، لكان ذلك معرفة، لكنه قال لها: "الآن لم تعد هناك إمكانية لأي علاج، تخلّي عن فكرة الإخصاب، وعن هذا وذاك. ستموتين في غضون أربعين يوماً". إن هذا الحكمة، وهذا هو الفرق بين المعرفة والحكمة.

المعرفة هي إجابة ميّتة. لقد تعلّمتَ شيئاً، وها أنت تستمر في تطبيقه على كل شيء. أمّا الحكمة فهي استجابة حيّة: تنظر إلى الحالة، ثم تستجيب. ليست الحكمة ردّة فعل، بل استجابة. عندما تردّ، فأنت ترُدُّ من الماضي. أمّا عندما تستجيب، فإنك تستجيب هنا والآن.

لقد نظر إلى المرأة، وإلى جسدها، فوجدها سمينة جداً. لقد شعر بقلب المرأة، وبنبضها. كان رجلاً يتسم بالحكمة؛ فقد ابتكر وسيلة. لقد كذب على المرأة بقوله: "سوف تموتين". بعد ذلك تغيّرت المرأة.

الناس الذين يذهبون إلى القصور والعواصم، هؤلاء يمكن شراؤهم، ولا يكونون على قدر كبير من الحكمة.

حدث في اليابان أن إمبراطوراً بات متلهفاً لمعرفة شيء عن الموت والحياة التي تتخطى الموت. كان لديه كل الحكماء في بلاطه، فسألهم عن ذلك، وقالوا: "لو عرفنا، لما كنا هنا. إننا جهلاء مثلك تماما. أنت غني، ونحن فقراء.. وهذا هو الفرق الوحيد بيننا وبينك. نحن لا نعرف، ولكن إذا أردت أن تعرف، فعليك أن تخرج من القصر. عليك أن تسعى وتبحث عن معلّم، فالمعلّم لا يمكن أن يأتي إليك. عليك أن تذهب إلى معلّم".

وقد حاول الإمبراطور؛ ذهب إلى كل الأشخاص المعروفين – وبالطبع! هذه هي الطريقة التي يبحث فيها المرء– لكن ذلك لم يقنعه. ثم رجع إلى قصره مرّة ثانية وقال لحكمائه: "لقد بحثت في كل أرجاء البلاد".

فقال له هؤلاء الحكماء: "إنك تبحث مجدداً بشكل خاطئ. إنك تذهب إلى الأشخاص المعروفين، ومن الصعب أن تجد معلِّماً هناك، لأنه في المقام الأول: من الصعب جداً على معلّم حقيقي أن يصبح معروفاً. وهذا نادراً ما يحصل. ثانياً، المعلم الحقيقي يحاول أن يُخفي نفسه بشتى الطرق، بحيث لا يصل إليه إلاّ الباحثين الحقيقين، وليس الفضوليين الذين يريدون السؤال عن شيء مرضي. لقد كنت تبحث في الأمكنة الخطأ".

كما قال له هؤلاء الحكماء: "نعرف شخصاً هنا، وفي هذه المدينة عاصمتك، ولكن عليك أن تذهب إليه".

كان الرجل متسولاً، عاش تحت جسر مع متسولين آخرين. لم يصدّق الإمبراطور ذلك، غير أن شيئاً انطلق من ذلك الرجل، شيء انبعث منه، شيء قادم من العالم الآخر، شيء مس فؤاده، بل قوّة مغناطيسية غيّرت نبضات قلبه. ودون أن يعرف السبب، ومن دون معرفة ما الذي كان يفعله: لمس لأول مرّة قدمي ذلك الرجل.

بعدها، صُدِمَ الإمبراطور نفسه بما فعله: لقد لمس قدمي متسوّل! لكن المتسول قال له: "أنت مقبول".

هذه هي الطريقة التي يبدأ فيها المرء بالتعلّم.

كان الرجل غنيّاً:

ملك غنيٍّ جداً، وحاكم للعديد من المقاطعات وعلى قدر هائل من العظمة، إلى درجة ان الحكماء كانوا مجرّد موظفين لديه.

الأغنياء من الناس يستطيعون شراء حكماء.. لكن هؤلاء الحكماء لن يكونوا حكماء حقيقيين، ذلك أنك لا تستطيع شراء الحكمة. تستطيع شراء ايّ شيء في العالم، لكنك لا تستطيع شراء الحكمة.

قيل إن ملكاً جاء إلى ماهافير، كان ملكاً شهيراً جداً اسمه براسنجت جاء إلى ماهافير وقال له: "أملك كل شي يمكن للعالَم

أن يقدمه. إنني في غاية الرضا، لم يعد هناك شيء لأحصل عليه. إن كل طموحاتي تحققت، لكن ثمة شيء وحيد يدور في ذهني: ما هو التأمّل؟ انا على استعداد لشرائه، مهما كان ثمنه. قل لي، وأنا سأدفع. إنه الشيء الوحيد الذي أرّقَني: ما هو هذا التأمل؟ ما هو السامادهي؟ ينقصني شيء واحد فقط؛ الشيء الوحيد الذي ينقصني من بين كنوزي هو السامادهي، التأمّل. أعطني إياه. سمعت أنك حصلت عليه، لذا أعطني إيّاه! مهما كان ثمنه، فلا تهتم للثمن".

فقال ماهافير: "لا حاجة لأن تقطع كل هذه المسافة البعيدة من عاصمتك لتأتي إلي، ففي عاصمتك نفسها يوجد شخص فقير جداً، وقد يبيعك إياه، لقد حصل عليه، ومن الأفضل أن تذهب إليه. كان ماهافير يمازحه، فقال: "لا أحتاج لبيعه. اذهب إلى ذلك الرجل الفقير في عاصمتك، وسيكون سعيداً".

رجع براسنجت، وتوجه على الفور إلى الرجل مصطحباً عدة عربات تجرها الثيران، ومحملة بالذهب، والماس، والزمرّد، والعديد من الثروات، وأفرغ كل العربات أمام بيت الرجل الفقير، وقال: "خذ كل هذا، وإذا طلبت المزيد فسأعطيك المزيد، ولكن أين ذلك التأمّل؟ أعطني إيّاه"!

أخذ الفقير يبكي ويذرف الدموع، وقال: "ربما أنا شخص فقير، لكن هذا مستحيل. أودّ أن أشكرك على كل ثرواتك التي أحضرتها إلي، لكن الصفقة غير ممكنة، فالتأمّل هو حالة للكيان، ولا يمكنني إعطاؤها لك. إنني على استعداد لأن أعطيك حياتي إذا احتاج الأمر. إنني أحبك وأحترمك، ومستعد لأن أعطيك حياتي. تستطيع أخذها الآن، وتستطيع أن تقطع رأسي، ولكن كيف يمكنني إعطاءك التأمّل، أو السامادهي"؟

انظر وحسب: حتى الحياة يمكن إعطاءها، ولكن ليس التأمّل. التأمل أسمى من الحياة. يمكنك التضحية بحياتك، لكنك لا تستطيع التضحية بالسامادهي، فهذا مستحيل! ثم إن الحياة يمكن أخذها منك، إذ يمكن لأي شخص أن يقتلك. إنك ما لم تحصل على السامادهي، فإنك لم تصل إلى الكنز الحقيقي. بل حتى الحياة ليست كنزاً حقيقياً. إن ما لا يمكن أخذه منك هو الكنز الحقيقي؛ حتى الموت لا يستطيع أخذه منك، وذلك هو المعيار.

مهما كنت تملك، فضعه دائماً على معيار: وهو ما إذا كان الموت يستطيع أخذه منك أم لا. ذلك ما ينبغي أن يصبح تأملك الفكري الثابت. فإن كان لديك المال: هل يفصلك الموت عنه أم لا؟ إن كنت تملك الجاه، أو السلطة السياسية، أو الشهرة، أو الجمال، أو القوة الجسدية، أو مهما ملكت، فضعه في معيار: ما إذا كان الموت يأخذه، وما إذا كنت ستنفصل عنه أم لا. سوف تجد أنه باستثناء السامادهي، فإن الموت سيأخذ كل شيء. لهذا يقول المتصوفة إنه من الأفضل أن تُميت كل هذه الأشياء التي سيأخذها الموت في نهاية المطاف. سوف تؤخذ منك في النهاية، فأمتها، وارتقِ بالسامادهي، لأنها الشيء الوحيد الذي لا يموت.

كان لدى الملك كل شيء؛ استأجر الكثير من الرجال الحكماء، لكنه لم يتعلّم أيّ شيء. فمن جهة، لابد وأن الحكماء لم يكونوا حكماء كثيراً، ومن جهة أخرى، عندما نستأجر حكيماً، فكيف يمكن أن تتعلم أي شيء منه؟ في الحقيقة ينبغي أن تصبح خادماً لدى الحكيم؛ يجب أن تنحني عند قدميه وتستسلم، وعندئذٍ فقط يمكن أن تتعلم. إن الحكمة هي كالماء المنساب نحو الأسفل. فالماء ينساب للأسفل، باحثاً عن فجوات، وأودية، وبحيرات، لكي يملأها.

فكن بحيرة؛ كن وادياً قرب الحكيم. لا تكن قمة في الأنا، بل كن وادياً، وسوف تمتلئ فجأة.

ورغم هذا شعر ذات يوم نفسه مشوشاً واستدعى حكمائه.

عندما تكون قد عشت طويلاً في وضع ثري، تأتِ اللحظة التي تشعر فيها بالخيبة من كل ما يمكن أن تمنحه تلك الثروة. عندما تعيش في القصور، فتأت اللحظة التي تشعر فيها بأن هذه ليست حياة، ثم يبدأ الموت بقرع الباب، وتدخل التعاسة، ولا تستطيع حماية نفسك من الكآبة.

هذا الملك، في ذلك الزمن، كان يعاني من مشكلة، فالدولة المجاورة كانت تخطط لمهاجمته، وتلك الدول المجاورة كانت دولة كبيرة، وأكثر قوة من دولته بكثير. لقد كانت تنتابه المخاوف: الموت، والهزيمة، واليأس بسبب الشيخوخة. بعدها بدأ بالبحث.

استدع حكمائه وقال لهم:

"لا اعرف السبب ولكن ثمة شيء يدفعني إلى البحث عن خاتم معيّن من شأنه ان يمكنني من تحقيق الاستقرار لحالتي. لابد ان امتلك مثل هذا الخاتم الذي يجب ان يجعلني سعيداً عندما لا اكون سعيداً، وفي الوقت ذاته، إذا كنت سعيداً ونظرت إليه، فيجب ان يجعلني حزيناً.

إنه يسأل عن مفتاح يمكنه فتح بابين: باب السعادة، وباب التعاسة. غير أنه يريد مفتاحاً واحداً لفتح لكلا البابين. إذن لابد انه بلغ فهماً معيّناً.

عندما كنت تعيش حياة غنية بالعديد من التجارب، السيئة والجيدة، فإنك تبلغ فهماً معيناً. أشعر دائماً أن الشخص الذي لم يعش بعدة طرق.. الخاطئة منها والصحيحة، الأخلاقية وغير الأخلاقية، والغني والفقر، الخير والشر.. الشخص الذي لم يعش كل المتناقضات، فلن يحصل على فهم عميق جداً للحياة. ربما يصبح قديساً، لكن قداسته ستكون قداسة هزيلة. عندما أصبح بوذا قديساً، أصبحت قداسته قداسة فريدة لا تقارن. فمن أين أتت هذه الفرادة لبوذا؟ لقد أتت من فهمه المتعدد الأبعاد للحياة. لقد عاش كل شيء، وعندما تعيش كل شيء، فسوف تسمو تدريجياً فوق كل شيء. والحقيقة أنك من خلال عيش المتناقضات سوف تتوصل إلى فهم أن ذلك عديم الفائدة.

من الجميل أن نتذكر حياة بوذا مراراً وتكراراً.

فعندما ولِدَ بوذا، قال المنجّمون: "إمّا أنّ هذا الصبي سيصبح تشاكرافارتن (إمبراطور العالم بأكمله)، أو سيصبح سانياسن (راهب). هذان هما الاحتمالان". وهما الاحتمالان الأكثر تطرفاً. إمّا إمبراطور العالم، أو شخص تبرأ من كل شيء وأصبح متسولاً على قارعة الطريق: راهباً متشرّداً لا مسكن له، وبلا جذور. يعني أنهما على طرفي نقيض.

فسأل والده: "كيف هذا؟ إنكم تتحدثون عن طرفي نقيض. فما معنى هذا؟"

فقال المنجمون: "هذه هي الحال دائماً. فعندما يولد رجل لكي يصبح إمبراطور كل العالم. او عندما يولد شخص قادر على أن يصبح إمبراطور العالم بأكمله، فإن الاحتمال الأخر موجود دائماً".

لا زال الأب لا يستطيع الفهم، فقال: "أخبروني بالتفصيل".

فقال المنجّم: لا نعرف كثيراً عن ظاهرة السانياسين، لكن هذا قيل كثيراً في الكتب المقدسة: وهو أنه عندما يملك المرء شيء، فإن صحوة مفاجئة تحدث له بحيث يصبح كل شيء لا جدوى منه".

والواقع إنّ المتسول وحده من يتوق للقصر؛ أمّا الشخص الذي في القصر فقد انتهى منه أصلاً. الرجل الذي لا يعرف امرأةً،

امرأة جميلة، فسيتوق لها دائماً. أمّا الرجل الذي عرف المرأة، فقد انتهى منها بالفعل. فقط المعرفة، والخبرة، هي التي تغيّرك. وبالتالي إذا كان هذا الرجل سيملك العالم برمته، فإلى متى يمكن أن يظل فيه؟ سوف يتبرّأ منه عاجلاً أم آجلاً. إن كل البوذاوات ولِدوا ملوكاً، وكل آلهة الهند ولدوا ملوكاً، وكل المستنيرين اليابانيين ولدوا ملوكاً. لقد عاشوا وانغمسوا بالكامل في كل شيء بحيث لم يكن هناك أي حاجز بالنسبة لهم، وقد سقطوا إلى قاع الظاهرة بالكامل، باكراً أو متأخراً، ولم يجدوا شيئاً.

والأمر يشبه تماماً تقشير بصلة. فماذا يحدث؟ إذا أزلت طبقة، فستكون هناك طبقة أخرى طازجة أكثر من الأولى. ثم تقشر الأخرى، فتظهر طبقة أجدُّ وأكثر نضارة من سابقتها. ثم تستمر في التقشير. لكنك إذا لم تقشّر البصلة حتى آخر طبقة فيها، فستظل تفكر دائماً بشيء لابد أنه مازال موجوداً. أمّا إذا قَشّرتها بالكامل، فستأتي اللحظة فجأة وتقول: لقد تم تهشيم الطبقة الأخيرة، ولم يعد فيها شيء. إنه الفراغ.

هذا ما يحدث للإمبراطور. إنه يستمر في تقشير بصلة الحياة؛ أي أنه يستطيع شراءها. أمّا الشحّاذ فلا يستطيع شراء البصلة كلها.. فماذا يفعل؟ يظلّ على المحيط الخارجي فقط. فإن استطاع تقشير الطبقة الأولى، فهذا كثير جداً: "إذن هناك طبقات أخرى! ويأمل دائماً بمكان ما في الداخل قائلاً: لم أحصل على النعيم وهذا العالم لأنني لا أملك العالم بأكمله بين يديَّ. لو أنني ملكت العالم برمته، فمن يدري؟ ... ربما أصبحت سعيداً، ولكنت قد وصلت إلى رضاً عميق". لا تزال لديه تلك الرغبة المورقة، أمّا الإمبراطور فكل البصل بين يديه.

لقد قال المنجمون لوالد بوذا: "هذه هي الحال دائماً. إن إمبراطور العالم لديه خيار بديل في أن يصبح راهباً". كما يصح ذلك من النهاية الأخرى أيضاً، حيث لم يقال ذلك في القصة، لكنني أود إضافة ذلك إليها: وهو أن الراهب هو دائماً إمبراطور العالم. عندما يحدث أن يكون هناك راهب، سانياسن، فهذا يعني أنه عاش كل التجارب من خلال الكثير من الحيوات، وانتهى منها. ذلك هو النضج. إن التشاكرافارتن، إمبراطور العالم، لديه خيار لأن يكون راهباً. فإذا أصبحتَ بالفعل راهباً، فذلك يدل على شيء واحد فقط: هو أنك كنت إمبراطور العالم؛ ليس في حياة واحدة فقط، بل في الكثير من الحيوات التي عشت من خلالها كل شيء.

كان والد بوذا قلقاً للغاية، فقال: "إذن ما العمل؟ لدي ابن واحد فقط، علاوة على أنه ولد في شيخوختي. لم أعد شاباً. كما أن زوجتي ماتت على الفور عندما ولِدَ بوذا، لذلك لا أمل لدى بالمزيد من الأولاد، وسوف تنهار المملكة بأكملها، فما العمل؟ اقترحوا شيئاً".

ثم اقترحوا، واقترحوا بمنتهى المعرفة. وهكذا تفشل المعرفة. لم يكونوا حكماء على الإطلاق. كانوا منجمين عظماء، وعلى معرفة بالكتاب المقدس، وبالكلمة، لكنهم لم يعرفوا الروح. لقد اقترحوا منهاجاً عادياً، شأنهم شأن أيّ شخص عارف يمكن أن يقترح، ولكن ليس شخصاً بذي حكمة.

اقترحوا قائلين: "افعل شيئاً واحداً: لا تسمح بأن يواجه هذا الصبي أيّ تعاسة، وأيّ الم، وأيّ حزن. لا تسمح له بأن يعرف أن الشيخوخة قادمة. لا تسمح بأن يعرف أن الناس يموتون. عليك أن تُعِدَّ له الكثير من النساء الجميلات حوله قدر ما تستطيع. دعه يعيش حياتاً ملؤها الانغماس، وبلا إحباط. فمن دون إحباط، لا أحد يمكنه أن يصبح راهباً أبداً".

كان هذا منطق جليٌّ، وهذا ما حصل. لم تكن هناك مصاعب؛ فقد رتب الأب ذلك. أنشأ ثلاث منازل من اجل بوذا، الثلاثة فصول، وفي أماكن مختلفة. يمكن ان يعيش في الصيف في منطقة باردة؛ وبتلك الطريقة ينتقل إلى منزل آخر كل اربعة أشهر، إلى قصور عظيمة. استدعيت كل فتيات المملكة الجميلات. لم يسبق أن مكث رجل مع الكثير من النساء الجميلات

معاً. لقد عاش بوذا منغمساً. ويقال انه لم يُسمح حتى للاذهار في حديقة بوذا بأن تموت. فقبل أن تبدأ الأزهار بالموت، كان لابد من إزالتها. لم يرى بوذا أبداً أي ورقة جافة، وكان لا بد من إزالتها في الليل حتى لا يتسنى لفكرة الموت بأن تنشأ أبداً، وحتى لا ينتهي إلى التفكير في حقيقة أن الحياة سوف تنتهي. لأنه إذا تسنى له ذلك التفكير، فعندها سيبدأ بالتفكير في التبرؤ من الحياة التي ستنتهي.

لم يعرف بوذا سوى الأشياء الجميلة، ولم يعرف سوى الأحلام، وقد عاش في تلك الأحلام، أمّا أن يعرف الحقيقة فذلك صعب جداً. لكن الحقيقة تتخلل كل حلم، ذلك أنه لا يمكنك تجنب الحقيقة. ومهما نجحت في ذلك، حتى مع وجود أب إمبراطور يتدبر كل شيء، فلن تتمكن من تجنب الحقيقة. إنها تبرز لك من هنا وهناك، وتتعثر بها. كيف تستطيع تدبّر أمر حلم يتواصل أربع وعشرون ساعة يومياً؟

في الليل كان بوذا يستمتع، والفتيات كن يرقصن. كانت هناك موسيقى عظيمة ورقص، وقد استمتع. بعد ذلك شعر بالنعاس. كان قد حل منتصف الليل، فتعبَ، كما أن كل الفتيات شعرن بالنعاس. فجأة، استيقظ عند منتصف الليل. ثم نظر إلى الفتيات: لم يعد الجمال موجوداً. كان اللعاب يسيل، فكان فم إحداهن مفتوحا، وكان يبدو قبيحاً جداً. فتاة أخرى كانت في كابوس، فأخذت تبكي وتنحب. لقد استيقظ فجأةً وقال: "كنت أظن أن كل هذه الفتيات كن في غاية الجمال.. فهل أصبحن فجأة قبيحات؟".

في تلك الليلة اخترقته الحقيقة، واحتفظ بها لنفسه.

ذات يوم، كان ذاهب للمشاركة في احتفال.

على الطريق شاهد رجلاً عجوزاً، ولم يكن بوذا قد شاهَدَ عجوزاً من قبل. ثم رأى شخصاً ميتاً محمولاً إلى المحرقة، ولم يكن قد شاهد ذلك من قبل. فسأل سائق العربة: "ما الأمر؟ ما الذي حدث لهذا الرجل؟ لماذا أصبح وجهه متغضناً إلى هذا الحد؟ ولماذا هذه الانحناءة في ظهره؟ ما المصيبة التي ألمت به؟

فقال السائق: "إنها ليست مصيبة يا سيدي، فذلك يحدث لكل جسد. إنه شيء طبيعي. إن كل جسد يصبح هرماً ومنحنياً".

لقد اخترت الحقيقة. ثم سأل: "ما الذي حدث للشخص الآخر؟ لماذا يحمله الناس على أكتافهم؟" فقال السائق: "هذا الرجل ميّت يا سيدي، وهذه هي الخطوة التالية بعد الشيخوخة".

ثم قال بوذا فجأة: "أوقف العربة! هل سأموت أنا أيضاً"؟

تردد السائق بالإجابة، فهو يعرف ما الذي كان يفعله والده. لكنه كان شخصاً صادقاً للغاية، وبسيطاً، وأصيلاً. فقال: "ليس مسموحاً لي بالقول، ولكن بما أنك طرحت السؤال، فلا يمكنني أيضاً بأن اكذب عليك. هذا الرجل ميّت. وانت ستموت مثل هذا الرجل أيضاً. إن كل شخص يولد سوف يموت".

بعد ذلك ظهر فجأة راهب كان يسير وراء الرجل الميّت، فسأل بوذا: "ما الذي حصل لهذا الرجل؟ ولما هذا الثوب البرتقالي"؟ لم يكن بوذا قد شاهد راهباً من قبل. والواقع أنك ما لم تر شخصاً ميتاً، فكيف يمكن أن ترى راهباً؟ إنها نتيجة منطقية: رجل عجوز، ثم رجل ميّت، ثم راهب.

إن القصة جميلة– سواء حدثت أم لم تحدث؛ فذلك ليس بيت القصيد. لكن القصة جميلة وحقيقية– إنها حقيقية لأنك بعد أن تواجه الموت، ما الذي سيبقى سوى الرهبنة؟

فقال سائق العربة: "هذا الرجل فهم أن الحياة تنتهي بالموت، وقد تبرّأ منها".

فقال بوذا: "عد إلى القصر، فقد تبرّأت منه".

في تلك اللحظة لم يستطع السائق فهم ما كان يقوله، لكن بوذا ترك القصر في المساء.

عندما تعيش الحياة بكلّيتها، فعليك أن تعتزلها! فقط أولئك الذين لم يعيشوا بحق، أو الذين عاشوا حياة فائرة، هم الذين يتشبثون بها. إن التعلق يدل على عقل جاهل لا يفهم. إن الاعتزال أمر بسيط، فهو ثمرة طبيعية؛ إنه نضج.

أولئك المنجّمون كانوا رجال معرفة. لقد ساعدوا بوذا، غير عارفين أبداً أنه سيعتزل حياة القصر. لو أنني سُئِلتُ، ولو أن والد بوذا صدهودان سألني، لما كنت اقترحت عليه ذلك، فهي الطريق الطبيعي الذي يؤدي إلى اعتزال الحياة، ولكنت اقترحت التالي: "قم بتجويع هذا الشخص، ولا تعطه الطعام حسب حاجته. جوّع هذا الشخص كثيراً بحيث يفكر ويحلم بالطعام. لا تسمح له بأن يلمس امرأة، أو يقترب من امرأة؛ أبقِ كل النساء الجميلات بعيدين بحيث يتوق لهن ويشتهيهن؛ جوَّعهُ جنسياً أيضاً. لا تبني له قصوراً كثيرة؛ دعه يعيش حياة متسوّل، وعندئذٍ لن يتبرأ من الحياة أبداً".

هذا ما حدث لكم جميعاً. لا تستطيعون التخلّي عن الحياة لأنكم عشتم حياة المتسول. ليس سوى المتسولون من لا يستطيعون التخلّي عن الحياة. أمّا الأباطرة فهم دائماً على استعداد للتخلّي. فقط الأباطرة من يصبحون رهباناً، وليس الشحاذين، إذ كيف يمكن لشحّاذ أن يفكّر بالتخلّي عن الحياة؟ إنه لم يحصل على أي شيء، فكيف يمكنه التخلّي؟ تستطيع أن تتخلى فقط عن الشيء الذي حصلت عليه. إذا لم يكن لديك، فلا يمكن أن تتخلى عنه. بل ما هو الشيء الذي ستتخلى عنه؟

هذا الملك وقع في أزمة كبيرة، فقد فهم أن السعادة والحزن ليسا مختلفين. لقد كان أكثر حكمة من حكمائه. ولهذا السبب سأل عن مفتاح يفتح كِلا البابين. والحقيقة أن السعادة والحزن ليسا إثنين. إنهما ظاهرة واحدة: وجهان لعملة واحدة. لذلك فإن مفتاحاً واحداً سيفتح كِلا البابين.

راقب نفسك؛ فعندما تكون سعيداً، هل تستطيع القول بيقين مطلق أن الحزن ليس موجوداً جنباً إلى جنب مع السعادة؟ ربما تكون السعادة في المركز، ولكن الا تنتظرك التعاسة عند الزاوية؟ ألا تبت فعلياً بذرة التعاسة في مكان ما من سعادتك؟ عندما لا تكون سعيداً، فهل أنت واثق بالمطلق من أنك ببساطة غير سعيد؟ أم أن هناك إمكانية ما لاكتساب القوة التي تحوّل التعاسة إلى سعادة؟

الأمر يشبه تماماً شروق الشمس في الصباح: لا يمكنك مشاهدة المساء وهو قادم، فالمساء يختبئ في الصباح.

إنه قادم بالفعل، فقد دخل مع الصباح. عندما يكون الضوء في قمته، والشمس في ذروتها، عند نقطة أوميغا، فمن الذي سيفكر بالليل والظلام؟ غير أنه داخل نقطة أوميغا تلك، توجد بذرة الليل، تنمو وتنتظر وقتها. وعند نقطة أوميغا تلك، تكون قد بدأت الشمس بالتوضع أصلاً، والتحرك نحو الغرب بالفعل. وفي الليل الحالك، يتشكل الصباح، وها هو موجود في الرحم. والأمر ذاته ينطبق على كل الأشياء المتعاكسة، فعندما تقع في الحب، فإن الكراهية تكون موجودة في داخله كبذرة. وعندما تكره، فإن بذرة الحب تكون موجودة فيه. عندما تكون سعيداً، فقد بدأت فعلاً بالتحرك نحو التعاسة. وعندما تكون

حزيناً، فانتظر قليلاً: إن السعادة تقرع الباب فعلاً، أو أنها دخلت الباب.

إن المتعاكسات موجودة معاً، وهذا فهم عظيم. والواقع أنه عندما يكون الفهم موجوداً، فالمفتاح ليس ببعيد.

... فقال الملك: "لست اعرف السبب"..

لا أحد يعرف السبب. لقد أتيتم إليَّ، فهل تعرفون السبب؟ لماذا أتيتم إلي؟ لا أحد يعرف السبب، لكن ثمة رغبة عميقة غير واعية قد جلبتكم إلي. ولن تكونوا مثلما كنتم مرة أخرى. لقد أصبحت جزءاً منكم، أصبحت عضوا منكم. وحتى لو نسيتموني بالكامل، فلن تعودوا كما كنتم مرة أخرى. وسوف أبقى في نسيانكم.

هل تعرفون سبب مجيئكم – من عدة بلدان، ومن مناطق مختلفة من العالم – إلى شخص لا يملك شيئاً يقدمه لكم؟ فما هو السبب؟ لماذا جئتم إلى هنا؟ قد لا تدركون السبب الآن، لأن السبب موجود في اللاوعي، ولكن كلما مضيتم في التأمل بشكل أعمق، فسوف تصبحون شيئاً فشيئاً مدركين بأن الحياة هي التي قذفتكم نحوي؛ إنها الحياة بتعاساتها، وإحباطاتها.

بالطبع هناك لحظات من السعادة، لكن التعاسة حجمها أكبر إلى درجة أنها تسمم تلك اللحظات السعيدة. لقد أحببتم واستمتعتم ببعض اللحظات، لحظات القمة؛ كنتم في نشوة، ولكن بعدها سقطتم مجدداً في الوادي. أتيتم إليَّ لأنكم شعرتم بصورة غير واعية بأن السعادة والحزن شيء واحد، وأنكم إذا مضيتم في التوق إلى السعادة، فسوف تستمرّ تعاستكم.

قال الملك: لا اعرف السبب لكن شيئاً يدفعني للسؤال من خاتم معيّن..".

ثمة قصة تكمن خلف هذه القصة. يقال إن المتصوفة لديهم خاتماً – وهي طريقة غامضة لقول الأشياء–، فإذا استطعت الحصول على ذلك الخاتم، فسوف تتخطى الحياة والموت؛ ستذهب إلى ما بعد العتمة والنور؛ إلى ما بعد السعادة والتعاسة. ستذهب إلى ما بعد الثنائية. لدى المتصوفة خاتم، إذا اقتنيته... لابد وأن الملك سمع بذلك، فقال:

"لا اعرف السبب ولكن ثمة شيء يدفعني إلى البحث عن خاتم معيّن من شأنه ان يمكنني من تحقيق الاستقرار لحالتي، ولكياني. لابد ان امتلك مثل هذا الخاتم، وهذا الخاتم يجب ان يجعلني سعيداً عندما لا اكون سعيداً...".

إنه يسأل عن صيغة خيميائية سرية: "يجب أن يجعلني تعيساً، وحزيناً، عندما أكون سعيداً، ويجعلني سعيداً عندما أكون حزيناً.

ما الذي يسأل عنه؟ إنه يسأل عن التمكّن من مزاجه. وهذا هو التمكّن الوحيد! فعندما تكون غير سعيد، فأنت غير سعيد، ولا تستطيع فعل شيء، وأنت مجرد ضحية. فتقول: "إنني غير سعيد، ولا أستطيع القيام بشيء". عندما يأتي، فلا بأس.. فأنت غير سعيد. وأحيانا تكون سعيداً؛ ولا يمكنك فعل شيء أيضاً. عندما يأتي، فلا بأس، فأنت لست سيّداً.

ما الذي يقوله؟ إنه يقول: "أنا أبحث عن صيغة سرية تمكنني من أن أصبح سيّد أمزجتي. وعندما أريد تحويل سعادتي إلى تعاسة، فيمكنني ذلك. وعندما أريد تغيير تعاستي إلى سعادة منتشيه، فأستطيع ذلك".

ما الذي يقوله؟ يقول إنه يريد أن يصبح سيّد أمزجته؛ يريد أن يشكّل أمزجته: أي أنه لا يريد أن يكون ضحية. مهما كان ما يريده، المهم أن يستطيع تشكيله كما يريد. كما أن هناك صيغة ما. وهناك خاتم مع رسالة سريّة في داخله، تستطيع التحويل. عندها يكون أمراً مدهشاً حين تستطيع تغير امزجتك. كما لو أنك تضغط على زر التشغيل أو الإطفاء.

".. عندما أكون غير سعيد، فيجعلني سعيداً، وفي الوقت ذاته، إذا كنت سعيداً، ونظرتُ إليه فأغدو حزيناً".

في الحقيقة، سوف توافق على العبارة الأولى. أمّا بالنسبة للثانية، فسوف تقول: "ما الداعي لذلك"؟ غير ان كلتا الحالتين موجودتان معاً: فإن أصبحت سيد الأولى، فستصبح سيد الأخرى أيضاً. كما أنه ما من شيء خاطئ في كونك حزيناً إذا كنت السيّد.

الحزن لديه عمقه الذي لم يكن للسعادة قط. الحزن له جماله، جمال في غاية النعومة والعمق. لم يكن للسعادة ذلك العمق، فالسعادة تتسم بضحالتها، وابتذالها. أمّا الحزن فيتسم بالعمق والثراء الذي لا يمكن للسعادة أن تملكه. إنك لم تستمتع لأنك لم تكن قادراً على جلب وعيك نحوها. عندما يصبح المرء أكثر وعياً، فإنه يستمتع بكل شيء، حتى بالحزن. بعدها يهدأ الحزن مثل أي شيء يهدأ، ثم يتحول كل شيء إلى صمت. حتى الطيور لا تغرّد. وحتى الريح لا تعصف.. فكل شيء يصبح صامتاً، وكل الأشياء تهدأ في استرخاء عميق.

الحزن جميل لو كنت تعرف. إن كنت لا تعرف أن السعادة ليست جميلة، فكيف يكون الحزن جميلاً؟

لقد قال الملك: "أريد أن أصبح سيّد أمزجتي"، وهذا سبب قوله: "لكي تستقر حالتي". إذا لم تكن سيد أمزجتك، وكانت تنفجر من تلقاء نفسها، فكيف يكون هناك استقرار؟ وكيف يكون لك كيان واضح؟ إن المزاج يأتي فجأة، إذ تكون غير سعيد، فيبدأ كل ما في داخلك بالارتعاش. ثم يأتي مزاج آخر، حيث تكون سعيداً، فتحصل الاستثارة مجدداً، فيرتعش كل ما في داخلك. هل لاحظت أن المزاج السعيد الطويل الأمد يتعبك أيضاً؟ ذلك لأنه اهتياج. والحقيقة أنه لا يمكنك أن تكون سعيداً لفترة طويلة، وإلاّ سيكون ذلك فوق طاقة جسدك، وعقلك، كما أن كيانك النفسي سيكون مرهقاً أيضاً.

إنك لا تقدر على ذلك لأنه يجعلك ترتجف، فهو يشبه الحمّي. لا يمكن للبشر أن يظلوا سعداء للأبد. سيموتون؛ سوف يصابون بأزمة قلبية، وبارتفاع ضغط الدم، والكثير من الأمراض.

ما يحصل هو أن التعساء يعيشون أكثر من الأشخاص السعداء، ذلك أن التعساء هم أقل اهتياجاً من السعداء. إن الهيجان، أو الاستثارة، تشكل عبئاً على القلب، فالأشخاص الناجحين هم أكثر عرضة للأزمات القلبية من الأشخاص الفاشلين. والحقيقة أن الأشخاص الفاشلين لا يعانون من الأزمات القلبية. فما الفائدة من أن تكون لديك أزمة قلبية؟ إن الأزمة القلبية هي شهادة طبية على أنك شخص ناجح. يأتي النجاح بين سن الأربعين وخمسة وأربعين، لأنه ذلك السن هو ذروة نجاح الإنسان. بعدها تأتي الأزمة القلبية، ذلك أن النجاح يجلب المزيد والمزيد من الإثارة.

الناس التعساء، والحزانى، يعيشون أطول؛ يعيشون من خمسة إلى عشرة سنوات أكثر من الناس السعداء، والناجحين. فما هي المسالة؟ الأشخاص الحزانى هم أكثر استقراراً، ففي كآبتهم يكونون أقل استثارة. فإذا حاولت أن تفهم كلا الظاهرتين بعمق، فستجد أنهما في علاقة متبادلة، وأن كل منها تتحول إلى الأخرى. إنها تشبه الدولاب، العجلة: فأحياناً يكون دليل السعادة في القمة، وأحياناً يكون في الحضيض، بينما يكون الدليل الأخرى القمة. وتستمر العجلة بالدوران، وأنت واقع في قبضتها، كما لو أنك مربوط بالعجلة وتتحرك معها. فكيف يمكن أن تستقر؟ إذن، الملك على حق. فهو يقول: "بحيث تصبح حالتي مستقرّة، وبحيث أستقر من داخل كياني. أريد أن أمتلك خاتم المتصوفة الذي تحدثوا عنه، فأين أجد ذلك الخاتم؟

فاستشار الحكماء بعضهم البعض..

لهذا السبب أقول إنهم لم يكونوا حكماء كثيراً، فالخبراء هم من يستشيرون، وليس الحكماء، إن كلمة "خبراء" تعني الأشخاص ذوي المعرفة؛ وهم من يستشيرون بعضهم البعض. بما أنك قد لا تعرف أمراً ما، فقد يعرف الآخر. غير أن الحكيم يعرف بكل بساطة! ليست المسألة أن تفكر بالأمر، فالحكيم ليس مفكراً، بل بساطة، هو رجل يعرف! ويستجيب بكل كيانه. والواقع

أنه لا يوجد حكيم واحد يستشير.

فاستشار الحكماء بعضهم البعض، ورموا بأنفسهم تأمّل عميق.

في الحقيقة لا يحتاج الحكيم أن يرمي بنفسه في تأمّل عميق، فهو موجود فيه. بل هو التأمّل العميق. وحدهم الحمقى من يتأملون، أمّا الحكيم فلا يتأمّل، لأنه التأمل ذاته. غير أن هؤلاء لم يكونوا أناساً حكماء.

في النهاية توصّلوا إلى قرار بشأن فعل هذا الخاتم الذي يناسب ملكهم.

أعرف نسخة أخرى من القصة، وأعتقد بأن النسخة الأخرى هي الأفضل. وهي أنهم لم يصلوا إلى أية خلاصة، ويبدو أن ذلك صحيحة: فكيف يمكن للخبراء أن يصلوا إلى نتيجة؟ يستطيعون أن يتشاجروا، ويتجادلوا.

هل سبق لك أن عرفت أشخاصاً جدليين، وفلاسفة، ولاهوتيين، توصّلوا إلى أية نتيجة؟ كلا. حتى لو أعطيتهم نتيجة خلصتَ إليها بالفعل، فسوف يتقاتلون على تلك النتيجة، ويذهبون في اتجاهات مختلفة. هذا ما كان يحدث دائماً.

لقد حدث ذلك مع فرويد. وهو رجل ذو معرفة كبيرة، لكنه ليس حكيماً، ليس حكيماً بمعنى أن بوذا كان حكيماً.. كان فرويد مفكراً عميقاً جداً، وصاحب نظرة ثاقبة. لكن تلامذته – مثل كارل غوستاف يونغ، أدلر، وغيرهم– ممن جاؤوا إليه معتقدين أن هناك نتيجة، وأنهم وجدوا شيئاً ما من هذا القبيل.. قد ثبتَ ببساطة أنهم وصلوا إلى تقاطع طرق حيث انفصلوا عن بعضهم البعض، وذهب كل تلامذته باتجاهات مختلفة. أمّا من بقي معه فكانوا شخصيات ثانوية. فمن بين من بقي معه، لم يكن هناك عبقري واحد. لقد رحل كل العباقرة.. تجادلوا، وتقاتلوا، وافترقوا، ثم أصبحوا أعداء.

يستحيل على رجال المعرفة أن يخلصوا إلى شيء. النسخة الأخرى تقول إنهم لم ينتهوا إلى شيء، فذهبوا إلى قديس متصوف، وطلبوا نصيحته. القديس الصوفي كان يملك الخاتم بالفعل، ذلك أن الحكماء يملكون الخاتم أصلاً. خلع الخاتم من إصبعه وأعطاه لهم، وقال: "أعطوه للملك، ولكن قولوا له أن هناك شرط واحد: يجب أن يكشف الخاتم فقط عندما يشعر أنه يستحيل عليه الآن أن يتسامح.

ثمة رسالة مخبّأة تحت حجر الخاتم، ولكن لا ينبغي فتحها بدافع الفضول، لأنه عندئذٍ سيخسر الرسالة. الرسالة موجودة، لكنك تحتاج إلى اللحظة المناسبة في وعيك لكي تستقبلها. إنها ليست رسالة ميّتة بحيث تفتحها وتقرأها. إنها مكتوبة تحت الحجر، ولكن يجب أن يتحقق الشرط: عندما تفقد كل شيء، ولا يعود العقل بمقدوره فعل شيء، وعندما يكون التشوش كاملاً، والكرب في أوجه، ولا تستطيع فعل شيء، وعاجز تماماً، فعندئذٍ فقط يجب فتحه، وستكون الرسالة موجودة".

إن هذا صحيح. وأود أن أضيف هذا الشرط أيضاً، لأنه بدون هذا الشرط، فذلك يعني أن الرسالة موجودة، ويمكن لأي شخص قراءتها؛ عندئذٍ لا تعود للرسالة قيمة كبيرة. عليك أن نرتقي إلى وعي معيّن؛ وعندئذٍ فقط بمقدورك أن تفهمها. إن الفهم ليس من الكلمات، بل في داخلك انت. الكلمات ليست سوى سبب للفهم، وهذا كل شيء، ولكن يجب أن يكون الفهم موجوداً لكي تشغله الكلمات.

أطاع الملك شرط الرسالة، فقد ضاعت البلاد، وأصبح العدو منتصراً. أتت لحظات كثيرة عندما كان على وشك أن ينتزع الحجر ويقرأ الرسالة، لكنه وجد أن الشرط لم يكتمل: "لازلتُ حيّاً. حتى لو فقدتُ المملكة، فبمقدوري استردادها، ويمكن إعادة احتلالها".

طار خارج المملكة فقط لكي ينجو بحياته. ثم لحق به العدو، ويمكنه سماع الخيول، فأصواتها تقترب أكثر فأكثر.

ثم تابع الجري. لقد خسر أصدقاءه، ومات حصانه، فأخذ يركض على قدميه. أُدميت قدماه، وانقطعت السبل. وبات لا يستطيع التحرّك ولو بوصة واحدة، وكان عليه أن يتابع الركض. إنه جائع، والعدو يقترب أكثر فأكثر، وقد وصل إلى طريق مسدود. انتهى الطريق، ولم يعد أمامه مهرب. لم تكن هناك سوى الهاوية، والعدو يقترب أكثر فأكثر. لا يمكنه العودة؛ فالعدو هناك، ولا يستطيع القفز. الهاوية كبيرة جداً، وسوف يموت بكل بساطة. والآن لم تعد هناك أية إمكانية، لكنه مازال ينتظر الشرط، فهو يقول: "مازلت حياً. ربما يذهب العدو باتجاه آخر. ربما أموت إذا قفزت إلى هذه الهاوية. الشرط لم يتحقق بعد". بعدها شعر فجأة أن العدو أصبح قريباً جداً. عندما نظر إلى الهاوية لكي يقفز، شاهد أسدين في الهاوية جاءا للتو، وكانا ينظران إليه، بجوع وشراسة. والآن لم تتبقى له أية لحظة، والعدو يقترب أكثر فأكثر، وبات يعد لحظاته الأخيرة على أصابع يده.

أخذ الخاتم فجأة وفتحه. ثم نظر خلف الحجر. هناك رسالة، والرسالة تقول: **"هذا أيضاً سينقضي"**.

فجأة هدأ كل شيء.. "هذا أيضاً سينقضي". وبالطبع، حدث أن تحرك العدو في اتجاه آخر، ولم يعد يسمع ضجيجهم كثيراً؛ لقد ابتعدوا أكثر، فجلس أرضاً.

ها هو يأخذ قسطاً جيداً من النوم والراحة. وفي غضون عشرة أيام، يجمع جيوشه ويعود، ويعيد فتح البلاد، وها هو في قصره مجدداً. ها هي البهجة العظيمة والاحتفالات في كل مكان، والناس شديدي الحماسة إلى حد الجنون؛ يرقصون في الشوارع.

الكثير من الألوان والأنوار والألعاب النارية، الملك تملأه الحماسة الكبيرة، وتغمره السعادة، وتتسارع ضربات قلبه إلى درجة ظن فيها أنه سيموت بسبب السعادة. ثم فجأة تذكر الخاتم، ففتحه ونظر داخله. لقد كُتِب هناك: "وهذا أيضاً سينقضي". ثم عاد واسترخي. ويقال إنه وصل إلى الحكمة المثالية من خلال هذه الرسالة: **"هذا أيضاً سينقضي"**.

عندما ينتابك مزاج من الغضب، أو الكراهية، أو الانفعال، أو الرغبة الجنسية، أو الكآبة، أو الحزن، أو قدر من السعادة، حتى أثناء التأمّل، فتذكّر دائماً: هذا أيضاً سينقضي. دع ذلك يصبح انتباهك الدائم: هذا أيضاً سينقضي.

ماذا سيحدث إذا تذكرت ذلك باستمرار؟ حينها السعادة لن تكون سعادة.. ستكون مجرّد مرحلة، مجرّد غيمة تأتي ثم تمضي. السعادة ليس أنت! إنها تأتي وتذهب. إنها ليست كيانك. بل هي شيء عرَضي. شيء على المحيط الخارجي، وأنت الشاهد.

عندما تتذكّر: هذا أيضاً سينقضي. هذا أيضاً سينقضي. هذا أيضاً سينقضي، فسوف تنفصل عنها فجأة. إنها تأتي إليك، لكنها ليس أنت. أنها تمضي بعيداً، فتتركك وراءها: سليماً، ونقياً، عندما تأتي التعاسة، فدعها تأتي. وما عليك سوى أن تتذكّر: إنها أيضاً ستقضي. عندما تأتي السعادة، فتذكّر: إنها أيضاً ستنقضي. وشيئاً فشيئاً، ستتشكّل مسافة بينك وبين الأمزجة. ولن تعود محدداً بها، فقد أصبحت شاهداً، تنظر إليها وحسب، كمتفرّج. لم تعد مهتماً، فقد أصبحت غير مُبالٍ.

يهبط عليك الصمت.. الصمت الذي لم تخلقه أنت.. الصمت الذي ليس سكوناً مفروضاً، وإنما الصمت الذي هبط إليك فجأة من مصادر مجهولة، من الإلهي، من الكلّي، بعدها تصبح مثل الكريستال. فلا شيء يقض مضجعك، ولا شيء يجعلك ترتجف. لا شيء!... سواء كانت السعادة، أو الحزن. بعد ذلك تعرف أن كلاهما الشيء ذاته: فإذا كان الوجه هو السعادة، فإن القفا هو التعاسة. وإذا كان الوجه هو التعاسة، فإن القفا هو السعادة. إنهما الشيء ذاته. عندما تتجه نحوك السعادة، فتبدو سعادةً؛ وعندما تبتعد عنك، فانظر إلى ظهرها: إنها التعاسة.

فكلما زادت المسافة، كلما كبر وعيك. وكلما كبر وعيك، كلما كبرت المسافة. فتصبح مستقراً، وتصبح بوذا تحت شجرة بوذا.

لكن ذلك لن يحصل لك حتى تموت كما كنت. وهذا هو الانبعاث من جديد، والولادة الجديدة تماماً. يجب فسح المجال للقديم بالرحيل: مواقفك القديمة، ومفاهيم، وفلسفتك، وأيديولوجيتك، وهويتك القديمة، وأناك القديمة، يجب السماح لها بالرحيل لأجل الجديد. الجديد موجود دائماً، لكنه لا يجد متسعاً في داخلك لكي يأتي.

لقد جاء الضيف، لكن المضيف ليس مستعداً. اعطه متسعاً! فلتفسح المجال في داخلك. أوجِد غرفةً، اوجِد فراغاً.

هذه الرسالة مدهشة، وهي المفتاح العمومي، فتذكّر ذلك.

الخاتم الذي ابتكروه كان على غرار الخاتم الذي نقشت عليه الأسطورة "هذا أيضاً سينقضي".

اسمح لهذه العبارة بأن تصبح ذكرى ثابتة. دعها تتعمق أكثر بحيث تعرف حتى في نومك وأحلامك أنّ: هذا أيضاً سينقضي. دعها تصبح تنفّسك الموجود والحاضر باستمرار، لأن ذلك الحضور سيحوّلك. إنها مفتاح كل شيء؛ تستطيع فتح الباب الأكثر سرّية في كيانك، ومن خلالها ستعبر إلى كيان الوجود ذاته.

الفصل التاسع:
تكاد تموت من العطش

الله يمكن أن يقرع بابك في أيّ وقت، فإذا لم تكن يقظاً، فسوف تفوّت الفرصة

سُئِل الشبلي: "من ارشدك على الطريق؟".

فقال: "أرشدني كلب. فذات يوم شاهدته يكاد يموت من العطش، وكان يقف قرب حافة الماء. كلما نظر إلى انعكاسه على صفحة الماء فكان يرتعب ويتراجع، لأنه ظن ان هناك كلب آخر.

في النهاية، وبسبب حاجته البالغة للماء، طرح الخوف جانباً وقفز في الماء، إلى حيث اختفى انعكاسه.

وجد الكلب ان العقبة كانت هو نفسه، وأن الحاجز الذي بينه وبين ما يسعى اليه قد ذاب.

وبالطريقة ذاتها زالت عقبتي عندما عرفت انها كانت ما قررته بنفسي. لقد بانت لي الطريق في البداية من خلال سلوك كلب".

أنظر إليكم.. فلا أرى أيّ حاجز سوى أنفسكم. أنتم تقفون في طريقك أنفسكم، وما لم تعوا ذلك، فلا توجد إمكانية نحو النمو الداخلي.

لو كان شخص آخر يشكل لكم حاجزاً، لأمكنكم تفاديه، ولأمكنكم تجاهله. لو كان شخص آخر يشكل لكم عقبة، لأمكنكم تخطيه. لكنكم أنتم الحاجز، فلا يمكنكم تفاديه.. فمَنْ سيتفادى مَنْ؟ إنكم العقبة التي لا يمكنكم تخطيها.. فمَنْ سيتخطى مَنْ؟ إنكم لا تستطيعون الهرب، لأنكم ستكونون موجودين في أيّ مكان ستذهبون إليه.

عائقكم هو أنتم، وسيتبعكم كالظل.

هذا ما يجب أن تفهموه بأعمق ما يمكنكم.

كيف ينشأ هذا العائق؟ ماهي آلية الأنا التي أصبحت عائقاً؟

ثمة قشرة صلبة تحيط بكم.. فلا تستطيعون التحليق في السماء، ولا تستطيعون الانفتاح على عالم المحبة والصلاة.

إن هذه صَدَفَة الأنا، فكيف ولدت؟ إذا استطعت أن تفهم كيف تولد الأنا، فسوف تعرف سر إذابتها. إن عملية الفهم ذاتها لنشوء الأنا تصبح حرية.

تولد الأنا– باعتبار أنك لا تعرف نفسك – من خلال الانعكاسات. فأنت ترى انعكاسك في عيون الآخرين، وفي وجوههم، وفي كلماتهم، ثم تمضي في مراكمة تلك الانعكاسات، غير مدرك من تكون أنت، وعليك أن تبحث عن هوية.

يولَدُ الطفل، وهو لا يعرف نفسه من يكون. ولكن عليه أن يعرف من يكون، وإلاّ فلن يتمكن من العيش في هذا العالم، ولا يمكن أن يصبح بوذا على الفور. حتى إنه لا يعرف المشكلة، فهو لم يدخل العالم بعد. سوف يدخل إلى العالم حقيقةً عندما يبدأ بالشعور بنفسه من يكون.

لهذا السبب لا تستطيع تذكّر الكثير من الأشياء في طفولتك. فإن عدت للخلف، فستكون قادراً على التذكّر لغاية السن الثالثة، أو الرابعة من عمرك، ولن تستطيع النفاذ إلى أبعد من ذلك. إذن، ما هو الموضوع؟ ألا تعمل الذاكرة؟ ألم تكن هناك أية تجارب أو بصمات أو انطباعات على العقل؟ لقد كانت موجودة! في الحقيقة إن الطفل الصغير بعمر ثلاثة سنين، أو بعمر سنتين هو أكثر قابلية للتأثر من أي فترة مضت. إن ملايين التجارب تحدث للطفل، ولكن لماذا لا تكون الذاكرة حاضرة؟ ذلك لأن الأنا لم تنضج بعد، فمن سيحمل الذاكرة؟ ما الذي سيكون نواة الذاكرة؟ إن الطفل لم يحدد من هو بعد، ولم ينشأ أيّ تحديد للهوية بعد.

كيف سيحصل على الأنا؟

سوف ينظر في عينين والدته. فإذا كانت عيناها سعيدتان، فيبتسم. إنه يجمع الانطباعات: "لابد أنني جميل، ولابد أنني رائع، وقيّم، وثمين. عندما تقترب منه الأم، فتصبح سعيدة جداً. عندما تأتي وتقبّله، فإنه يجمع الانطباعات. عندما يأتي الأب فيصاب الأب بالجنون: يرمي بالطفل في الهواء، ويلاعبه. بينما الطفل يراقب. يصبح الأب مرآة، وكذلك الأم. ثم يأتي الجيران.. والطفل يراكم تدريجياً، ويملأ عقله بمن يكون.

لهذا السبب، عندما يؤتى بالطفل من دون أمه، فسوف يفتقر دائماً إلى شيء ما في هويته. ولن يكون قادراً على أن يحب نفسه، لأن الانطباع الأساسي لشخص يحبه ليس موجوداً. وسيكون بشكل من الأشكال متذبذباً؛ أي أنه لن يكون موثوقاً. إن الأم تمنح الثقة واليقين: بأنك محبوب، وبأنك غال، وبأنك تجعل الناس سعداء، وبأنك لا تقدر بثمن. أمّا عندما يبدأ الطفل بالتنقّل، فيكون حوله الجيران، ثم الأصدقاء، ثم أساتذة المدرسة، مشكلين ملايين الانطباعات، وملايين المرايا حوله. ثم يستمر في تجميعها.

وبالطبع، في وقت قريب جداً، يبدأ بحفظ الانطباعات في أقسام: يُقّدّر أولئك الذين يحبونه، ولا يحب الذين يكرهونه، ثم يمضي في رمي الكثير من الانطباعات التي ليست جيدة بالنسبة للانا في الجزء السفلي من عقله، في اللاوعي.

أحدهم كان يضربه، وآخر كان يقول له: "أنت قبيح، والأستاذ الذي يقول له: "أنت غبي". إنه يمضي رمي هذه الانطباعات في اللاوعي. إذن، بدأ التقسيم.

إن الوعي هو ذلك الشيء الذي تعتز به وتحبه؛ إنه صورتك الجميلة في اللاوعي ترمي الصورة القبيحة؛ لقد دخل التقسيم إلى العقل، وهذه بداية فصام الشخصية. فإذا مضيت إلى التطرف في ذلك، فسوف تصبح منقسماً إلى شخصيتين. والواقع أنك في الوضع الطبيعي أيضاً لا تكون شخصاً واحداً، بل اثنين: فعندما تكون في حالة غضب، فإن الشخصية المقموعة تستحوذ

عليك. راقب شخصاً دخل في حالة غضب كيف يتغيّر وجهه، وكيف تتغيّر عيناه، وكيف يتغيّر سلوكه. فجأة لا يعود الشخص ذاته؛ كما لو أن جسماً غريباً دخل فيه، وأصبح كالممسوس. سوف يفعل أشياء لا يتخيّل هو نفسه انه يستطيع فعلها. كما يمكن أن يرتكب جريمة أثناء الثورة والغضب، ولن يكون قادراً على فهم كيف حصل ذلك. إن العديد من المجرمين في المحاكم يقولون إنهم لم يقتلوا أبداً، وهم لا يكذبون. وفي الحقيقة هم لم يفعلوا ذلك قط، بل شخص آخر، إنها شخصية نائية، لم يتحددوا بها، قد استحوذت عليهم.

انظر إلى شخص وقع في الحب: فجأة يحدث التحوّل: فلا تعود عيناه كما هي؛ حيث يشع منهما بريق جديد. ووجهه لا يعود كما هو، فيصبح ناعماً. إنه يصبح أكثر تدفقاً. فمن العتمة يولد الصباح فجأة، وفي أعماقه تغرّد الطيور، وتتفتح الأزهار.

في الحب يصبح الإنسان مختلفاً تماماً. أمّا أثناء الغضب، فلا يمكنك جمع هذين الشخصين معاً. إنهما شخصيتان مختلفتان. فأثناء الغضب تصعد هويتك التي قمعتها في اللاوعي؛ وفي الحب، تكون هويتك التي تعتز بها دائماً.

هذا الانقسام هو سبب كل المآسي التي تحصل للبشرية، وسبب كل النوبات التي تحدث للعقل البشري. وما لم تزول هذه الانقسامات، فلن تكون كلّياً أبداً. ما لم تختفي هذه الانقسامات، فلن يكون باستطاعتك أن تعرف من أنت. إن الوعي زائف مثل اللاوعي، لأن كلاهما مجرد انعكاسات تجمّعت من الآخرين. لم يصادف أن التقيت بنفسك مباشرة، وإنّما عبر الآخرين. هناك بعض المرايا التي تبدو فيها جميلاً، ومرايا أخرى تبدو فيها قبيحاً. هناك بعض المرايا تبدو فيها إلهاً، ومرايا أخرى تبدو فيها مجرد حيوان.

تلك كانت ملاحظتي، وهي أنه مهما كانت هويتك، ومهما كانت أناك، فإنك مشوش في أعماقك: لأن الجزء الآخر المدان موجود دائماً، وفي أساساتك موجود دائماً، وأنت دائماً شخص مهزوز ومرتبك. والحق أنه إذا سألك شخص: "من أنت؟ فإن الجواب لن يكون موجوداً. أما إذا لم يسألك أحد، فأنت تعرف من أنت. ولكن إذا سألك شخص ما، وأصر على السؤال: "من انت"؟ فلن تعرف.

قال القديس أوغسطين: "أنا أعرف عندما لا يسألني أحد ما هو الوقت. ولكن إذا سأل عن الوقت، فلا أعرف".

الحالة ذاتها تنطبق تماماً على الأنا: فإذا لم يسألك أحد، فتعرف. وإذا سأل، فيختفي اليقين فجأة.

هذا هو السبب في أن الشخص المهذّب لا يسأل أبداً من أنت، لأن اليقين موجود على السطح فقط. فكيف تكون متيقناً من خلال تجميع الانعكاسات فقط؟ ثم إن الانعكاسات تأتي من مصادر عدة، وهي مصادر عدائية، ومناقضة، ومشوَّشة. إنك حالة من الفوضى، وأناك هي مجرّد خدعة لإخفاء الفوضى، بل مجرّد كلمة معتمة تستطيع إخفاء كل شيء فيها، لأنك في الداخل كائن مجنون.

إن أول شيء يجب أن تفهمه: هو أنه لا يوجد أحد يعرف نفسه من خلال المرايا، لأن المرايا ستقوم بدور المترجم. والحقيقة أن المرأة لن تُظهِر لك من أنت. المرأة ببساطة تقول من هو الذي ينعكس لك. الأم تبتسم: إنها لا تقول شيئاً يتعلّق بك؛ وإنّما تقول شيئاً يتعلّق بها. إنها سعيدة؛ فقد أصبحت أمّاً. كما أن كل أمّ تبتسم.. حتى لأبشع طفل. حتى لو كان طفلها عادي للغاية؛ لكنها تعتقد أنه سيصبح نابليون، أو الإسكندر، أو بوذا، إن الأم لا تقول شيئاً عنك، فهي سعيدة لكونها أمّاً. إنها تقول شيئاً عن نفسها. فإذا ابتسم الطفل، فإن الأم تجمّع الأنا أيضاً؛ إذا ابتسم الطفل، فإن الأم تبدو في أحسن حال، لأنها تظن أن الطفل يبتسم لها.

والحقيقة أن الجميع في القارب نفسه؛ فالطفل لا يبتسم للأم، وهو لا يقول شيئاً عن الأم. إن كل طفل يبتسم للأم لأنها مصدر الطعام والحب، فهذه هي الدبلوماسية التي تقتضي أن يبتسم الطفل، لأن هذه هي الطريقة التي يحصل فيها على المزيد من الحب، والغذاء. ففي غضون بضعة أيّام، يصبح الطفل سياسياً. إنه يعرف متى يبتسم، ومتى لا يبتسم. كما يبدأ بمنح العقوبة والمكافآت. فإذا لم يشعر بالرضا عن الأم، فإنه لن يبتسم، ولن ينظر إليها. سوف تضطر إلى إقناعه. لذلك فإن الطفل يُظهر شيئاً عن نفسه، وليس عن الأم. كما أن الأم تُظهِر شيئاً عن نفسها، وليس عن الطفل. عندما تذهب إلى المرأة، فإن المرأة تقول شيئاً عن نفسها، وليس عنك. فإذا كانت مرآة جيّدة، من بلجيكا، فهي تقول شيئاً عن نفسها: "انظر. أنا من بلجيكا". أمّا إذا كانت من صنع الهند، فهي تُظهِر: "إنني مصنوعة في الهند" ولا تقول شيئاً عنك. إذا بدا وجهك جيداً، فذلك لا يُظهِر سوى أن المرأة مصنوعة بطريقة جيّدة. إنها تعكس، وتتفاعل!

هذا ما ينبغي أن يُفهَم: ولاسيما بالنسبة للباحث، وهي إحدى الأشياء الأساسية، بأن كل الذين يحيطون بك هم مرايا تعكس. هذه المرايا لها ردة فعلها، وهي لا تقول أيّ شيء عنك. إذ فكيف يمكن أن تقول شيئاً عنك؟ أنت نفسك لا تعرف شيئاً عن نفسك.. فكيف لها أن تعرف إن ذلك مستحيل! إنها لا تعرف نفسها، فكيف يمكنها معرفتك؟

إن الأنا هي تراكم انطباعات، وظلال، وانعكاسات.

ومع هذه الأنا التي تعيش معها، فإنك تعيش في جحيم. وما لم تتخلَّ عن هذه الأنا، فإن باب الدخول إلى الجنة سيظل مغلقاً.

غير أني أقول ألاّ تحاول التخلّي عنها، لأن من سيتخلى سيكون هو نفسه: الأنا. فبعد ذلك ستكسب أنا ماكرة، إذ تقول: "لقد تخلّيت عن الأنا". وستنظر حولك مجدداً لترى كيف يشعر الناس. سيقولون: "لم نرى من قبل مثل هذا الشخص المتواضع". وسوف تجني الانطباع بانك الشخص الأقل أنانية، وبأنك جميل جداً، ومتواضع للغاية، وليس لديك أيُّ أنا. ثم تواصل تجميع الانطباعات.

في الحقيقة لا تستطيع التخلّي عن الأنا، وإنّما تستطيع أن تفهمها فقط.

كما أنه لا داعي للتخلي، لأنه لا يوجد شيء لكي تتخلى عنها إنها مجرّد ظلال.

عليكم أن تفهموا كيف قمتم بتجميع هوية ذاتكم، وكيف قمتم بتجميع صورة ذاتكم. وصورة الذات هذه مشوّشة لأنكم قمتم بتجميعها من مصادر عديدة، ومتعاكسة، ومتناقضة بكل معنى الكلمة، وبالتالي أنتم دائماً مجرّد حشد، وليس اتحاداً. إن هذه الانطباعات لا يمكن أن تكون موحّدة.

لو كنت قد عشت مع شخص واحد، ولم تلتق بشخص آخر أبداً، لكانت أناك متيقنة من دون شك.. غير أن ذلك مختلف أيضاً، الشخص الواحد ليس شخصاً واحداً أيضاً؛ فتارة يكون شيئاً، وتارة يكون شيئاً آخر. تبتسم لك أمّك في الصباح، وفي المساء تغضب وتضربك.

لو عشت مع شخص واحد، وبمزاج واحد، لكانت أناك واحدة. غير أنك عشت مع أشخاص كثر، بملايين الأمزجة، وبوجود كل الانطباعات. إن أناك هي حشد، وليست متبلورة. ليست مركزاً؛ بل ليس لها مركز. إنها مجرّد حشد، ورعاع.

لا تستطيع التخلي عن الأنا، وإنّما باستطاعتك فقط أن تنظر إليها، وتراقبها، وتفهمها. وما إن تفهمها، ستشعر على حين غرّة أنها سقطت. لن تستطيع إسقاطها! ولكن إذا فهمتها، فلن تعود موجودة. إنها تشبه العتمة تماماً؛ فإذا أتيت بشمعة، فلن

تعود العتمة موجودة. إذا أتيت بالفهم، سيحضر النور، وتزول الأنا، ويختفي الظل. عندما تتلاشى الأنا فإنك تصبح للمرّة الأولى كياناً متكاملاً، ويتخلص وعيك ولا وعيك من القيود ببساطة. وفي الحقيقة ليس هناك أية قيود. كما أن فرويد مخطئ تماماً لأنه يعتقد أن للوعي واللاوعي قيوداً جوهرية ما. في الحقيقة كلا، فالقيود هي بسبب وجود الأنا. إن الجزء المقبول من الأنا قد أصبح وعياً لأنك تتقبله؛ ويمكن أن يظهر على السطح. أمّا الجزء المرفوض من الأنا، ولأنك ترفضه، فإنك ترميه بعيداً، فإلى أين سيذهب؟ ... سوف يغوص عميقاً في داخلك. والحقيقة أنه لا توجد عتمة: فالمسألة هي أنك فقط تقف وظهرك باتجاه الجزء المرفوض.

بمجرّد إن تفهم أن الأنا ما هي إلاّ حشد من عدة ملايين من الانطباعات.. وأن الأجزاء المرفوضة والمقبولة هي ذاتها، فكلاهما زائف.. ولكي تفهم أن الأنا زائفة، وأنها حشد، فسوف يختفي الحشد فجأة، ويتلاشى الزيف.

في لحظة واحدة تذوب الحدود بين الوعي والاوعي، ويحدث اندماج يشبه الفيضان.

إن لا وعيك كبير جدا، وهو أكبر من الوعي بتسع مرّات. لذلك ما لم تتحد من اللاوعي، فإن حياتك ستكون متشظية للغاية، وسطحية. سوف تعيش جزءاً واحداً فقط، ولن تكون قادراً على أن تعيش الكل. سوف تفعل كل شيء، لكن ذلك سيتم بواسطة جزء واحد فقط، ولن يكون الكل موجوداً فيه. فالنسبة لي، أن تكون شاملا في كل شيء، هو أن تكون متأملاً: أي أن تكون كاملاً في كل شيء. إن التأمل ليس شيئاً منفصلاً عن الحياة. التأمّل هو مجرّد ميزة لكونك كلياً وشاملاً في شيء ما. تستطيع جلب الماء من البئر، ويمكن أن يصبح تأملاً، إذا كنت منغمساً في ذلك بشكل كامل. عندما تسحب الماء من البئر، فتكون منغمساً في ذلك تماماً: حيث لا وجود سوى لحركة السحب؛ تملأ الدلو، وتحمل الماء: أي لا وجود سوى للحركة، وليس هناك من كائن منفصل، أو منقسم، فذلك هو التأمّل.

سُئل لين تشي عندما أصبح مستنيراً: "الآن، بما أنك أصبحت مستنيراً، فماذا تفعل؟".

فقال: "سوف اقطع الحطب، وأحمل الماء من البئر". هذا أكثر ما قاله وحسب؛ ففي تلك اللحظة كان يقطّع الأخشاب. ثم قال: "إن كل شيء يسير بشكل مثالي وجميل. إنني أقطّع الخشب، وأحمل الماء من البئر، وكل شيء يسير على ما يرام".

إذا أصبحت منغمساً بالكامل في أيّ شيء، مثل المشي، والإصغاء، والحديث، فهو تأمّل. ما عدا ذلك تستطيع الاستمرار في ترنيم المانترات بجزء من عقلك، والجزء الآخر يمضي على هواه.

إن الحشد يمضي على هواه؛ فعضو في الحشد يستمر ترديد "رام، رام، رام"، والجزء الآخر من الحشد يستمر في عمله. جزء ما في السوق، وجزء آخر في المنزل، جزء آخر انتقل إلى المستقبل، وجزء في الماضي. جزء يطارد امرأة، وجزء يقرأ القرآن، أو الجيتا، وجزء ينشد "رام، رام، رام".

إنك حشد، وهذا الاحتشاد لن يصبح تأمليّاً.

لذا فإن إسقاط الأنا لا يكون من قبلك، وإنما تُسقط الأنا نفسها من خلال فهمك. بعد ذلك فجأة تصبح مغموراً، حيث يندفع لا وعيك نحو وعيك، وتصبح شخصاً واحداً. والآن: أيّ شيء تفعله، ستكون منغمساً فيه بالكامل، وهذه هي النشوة: حيث لا ماضٍ ولا مستقبل، وإنّما في الحاضر فقط: هنا والآن؛ في داخله تماماً، وجزء منه.

في تلك الحالة فقط تصبح لأول مرّة على بينه بمن تكون. امّا قبل ذلك، فإن كل الهويات زائفة.

عليك أن تتجه إلى نفسك مباشرة، وسوف تحصل المقابلة وجهاً لوجه مع نفسك، مع حقيقتك. لا حاجة لمرآة أخرى، لأن المرايا لا تُظهِر سوى الشكل فقط. المرايا لا تُظهِر اللاشكل الذي هو أنت؛ المرايا لا يمكنها أن تُظهِر سوى ما يستطيع الآخرين رؤيته. المرايا لا يمكن أن تُظهِر أبداً ما لا يمكن أن يُرى من قبل الآخرين، وإنما ما تراه أنت.

عندما تقف أمام المرآة، فماذا يحدث؟

ذلك الذي ينعكس في المرأة: ليس سوى سطح الخارجي فقط. لا يمكن أن ينعكس مركزك في مرآة، وإنّما ينعكس الشكل، السطح الخارجي. عندما تنظر في مرآة، فليس أنت من ينعكس فيها، لأنك لست المشاهَد، بل المشاهِد. إنك لست من ينعكس في المرآة، وإنما أنت من ينظر إلى الانعكاس.

إنك المشاهِدُ دائماً، والمشاهِدُ لا يمكن أن يُختَزَلُ إلى مشاهَد. إنك الذات، ولا يمكن أن تصبح موضوعاً أبداً. أنت غير قابل للاختزال..

إذن كيف تلتقي بالذات؟

على المرء أن يتحرك داخلياً. وعليه أن يتخلى عن كل المرايا – مرايا الأعين؛ الصديقة، والعدائية، وأن يتخلى كل أنواع المرايا، على المرء حقيقة أن يغمض عينيه ويتحرك داخلياً، ويرى كل ما لا يمكن رؤيته – لكي يلتقي بالمشاهِد. وهذا ما يحدث.. صحيح أنه أمر مضحك، وغير منطقي، لكنه يحدث. كيف ترى المشاهد؟ منطقية، هذا مستحيل. لكنه يحدث، لأن الحياة لا تكترث للمنطق. الحياة تتخطى المنطق. يمكن أن يحدث لك، ولكن عليك أن تنتقل من الانعكاسي، من العالم الذي يحيط بك الشبيه بالمرآة.

هذه القصة حول المعلّم أبو بكر الشبلي، وهي قصة جميلة للغاية. أبو بكر الشبلي هو أحد المعلمين المشهورين جداً، وأريد أن أخبركم شيئاً عنه.

المرة الأولى التي أصبح فيها اسم الشبلي مشهوراً كان في الزمن الذي قُتِل فيه منصور الحلاج.

كان أبو بكر الشبلي رفيق الحلاج وصديقه. لقد قُتِل العديد من الأشخاص في الماضي على يد ما يسمى برجال الدين فقد قُتِل السيد المسيح.. ولكن ما من جريمة كالتي حصلت مع الحلاج. إنها الجريمة الأكثر فظاعة. لقد صلِبَ المسيح ببساطة، لكن صلب الحلاج لم يكن بسيطاً: فقد صُلِب الحلاج ثم بُتِرَت ساقه الأولى، وكان حيّاً، بعد ذلك بُتِرَت يداه، وكان يتعذّب حقيقةً. ثم قُطِع لسانه، وبعدها فُقِأت عيناه، وكان لا يزال حيّاً. بعد ذلك قُطِعَ رأسه. لقد تم تقطيع الحلاج إرباً إربا.

المرة الأولى التي سمعنا فيها بأبي بكر كانت في زمن الحلاج. لقد احتشد مئة ألف من البشر لكي يرموا الحلاج بالحجارة، ولكي يسخروا منه. فما هي الجريمة التي ارتكبها الحلاج؟ ما هو الذنب الذي اقترفه؟

إنه لم يقترف أي ذنب، ولم يرتكب أية جريمة.

الجريمة الوحيدة التي ارتكبها هي أنه قال: "أنا الحق". وهي عبارة تعني: "أنا الحقيقة، أنا الله". والحقيقة أنه لو كان في الهند، لعبده الناس لقرون. إن جميع رواة اللأبنيشاد صرحوا بهذا: "اهام براهماسمي".. أنا براهما، الذات السامية. إن عبارة "أنا الحق" ليست سوى ترجمة لعبارة "أهام براهماسي". غير أن المسلمين لا يمكن أن يحتملوا ذلك.

إن كل الأديان الثلاثة التي ولِدت في الشرق كانت غير متسامحة للغاية. فاليهود غير متسامحين؛ لهذا صلبوا المسيح. المسلمون

غير متسامحين، وعمياناً تقريباً. المسيحيون يتكلّمون دائماً عن التسامح، لكن ذلك مجرّد كلام، فهم ليسوا متسامين على الإطلاق. بل هناك تعصّب عميق حتى في تسامحهم. والحقيقة أن كل هذه الأديان كانت أدياناً عنيفة، وعدوانية، وتمارس القتل. نقاشهم الوحيد هو العنف، كما لو أنك تستطيع إقناع شخص من خلال قتله.

الحلاّج هو واحد من أعظم المعلمين. ولا يمكن لأحد أن يُقارن به من ناحية التقليد الصوفي وقد قُتِل. كان الناس يرمونه بالحجارة، وكان أبو بكر الشبلي يقف بين هذا الحشد. أمّا الحلاج فكان يضحك ويستمتع. عندما بُتِرت قدماه، أخذ دمه بكفّيه ونثره على كلتا يديه، مثلما يتوضأ المسلمين بالماء عندما يذهبون إلى المسجد للصلاة. فسأله شخص من الحشد: "ماذا تفعل يا منصور"؟

فقال منصور الحلاج: "كيف تتوضؤون بالماء؟ كيف يمكن تغسلوا أنفسكم بالماء؟ فالجريمة ترتكبونها بدمكم، والخطيئة تقترفونها بدمائكم، فكيف يمكن أن تطهّروا أنفسكم بالماء؟ وحده الدم يمكن أن يُطهّر. إنني أطهر يداي، وأستعد للصلاة".

فضحك أحدهم وقال: "إنك شخص أبله! أتستعد للصلاة"؟

ثم ضحك الحلاج وقال: "هكذا تكون الصلاة.. أن تموت. إنكم تساعدونني لأجل صلاتي الأخيرة. ولا يمكن فعل شيء أفضل من ذلك بهذا الجسد؛ إن هذا الجسد لا يمكن استخدامه بطريقة أفضل. إنكم تضحّون بي على مذبح الإله. تلك ستكون آخر صلاة لي في هذا العالم".

عندما بدأوا ببتر يديه فقال: "انتظروا لحظة، دعوني أصلّي، عندما لا تعود اليدين موجودتين، فسيكون من الصعب الصلاة". ثم نظر إلى السماء، وصلى إلى الله، وقال: "ربي اغفر لهؤلاء الناس، إنهم لا يدرون ما يفعلون". كما توجه إلى الله قائلاً: "لا يمكن أن تمكر بي، وأنت خير الماكرين! أستطيع رؤيتك في كل شخص هنا. فهل تحاول أن تخدعني؟ هل جئت كقائل. هل جئت كعدو؟ لكنك لا تستطيع خداعي. أقول لك: في أيّ شكل أتيت، فسوف أتعرّف عليك، لأنني عرفتك داخل نفسي. الآن لم تعد هناك إمكانية لخداعي".

حين كان الناس يرمونه بالحجارة ويشتمونه بسخرية، كان أبو بكر الشبلي يقف هناك، والحلاج يضحك ويبتسم. فجأة أخذ يبكي وينحب، لأن الشبلي رماه بوردة. لقد كان يضحك من رمي الحجارة، ولكن بوردة...!؟ أخذ الحلاج يبكي، فسأله شخص: "ما الأمر كنت تضحك مع الرمي بالحجارة.. فهل جننت؟ ثم أن الشبلي رماك بوردة فقط، فلماذا تبكي وتنحب"؟

فقال الحلاج: "الناس الذين يرمون الحجارة لا يدرون ما يفعلون، لكن هذا الشبلي يعرف، ومن الصعب أن يحصل على مغفرة الله".

كان الشبلي باحثاً كبيراً، وقد عرف كل الكتب المقدّسة. كان رجل معرفة.

قال الحلاج: "سوف يُغفَرُ الله للآخرين لأنهم يتصرفون عن جهل؛ ولا يفيدون بشيء. لا بأس في أي شيء يفعلونه، فهذا كل ما يستطيعون فعله وهم في عماهم، ولا يُتوقّع منهم أكثر من ذلك. أمّا بالنسبة للشبلي...الشخص الذي يعرف! الرجل صاحب المعرفة، فسيكون الأمر مختلفاً بالنسبة له لكي يحصل على المغفرة، ولهذا السبب أبكي لأجله. إنه الشخص الوحيد هنا الذي ارتكب إثماً. إنه يعرف، وهذا هو السبب".

إن هذا لشيء ينبغي أن يكون مفهوماً: لا يمكن أن ترتكب إثماً عندما تكون جاهلاً، فالمسؤولية لا تقع عليك. ولكن عندما تعرف، فسوف تكون هناك مسؤولية. إن المعرفة هي أعظم مسؤولية؛ المعرفة تجعلك مسؤولاً. إن هذا القول للحلاج أدّى إلى

تغيَّر الشبلي بالكامل، وأصبح شخصاً مختلفاً تماماً، فقد رمى بالكتب جانباً وقال: "هذه الكتب لم تجعلني أفهم حتى هذه: وهي أن كل المعرفة بلا فائدة. الآن سأسعى وراء المعرفة الصحيحة".

فيما بعد، عندما طُلِبَ منه التعليق على تصريح الحلاج: "ما هو الموضوع؟ لماذا رميت الوردة؟ فقال الشبلي: "كنت أقف بين الحشد، وكنت أخشاه.. فإذا لم أرم بشيء، فربما يعتقد الناس أني أنتمي لجماعة الحلاج. ربما يشعر الحشد بأنني رفيقه، وصديقه أيضا، وربما يصبحون عنيفين تجاهي. لم أرمِ بحجر لأنني أعرف أن منصور بريئاً. لكنني أيضاً لم أستجمع الشجاعة كي لا أرمي بشيء، ولهذا رميت وردة، كحل وسط. ومنصور كان محقاً في بكائه: إنه ينتحب على خوفي، وعلى جبني. ينتحب لأن معرفتي الشاملة، وكل ما جمعته في حياتي، كان عقيماً.. فقد كنت أساوم الحشد".

إن كل العلماء يتساومون مع الحشد، وكذلك المثقفين. لهذا السبب لم تسمع من قَبلَ بأي مثقف صلبه الحشد، لأنهم أتباع الحشد. إنهم يساومون دائماً، ومساومتهم هي كالتالي: عندما يذهبون إلى بوذا، أو إلى الحلاج، فينحنون لهم، كما ينحنون للحشد أيضاً. إنهم أناس مخادعين، بل مخادعين جداً.

لكن أبو بكر الشبلي تغير بالكامل، لأنه فهم. إن شعور الحلاج به، وبكائه لأجله، أصبح أداة تحويل: فيما بعد، أصبح الشبلي معلماً بجهده الشخصي. استغرق ذلك اثنا عشر سنة على الأقل، من التجول كالمتشرد، وكالمتسوّل. فكان يسأله الناس: "لماذا تتجوّل؟ ما الذي تتحسر عليه"؟ ... ذلك أنه كان يلطم صدره باستمرار، ويبكي وينحب. عندما يدخل إلى المسجد، كان يبكي وينحب إلى درجة أن القرية بأكملها كانت تجتمع حوله. كان دامي القلب من كثرة التألّم، فيسأله الناس: "ماذا تفعل؟ أي ذنب اقترفتَه؟ فيقول: "لقد قتلت الحلاّج. ما من أحد غيري مسؤول عن قتله. لكنني فهمت. لقد رميته بوردة. لقد ساومت الحشد. كنتُ جباناً. كان يمكن أن أنقذه، لكنني فوّت الفرصة، ولهذا أتحسّر".

لقد ظل نادماً طوال حياته، والندم يمكن أن يصبح ظاهرة توثر فيك بعمق إذا فهمت ما هي المسؤولية. عندئذٍ حتى أصغر الأشياء تصبح اداة تحويل إذا أصبحت نادماً. ليس بالكلام فحسب، وليس ظاهرياً فقط؛ بل من أعماق أعماقك، وإذا غدا كل كيانك يرتعش ويرتجف ويبكي، وتسيل الدموع، ليس من عينيك فقط، بل من كل خلية من جسدك، وعندئذٍ يمكن أن يصبح ذلك تحوّلاً. وهذا هو معنى ما قاله السيد المسيح مراراً وتكراراً: "توبوا".

لم يكن هناك الكثير ليقوله معلّم المسيح، يوحنّا المعمدان. فقد كانت رسالته بالمجمل هي: "توبوا"! لأنه قد اقترب ملكوت السماوات. إنه قادم، فتوبوا قبل أن يأتيكم ملكوت السموات"!

توبوا. ليس عقليّاً فقط، وإنما بالكامل.. بطهارة ونقاء. ولا شيء آخر يمكن أن ينقيّكم بتلك الطريقة. إنها نار تحرق كل النفايات في داخلك.

لقد لازم بكاء الحلاج الشبلي طوال حياته. كانت دموع الحلاّج تلازمه في نومه وفي صحوه. ولقد أصبح ذلك تحوّلاً. هذا ما يمكن أن يفعله المعلّم، بل المعلم العظيم فقط.. وقد فعلها الحلاج. حتى أثناء احتضاره، حوّل الحلاج رجلاً كالشبلي. حتى أثناء احتضاره استخدم موته أيضاً لكي يحوّل هذا الرجل. إن المعلّم يمضي في استغلال كل فرصة لتحويل الناس سواء كان حيّاً أم ميتاً، أو حتى عندما يموت بالفعل.

والآن إلى هذه القصة القصيرة:

سُئِل الشبلي: "من ارشدك على الطريق"؟

فقال: "أرشدني كلب. فذات يوم شاهدته يكاد يموت من العطش، وكان يقف قرب حافة الماء. كلما نظر إلى انعكاسه على صفحة الماء فكان يرتعب ويتراجع لأنه ظن أن هنالك كلب آخر.

في النهاية ويسبب حاجته البالغة للماء طرح الخوف جانباً وقفز في الماء، إلى حيث اختفى انعكاسه.

وجد الكلب ان العقبة كانت هو نفسه، وان الحاجز الذي بينه وبين ما يسعى اليه قد ذاب.

وبالطريقة ذاتها زالت عقبتي عندما عرفت انها كانت ما قررته بنفسي. لقد بانت لي الطريق في البداية من خلال سلوك كلب".

إن الشخص الذي يكون على استعداد للتعلم، فيمكنه أن يتعلم من أي مكان. أمّا الشخص الذي ليس مستعداً للتعلم، فلن يتعلّم حتى من بوذا. إن ذلك يتوقّف عليك. ويمكن أن يصبح حتى الكلب معلّماً إذا كنت على استعداد للتعلم، غير أن ذلك في النهاية يعتمد عليك. أن تكون على استعداد للتعلّم، فهذا يعني أن تكون منفتحاً على كل الاحتمالات من دون تحيّز. تراقب من دون مفاهيم مسبقة، وإلاّ فمن سيراقب كلباً، فأنت لم تكن واعياً: لقد مررت به، وفوّت الفرصة التي جعلت الشبلي شخصاً مختلفاً، والتي أصبحت دليله.

في الحقيقة، كنت تخسر الفرص كل يوم.

إن المرشد موجود في كل لحظة. الله مستمر مناداتك، من جهات مختلفة، لكنك لا تصغي. والحقيقة أنك تعتقد بأنك تعرف ذلك، وتلك هي المشكلة. إذا اعتقد شخص مريض أنه بصحة جيدة فعلاً، فلماذا يصغي للطبيب؟ ولكن بعد ذلك لا تعود هناك إمكانية للشفاء. لقد أغلقت إمكانية الشفاء ذاتها. إذا كنت تعرف أنك تعرف، فلن تكون قادراً على أن تعرف. عليك أن تدرك أولاً أنك لا تعرف، بعد ذلك تبدأ الأشياء فجأة تحدث من أيّ مكان.

"من أرشدك على الطريق"؟ هذا ما سأله أحد الأشخاص لأبو بكر الشبلي.

لم يتخيّل الشبلي أبدا أنه يمكن أن يقول: "لقد أرشدني كلب. فذات يوم شاهدته يكاد يموت من العطش، وكان يقف قرب حافة الماء".

ذلك هو المكان الذي تقفون عليه جميعكم: عند حافة الماء، وتكادوا تموتون من العطش، لكن شيئاً ما يعيقكم. إنكم لا تقفزون، فثمة شيء يُمسككم عن القفز، فما هو؟ إنه نوع من الخوف؛ فالضفة معلومة، ومألوفة، والقفز إلى النهر هو التحرك في المجهول.

المعلوم شيء ميّت مثل الضفة، أما المجهول فهو متدفّق دائماً: إنه يتدفّق كالنهر. الخوف هو التعلّق بالمألوف. الخوف يقول دائماً: "تعلَّق بالمألوف، وبما هو معروف". بعد ذلك يجعلك الخوف تتحرك في دائرة، ذلك أن المسار الدائري وحده يمكن أن يكون مألوفاً. أنتم تتحركون في المجرى نفسه مراراً وتكراراً، فكل شيء معروف. يأتي الناس إلى وهم في تعاسة عميقة، لكنهم ليسوا مستعدين حتى لترك تعاستهم، لأنه حتى التعاسة تبدو لهم مألوفة. على الأقل يعتقدون أنها مُلكَهم، وليسوا على استعداد حتى للتنازل عنها.

لماذا لا تستطيع التنازل عن تعاستك؟ لأنها مألوفة، ومعتادة؛ فقد عشت معها طويلاً إلى درجة أنك ستشعر بالوحدة من دونها. هذا ما أشعر به دائماً. أذا كنتم تتشبثون بالتعاسة، فيكف ستكون السعادة متاحة؟ لا يمكن لكلاهما أن يعيشا معاً. لا

يمكن أن تدخلك السعادة، فهي لا تستطيع الدخول إلاّ إذا غادرت التعاسة من هذا الباب، وبعدها تدخل السعادة من الباب الآخر.. سوف تدخل على الفور ثم تملأك.

إن الطبيعة تكره الفراغ، والله أيضاً يكره الفراغ. غير أنك ممتلئ بالتعاسة أصلاً، وتتشبث بها كما لو أنها كنزٌ. ما الذي حصلت عليه؟ الا تستطيع التخلي عن تعاستك؟ الم تعش معها كفاية؟ الم تصيبك فعلياً بالشلل أكثر من اللازم؟ إلى متى تنتظر؟ إنك تظل على الحالة ذاتها.

يقول أبو بكر الشبلي: "**ذات يوم شاهدته يكاد يموت من العطش...**" يموت من العطش! والماء أمامه تماماً!... **كان يقف قرب حافة الماء. كان كلما نظر إلى انعكاسه على صفحة الماء، فكان يرتعب ويتراجع...**". إنه الخوف من المجهول، والخوف من الانعكاس. لقد شاهد نفسه وقد انعكس على صفحة الماء، فاعتقد أن هناك كلب آخر. والواقع أنه كان يرى نفسه، ولم يكن كلباً آخر.

هذه هي الجملة الحبلى بالمعنى. دعني أقول لك إنك وحيد في عالمك. لا يوجد أحد غيرك، فكل الآخرين الذين تراهم هم انعكاساتك.

في الحقيقة، لا يوجد أحد سواك.. في عالمك. كلهم انعكاسات، وقد أغلق عليك، ووضعت في كهف بسبب تلك الانعكاسات.

عندما تلتقي بشخص، فهل الشخص الذي تلتقي به بالفعل هو شخص، أم أنك ببساطة تلتقي بانعكاسك أنت فيه؟ هل سبق أن التقيت بأيّ شخص؟ ... عندما تلتقي بشخص، فإنك تبدأ على الفور بتحليله. تبدأ بخلق صورة عنه. لكن تلك الصورة في الحقيقة هي صورتك. الشخص ليس مهمّاً، وإنما المهم هي صورتك فقط. الشخص يذهب، وشيئاً فشيئاً، تصبح الصورة أوضح؛ الشخص بصبح طي النسيان. بعد ذلك تعيش مع هذه الصورة. عندما تحدث إلى شخص، فإنك تتحدث مع صورك في الشخص، وليس مع الشخص حقاً.

تلتقي برجل أو امرأة، وتقع في الحب.. فهل تظن أنك وقعت في الحب مع شخص آخر؟ هذا مستحيل. إنك تقع في الحب مع الصورة التي خلقتها حول الشخص الآخر. والشخص الآخر أيضاً وقع في الحب مع الصورة التي خلقها هو / أو هي حولك. عندما يقع شخصان في الحب، فهناك أربعة أشخاص على الأقل؛ أكثر من ذلك فأمر ممكن، أمّا أقل فهذا غير وارد. بعد ذلك تأتي المتاعب، وهذا لأنك لم تقع في الحب مع الشخص، بل مع صورتك. كما أنه ليس موجوداً لكي يُرضي صورتك، فعاجلاً أم آجلا، ستأتي الحقيقة. سيظهر التعارض بين أحلامك والواقع؛ بين صورتك والشخص الحقيقي الموجود، والمجهول تماماً.

بعدها يحصل التصادم.

إن كل علاقة حب تتحطم على الصخور، وكلما كان الحب أعمق، وكلما كان الشعور حادّاً، كلما تحطّم مبكراً. لماذا يحصل ذلك؟ في الحقيقة كان لابد من حصول ذلك.. لأن الطرفين وقعا في الحب مع صورتهما الخاصة بهما، فكيف يمكن أن تجتمع الصورتان؟ إن تلك الصورتين ستكونان موجودتان بينهما دائماً، وتلك الصورتين ستكون زائفة.

إن الشخص الحقيقي مختلف تماماً. إنه ليس صورتك. كما أنه ليس موجوداً لكي يرضي توقعاتك، ولا أنت موجود لكي ترضي توقعات أيّ شخص. إن الشخص الحقيقي هو حقيقي؛ له قدره الخاص، ولك قدرك الخاص. فإذا استطعتما السير معاً

يداً بيد للحظات قليلة على الدرب، فهذا جيد جداً لغاية الآن.. وجميل. لكنك لا يمكن أن تتوقع: "افعل هذا.. ولا تفعل ذاك". فما إن تبدأ بالتوقع، حتى تستحضر صورتك الخاصة: فالحب قد مات تقريباً، أي أنه على وشك أن يكون شيئاً ميّتاً.

انظر إلى الأزواج والزوجات لا يمكنك أن تتصور لماذا يبدون أمواتاً للغاية، ويشعرون بالملل من بعضهم البعض. إنهم ببساطة يتحمّلون بعضهم البعض، وهم، بطريقة أو بأخرى، يجرّون بعضهم البعض.

والواقع إن اللغز قد اختفى. والفرح لم يعد موجوداً في خطى حياتهما. ولم يعد ينظران في عيون بعضهما البعض. لم تعد تلك العيون هي البحيرات التي يمكنك أن تغوص فيها وتغوص في رحلة أبدية. يمسكان بأيدي بعضهما البعض الميتة، فلا شيء يتدفق. يحضنان ويقبلان بعضهما البعض، ويمارسان الحب، لكنها مجرّد مناورات، وأشياء تشبه وضعيات اليوغا: أفعال ميتة، ومسيطر عليها.

لكن التدفق لم يعد موجوداً، والنشوة لم تعد موجودة، لم تعد هناك سعادة. لا يخرجون منتعشين، أو متجددين، أو مولودين من جديد. يذهبون إلى الموت، أو يخرجون أمواتاً أكثر من السابق. هذا الفعل برمته أصبح روتيناً، فلماذا يحدث ذلك؟

يحدث هذا لأنك دائماً تخلق انعكاساً لنفسك عند الآخر. إن تخلق الوهم، وبعد ذلك تقع في الحب، ثم تقع في الكراهية، بعدها تعثر على أصدقاء، وبعد ذلك تجد أعداء، وكل هؤلاء هم انعكاساتك أنت.

هناك قصة هندية تقول: قام ملك ببناء قصر. كانت جدران القصر مكسوّة بملايين المرايا. كان الدخول إلى ذلك القصر جميلاً، إذ يمكنك أن ترى وجوهك في ملايين المرايا من حولك؛ يمكن أن ترى الملايين من نفسك حولك. إذا حملت شمة، فسترى ملايين الشموع، شمعة صغيرة تنعكس من ملايين المرايا، ومن ثم يصبح كل القصر مضاء بشمعة صغيرة.

ذات مساء حدث أن دخل كلب إلى القصر بالصدفة. نظر حوله، فانتابه فزع شديد؛ بل فزع حتى الموت، ذلك أن هناك ملايين الكلاب!

كان الكلب فزعاً إلى درجة أنه نسي الباب الذي دخل منه. والسبب بالطبع، وجود الملايين من الكلاب حوله، وبالتالي كان الموت أمراً محتَّماً، فبدأ بالنباح؛ وأخذت تتبع معه ملايين الكلاب. أصبح الكلب عدوانياً؛ ومعه أصبحت ملايين الكلاب عدوانية. ثم ارتطم بالحائط. في الصباح عثر عليه ميتاً، ولم يكن أحد في القصر غيره.

هذا هو الوضع برمّته في هذا العالم. إنك تنبح، وتقاتل، وتقع في الحب، وتُكوّن أصدقاء، وأعداء، وكل شخص يعمل كمرآة لكن ويجب أن يكون كذلك! فما لم تستيقظ، وما لم تُدرِك من أنت، فسوف تستمر في رؤية انعكاساتك في مرايا الآخرين؛ تمارس الحب مع انعكاسك، وتتقاتل مع انعكاسك. إن الأنا عادة سرية بالمطلق: حيث تمارس كل شيء مع نفسك من خلال انعكاساتك.

كاد الكلب يموت من العطش، ولكن حتى هذا لم يكن كافياً. انظر في أعينكم فأرى الخوف. انظر في قلوبكم، فأرى الموت من الظمأ. لكن ذلك الظمأ لا يزال يبدو أنه غير كاف، بسبب الخوف الذي أراه في عيونكم، وفي قلوبكم الميّتة من العطش. لكن ذلك العطش ما زال غير كاف، بحيث تستطيع القفز، وبحيث تتخلى عن الخوف، وتختار المجهول. إن العطش موجود، ولكن لا يبدو أنه كافٍ، لأن الخوف يبدو أنه أكثر أهمية، وأهم شأناً بالنسبة لكم، وأثقل وطأة عليكم.

أن معظمكم وصلوا إلى مرحلة في التأمل حيث أخذ النهر يتدفق، وتستطيعون القفز. غير أن الخوف يبرز، إذ يبدو القفز أشبه بالموت. إن التأمّل يشبه الموت، لذلك يبرز الخوف. العطش موجود، لكنه غير كافٍ. فإذا كنت ظمآن حقا، فعليك إذن أن

تقفز مهما كان الثمن. كما أن هناك حاجة للمعلم لكي يجعلك أكثر عطشاً، وأكثر وعيا بعطشك، فهي الطريقة الوحيدة.

فكلما أصبحت أكثر عطشاً، كلما نشأ الخوف في قلبك، وكلما احترقت من العطش. عندئذٍ فقط تستطيع أن تتخلى عن الخوف، وتقفز، حين يصبح العطش أكبر من الخوف.

سأل شخص بوذا: "تقول إن الحقيقة لا يمكن تعليمها. إذن لماذا تعلّم؟ كما تقول إنه لا يمكن لأحد أن يرغم أيّ شخص على الاستنارة، إذن لماذا تبذل كل جهدك مع الناس؟".

وقد قيل إن بوذا أجاب قائلاً: "الحقيقة لا يمكن تعليمها، لكن العطش يمكن تعليمه، أو على الأقل، تستطيع أن تكون مدركاً لعطشك، الذي هو موجود أصلاً، لكنك تكبحه". والحقيقة إنك بسبب الخوف تستمر في كبح عطشك.

إنك تستمر في كبح ذلك الموجود بصورة دائمة. هناك استياء عميق تجاه كل ما يحيط بك، وتجاه الإلهي. إنه العطّش.

"... وكان يقف قرب حافة الماء، كان يرتعب ويتراجع كلما نظر إلى انعكاسه على صفحة الماء، لأنه ظن ان هنالك كلب آخر في النهاية، حيث كانت مثل هذه الخطوة ضرورية له...".

تذكّر هذه الكلمات: لا يمكنني فعل أيّ شيء لك ما لم تأتي اللحظة التي تشعر فيها بحاجة ماسة للقفز، وبأنه ينبغي لك أن تنفجر في وجه المجهول، وأن تدخل فيه.

"في النهاية، حيث كانت مثل هذه الخطوة ضرورية له، طرح الخوف جانباً وقفز في الماء، إلى حيث اختفى انعكاسه الذاتي...".

لأنك عندما تقفز إلى الماء، فإن النهر الذي يشبه المرآة، لا يعود يشبه المرآة.

لقد اختفى الانعكاس، ولم يعد الكلب موجوداً.

لابد أن الشبلي كان يراقب، وكان يجلس قرب الضفة، وينظر إلى الكلب: إلى خوفه، وإلى محاولاته المتواصلة في الإقدام والإحجام مرات ومرات. لابد وأنه راقب بشكل حادّ ما كان سيحدث: بعدها قفز الكلب، واختفى الانعكاس.

"وجد الكلب أن العقبة"... لم تكن في الخارج، وإنّما في نفسه. لم يكن الكلب موجوداً في الماء. الكلب الموجود في الماء لم يكن يمنعه، مثلما كان يفكّر من قبل، بل كان هو العقبة. "... كانت هو نفسه، وأن الحاجز الذي بينه وبين ما يسعى إليه، قد ذاب".

لقد كان هو نفسه الحاجز بين عطشه وبين الماء، بين جوعه وبين شبعه، بين استيائه وبين رضاه، بين بحثه وبين هدفه، بين سعيه وبين ما يسعى إليه. في الحقيقة، لا يوجد أحد سوى انعكاسه في الماء.

تلك هي الحالة التي تحصل لكم جميعاً، ومع كل شخص. فلا أحد يعيقكم. ثمة انعكاس من هذا القبيل بينكم وبين قدركم، بينكم كبذرة، وبينكم كوردة.. ما من شخص آخر يعيقكم، ولا أحد يخلق لكم أيّة عقبة. لذلك لا تستمروا في تحميل المسؤولية للآخرين، فهي طريقة لمواساة الذات. تخلّوا عن مواساة أنفسكم. تخلّوا عن التأسّف على الذات. انظروا بعمق في المرآة، فسوف ترون أن الجميع هم مرآة حولكم. انظروا بعمق.. وستجدون انعكاسكم في كل مكان.

"وبالطريقة ذاتها زالت عقبتي عندما عرفت انها كانت ما قررته بنفسي. لقد بانت لي الطريق في البداية من خلال سلوك... كلب".

تتضح لك الطريق من بين ملايين الاتجاهات، فقد أصبح الناس مستنيرين من خلال مراقبة كلب، أو من خلال مراقبة قطة. لقد استنار الناس من خلال مراقبة ورقة ميّتة سقطت من الشجرة، أو من خلال أيّ حالة من أي نوع. غير أن ثمة شيء ضروري بلا أدنى شك، وهو المراقبة. لا يهم إذا كان كلباً، أم قطة، أم نهراً، أم شجرة، فالناس أصبحوا مستنيرين من خلال المراقبة.

إذن راقب، مهما كانت الحالة، ومن دون أيّ تحيّز. راقب من دون الماضي. راقب من دون أيّ تفكير من جانبك. ولا تفسّر، بل راقب! فإذا كنت رؤيتك جليّة، وإذا كان تصوّرك واضحاً، وراقبت بصمت، فإن أيّة حالة ستقودك إلى الإلهي. هذا ما ينبغي أن يكون! إن كل حالة، وكل لحظة من الحياة، تقودك نحو الإلهي.

شخص سأل رينزاي، وهو معلّم زِن: "ما هي الطريقة لكي أعرف المطلق"؟

كان رينزاي يسير في نزهة الصباح وبيده عكّاز. فرفع عكّازه أمام عيني السائل وقال: "راقب هذا العكّاز! إذا استطعت أن تراقب هذا، فلا حاجة لأن تذهب إلى أي مكان".

لابد وأن الرجل قد وجد ذلك محيّراً بعض الشيء، فنظر إلى يمينه وشماله، وقال: "ولكن كيف يمكن للمرء أن يحصل على الاستنارة بمراقبة عصا".

فقال رينزاي: "لا تكمن المسألة في ماذا تراقب. المسالة تكمن في أن تراقب. لقد صادف الآن أن المكان كان في يدي، وهذا كل شيء".

إن أيّ شيء، إذا كنت تراقب، سوف يعطيك دليلاً. المراقبة هي المنهج الوحيد. يمكنك تسميته، الوعي، أو المراقبة، أو المشاهدة.. ولكن راقب. عش الحياة بعين مُراقِبة، وبالتالي فإن أصغر الأشياء، ستؤدي إلى أعظمها. إن كل شيء يقودك إلى الله.

ربما سمعت بمقولة: "كل الطرق تؤدي إلى روما". قد لا يكون ذلك صحيحاً، غير أن كل الطرق تؤدي إلى الله.

كن مراقباً حيثما كنت، فيتحول وجهك على الفور نحو الله. من خلال المراقبة، ستغير نوعيّة وعيك الداخلي. فكن مراقباً!

كان المسيح يستمر في القول لتلامذته: كونوا مراقبين! ولكن مثلما يحدث عادةً، يكون التلاميذ صمٌّ إلى حد ما. عندما كانت الليلة الأخيرة، وكان المسيح سيُصلَب في اليوم التالي، فقال تلك الليلة: "الآن سأصلي صلاتي الأخيرة، وجميعكم تراقبون، فكونوا يقظين ولا تناموا"!

بعد ساعة، عاد المسيح من تحت الشجرة حيث كان يصلّي. كان جميع تلامذته يغطون في نوم عميق، فأيقظهم وقال: "ماذا تفعلون؟ قلت لكم كونوا يقظين وراقبوا!... لكنكم سقطتم نائمين".

فقالوا: "كنا متعبين. لقد حاولنا، لكن النوم غلبنا"؟

فقال المسيح: "الآن كونوا أكثر يقظة، لأن هذه هي الليلة الأخيرة لن أكون معكم مرة أخرى". ثم عاد مجدداً بعد نصف

ساعة، وكانوا يغطّون في نوم عميق.

ما الذي كان يقصده؟ كان يُعطيهم كلمة السر: "كونوا مراقبين". فما الشيء الذي يمكن أن يعطيه معلّم غير ذلك عندما يرحل؟ ففي كلمة: "كونوا مراقبين"، توجد كل الكتب المقدسة في جوهرها.

لقد عاد المسيح مجدداً ثلاث مرات. وأقول إن هناك شيئان فقط غير محدودان: رحمة المعلّم، وغباء التلميذ. لقد عاد المسيح ثلاث مرّات وقال: "هل عدتم إلى النوم؟".

إن تلك الليلة يمكن تصبح تنويراً لجميع أولئك التلاميذ، ذلك أن المسيح كان في الذروة.. في القمة ذاتها. فكان يصلّي: في تلك اللحظة من صلاة يسوع كان الجو بأكمله قد شُحِنَ. لو كان هؤلاء التلاميذ يراقبون، لكانت هناك إمكانية مفاجئة للاستنارة الفورية، غير أنهم كانوا يغطّون في النوم.

وأنا أقول لكم: كونوا مراقبين كونوا يقظين.. لأنني لن أكون هنا لفترة طويلة. سأكون هنا لفترة قصيرة. يمكنك أن تفّوتوا الفرصة وتجدوا الأعذار. كونوا مراقبين! كونوا يقظين!

اعتاد المسيح أن يروي قصة، بأن معلّماً ذهب في رحلة. فقال لخدّامه: "كونوا مراقبين على مدى أربع وعشرين ساعة، لأنني يمكن أن أعود في أيّة لحظة. فإذا وجدتكم نائمين، فسوف اطردكم. لذلك ابقوا يقظين! لابد من أن يكون أحدهم واعياً ويقظاً. يمكنكم تقسيم الوقت بالتبديل فيما بينكم، ولكن لابد أن أجد بعض الخَدَم يقظين عندما أعود".

ففكر الخَدَمُ قائلين: "الرحلة طويلة جداً، وسوف تستغرق سنة تقريباً، لذا لا حاجة للقلق بشأنها الآن.

بعد سنة سنكون يقظين، ولكن طوال هذه السنة بمقدورنا أن نستمتع وننغمس في النوم أيضاً، ها نحن أحرار، فقد ذهب المعلّم".

عندما رجع المعلّم.. لقد عاد بعد ثلاث سنوات، ولكن عندما تنام لمدة سنة كاملة، وتنغمس في النوم، فتصبح كسولاً، وهذا ليس أمر سهلاً. بعد ذلك بدأوا بالتأجيل: "إنه لم يأت بعد، ولم تأت منه أيّة رسالة. من يدري فيما إذا كان حيّاً أم ميّتاً؟ كما أننا لم نسمع عنه أيّ شيء على الإطلاق".

لقد نسوا تماماً...

عندما عاد المعلّم، لم ينسوا أن المعلم لازال موجوداً فحسب، ولم ينسوا أن عليهم أن يظلوا مستيقظين فحسب، بل نسوا أيضاً أنهم كانوا خدماً. لقد أصبحوا سادة في ذلك الوقت.

هذا ما حدث لكل عقل، ولكل وعي.

تذكر أن الله يمكن أن يقرع بابك في أيّ وقت، فإذا لم تكن يقظاً، فسوف تفوّت الفرصة. يمكن أن يقرع بابك من خلال كلب، أو من خلال وردة، أو من خلال طائر يحلّق. يمكنه أن يستخدم أية فرصة لكي يطرق بابك.

فلتظل منتبهاً، بحيث عندما يأتي الضيف، فلا يجدك نائماً؛ عندما يقرع بابك، فعليك أن تكون مستعداً، وأن تُحضّر المنزل للضيف.. وتُحضّر قلبك لاستقباله.

كن يقظاً. فمن خلال اليقظة، ستموت الأنا شيئاً فشيئاً، لأن الأنا خلقها العقل غير اليقظ، وغير المنتبه. من خلال اليقظة، والمشاهدة، تموت الأنا.

الحقيقة أنه لا يمكن عمل شيء.. حتى تموت.

الفصل العاشر:
الوردة هي الوردة

لا أحد يولَدُ في الدين، فالدين يولد في داخلك

جاء مريدٌ إلى معروف الكرخي[6] وقال:

"كنت أتحدث للناس عنك. اليهود يدّعون أنك يهودي؛ والمسيحيون يبجلونك على أنك واحد من قدّيسيهم؛ المسلمون يصرون على أنك أعظم مسلم".

فأجاب معروف: "هذا ما يقوله الناس في بغداد. وعندما كنت في القدس، قال اليهود انني مسيحيّ، والمسلمون قالوا إنني يهوديّ، والمسيحيون قالوا إنني مسلمٌ..

فقال الرجل: "ماذا يجب ان نظنك اذن؟".

قال معروف: "البعض لا يفهموني، ويبجّلوني. وآخرون ليسوا كذلك، ولذلك يلعنوني، وهذا ما جئت لأقوله، يجب ان تفكّر بي على أنني الشخص الذي قال هذا".

إن المتديّن يُساء فهمه دائماً. فإذا لم يُساء فهمه، فلن يكون رجل دين. إن البشرية تعيش في موقف لا ديني تجاه الحياة.. موقف متعصّب، لكنه ليس موقفا دينياً. لذلك فإن رجل الدين هو إنسان غريب. ومهما تقول بشأنه فسيكون خاطئاً، لأنك مخطئ. وتذكّر: مهما تقول بحقه– وأنا لا أقول إنك إذا قلت شيئاً في صالحه، فذلك سيكون صحيحاً، كلا؛ فإذا كنت تحابيه، أو كنت ضده، فذلك لا يغيّر شيئاً– فسيكون غير صحيح ما لم تصبح أنت نفسك واعياً دينياً. أمّا قبل ذلك، فإن تبجيلك مزيّف، وإدانتك مزيّفة.

إذا فكرت به على أنه حكيم، فقد أسأت الفهم، وإذا فكّرت به على أنه آثم، فقد أسأت الفهم مرة أخرى.

لذا فإن أول شيء يجب أن تتذكره هو: ما لم تكن أنت نفسك صحيحاً، فإنك مهما كنت، أو مهما تفعل، أو تقول، فسيكون خاطئاً. إن الشخص المتديّن هو ظاهرة في غاية الضخامة، بل ظاهرة في منتهى الغرابة إلى درجة أنه لا توجد لغة تتحدث بها عنه. إن كل كلماتك فيما يتعلق به هي كلمات عقيمة. لغتك بأكملها بلا فائدة، ولا معنى لها، لأن الشخص

المتدين هو متديّن لأنه ذهب إلى ما بعد الازدواجيات، وأن اللغة برمّتها تقع ضمن الازدواجيات.

إن قلت عنه أنه شخص جيّد، فأنت مخطئ، لأنه شخص سيّء أيضاً. وإن قلت عنه أنه سيّء، فقد أخطأت مجدداً، لأنه شخص جيّد أيضا. والآن تبرز المشكلة، لأنه لا يمكنك أن تصور كيف يكون الشخص الجيّد سيئاً أيضاً. يمكنك أن تستوعب فقط جزءاً واحداً من الكل، لأن الجزء الآخر هو جزء معاكس بالضرورة.. ويجب أن يكون كذلك.

إن الشخص المتدين هو إله مصغَّر. إنه متناقض يشبه الله تماماً؛ فهو الصيف والشتاء، الليل والنهار، الحياة والموت. إنه يشبه الله تماماً: إلهي وشيطاني في آنٍ معاً. وبهذا يفقد العقل توازنه.

إن العقل يكون في غاية الكفاءة إذا كنت تتعامل مع الاستقطابات. فإذا قلت نعم، فإن العقل يستطيع الفهم. وإذا قلت لا، فهو يستطيع الفهم أيضاً. ولكن إذا قلت نعم ولا في آن معاً، فإن ذلك يتخطّى العقل. فما لم تذهب إلى ما بعد العقل، فلن تعرف ما هو الوعي المتديّن.

لقد ولِدتُ يانيّاً، لكن الدين لا علاقة له بالمولد، إذ لا يمكن أن تولدَ في دين ما، بل على العكس تماماً: فالدين يجب أن يولد فيك. لقد ولُدتُ يانيّاً بمحض الصدفة. كان يمكن أن أولد مسيحياً، أو يهودياً. إنها حقيقة لا صلة لها بالموضوع. لأن الدين لا يمكن أن يعطى لك خلال ولادتك، فهو ليس هدية، وليس ميراثاً. إن والدي يانيٌّ، وأمي يانيَّة، ولكن لا يمكنهما إعطائي اليانية. أستطيع أن أرِث ثروتهما، وأن أرث مكانتهما، واسم العائلة.. لكنني لا أستطيع أن ارث الدين. لا يمكن يكون الدين هدية، أو إرثاً، فهو ليس غرضاً، بل شيئاً يتعيّن على المرء أن يسعى إليه بنفسه. لا أحد يمكن أن يمنحك إيّاه، وبالتالي ما يمكن إعطاءه لك هو الطائفة، وليس الدين. إن الهندوسية أو المسيحية أو الإسلام أو اليانية أو البوذية هي طوائف وليست أدياناً. الدين واحد، والطوائف كثيرة، لأن الطوائف أشكال، والطوائف أشكال ميتة ومتحجّرة. الطوائف تشبه أثر الأقدام: فأحدهم سار من هنا يوماً ما، لكنه لم يعد موجوداً، بل ترك آثار أقدام على الرمل، أي على الزمن. لقد سار بوذا وترك آثار أقدام، وأنت تستمر في عبادة هذه الآثار لقرون. لا أحد موجود الآن، بل أثر على الرمل فحسب، ولا شيء آخر.

الطوائف هي أشكال في الذهن، مثل أثر الأقدام تماماً. صحيح أن ثمة شخص كان هنا يوماً ما، لكنه لم يعد موجوداً، وأنت مستمر في عبادة تلك الأشكال.

لقد ولدت في تلك الأشكال، وتكيّفتَ معها، وأصبحتَ متعصباً. فلا تظن أنك أصبحت متديّناً، وإلاّ سوف تضيع. لكي يكون الدين موجوداً، فيجب أن تسعى إليه بنفسك. إنه نمو شخصي، ولقاء مباشر مع الحقيقة وجهاً لوجه، بل لقاء فوري ومباشر، كما أن الدين لا علاقة له بالتقاليد، ولا بالماضي. عليك أن تنمو فيه، بل عليك أن تسمح له بأن ينمو فيك.

الدين ثورة، وليس خضوعاً، وليس قناعة عقلية تتوصل إليها، بل هي قناعة من مجمل كيانك، فكيف يمكن أن تولَد في دين؟ بالطبع يمكن أن تولَدَ في منظومة ثقافية وفكرية، ويمكنك تعلّم العقائد اللاهوتية، ويمكنك تعلّم كلمات ونظريات حول الله، وتعلّم معتقدات ومذاهب. ولكن أن تعرف شيئاً عن الله، فذلك لا يعني أنك تعرف الله. إن كلمة "الله" ليست الله. وكل العقائد اللاهوتية مجتمعة لا تُقارَن بلحظة واحدة من اللقاء بالمقدس.. فحينها تنطلق شرارة النور الداخلي للمرّة الأولى، وتبدأ بالارتقاء في أبعاد مختلفة.

الدين بحث شخصي، وليس جزءاً من المجتمع.

لقد ولدت يانيّاً، وبالطبع حاولوا إرغامي على أن أكون يانياً، لكنهم فشلوا لحسن الحظ. وإنه لمن سوء الحظ أنهم نجحوا في

مسائل عديدة، لكنهم فشلوا في جعلي يانياً، وقد غضبوا منّي. لذلك إذا سألت عن اليانيين، فمن النادر أن تجد يانيّاً هنا وهناك يقول إنني يايني؛ وإنما سيقولون أنني عدو اليانية، وأنني أحطم معتقدهم، وأفسد منشأهم.

وبالمناسبة.. كلاهما على حق.

أولئك الذين يقولون إنني عدو اليانية، هم على حق في ذلك، لأنني ضد اليانية مثلما يفهمونها. إنني ضدها لأنها ليس ديناً على الإطلاق. إنها مستحاثة ميتة. وبالطبع فإن اليانية هي واحدة من أقدم الأديان في العالم، بل حتى اقدم من الهندوسية، لأن التعاليم اليانية ذُكِرَت حتى في كتب الفيدا، وفي الريغ فيدا، وقد ذُكِرَت بتبجيل عميق، وذلك يُثبت أن التعاليم اليانية أقدم من الريغ فيدا – التي هي أول كتاب هندي مقدّس- بل أقدم دين في العالم. فعندما يتحدث نص مقدس عن معلم ياني مثل ريشابّ، وهو أوّل معلّم يانيّ، فإنه يتحدث بتبجيل كبير، مما يعني أنه ليس معلّماً معاصراً. ولا بد أنه ميّت منذ ألف سنه على الأقل؛ وآنذاك فقط يمكن أن تتحدث عنه بهذا التبجيل. أمّا عن المعاصرين فلا أحد يتحدث بمثل هذا التبجيل.

يمكن للأتباع أن يتحدثوا هكذا، لكن الهندوس ليسو أتباع اليانية: والتي تعتبر من الأديان المعادية. لابد وأن ألف سنة على الأقل قد مرّت، ولابد أن ريشاب أصبح أسطورة.

اليانية قديمة جداً، والمؤرخون الآن يعملون على الخرائب والنفائس في هارابّا و موهنجيرادو. وهم يقولون إن هناك احتمال كبير في أن هارابّا و موهنجيرادو كانتا حضارتين يانيّتين، قبل أن تأتي الآرية إلى الهند، لأن الهند كانت بلداً يانيّاً.. وهذا احتمال كبير. اليانيّة دين قديم جداً، وبالطبع هي دين ميت إلى درجة كبيرة.

كلما كان الدين أقدم، كلما كان أكثر موتاً، ويكون كل ما فيه متحجّراً، والحقيقة أنك لا يمكن أن تجد شخصاً أكثر تموّتاً من الراهب اليانيّ، إذ يستمر في تقطيع حياته، في انتحار بطيء. وكلما أصبح أكثر تموّتاً، كلما عُبِد أكثر، ذلك أن الموت بحد ذاته يبدو أشبه بالتنازل: فإذا كان حيّاً قليلاً، فإن اليانيّ يخاف منه. إن الأديان الأكثر قدماً تَصْلُبُ اتباعها، وتقتلهم.

كلما كان الدين أقدم، كلما ازداد وزنه، كوزن الهملايا على قلب رجل هزيل.. دين ثقيل، وساحق، ولا يسمح لك بالحركة. ثم تستمر التقاليد بالتراكم، وتصبح مثل كرات الثلج: يتزايد وزنها، وتصبح أكثر بدانة وسمنة. إنها ميتة، لكن وزنها يستمر في التزايد. هذه التقاليد تصبح متوحشة، وبعد ذلك تفتك بالروح. تظل وفيّة للكلمة، وكلما كانت وفية للكلمة، كلما سممت الروح أكثر.

إذا سألت اليانيّين، فالقليل منهم سيقول: أجل هذا الرجل هو يانيّ حقيقي". وكثير منهم سيقولون: "هذا الرجل عدونا، بل أكبر عدو". وكلاهما محق من ناحية ما.. وكلاهما مخطئ من ناحية أعمق. إنني يانيّ؛ إذا نظرتم إلى مهافير، فأنا يانيّ. مهافير رجل دين، ليس لأنه وُلِد في دين، بل لأنه بحث، وسأل، وواجه الحقيقة. لقد رمى بكل المعتقدات، وبكل الحضارات، بل رمى حتى ثيابه، لأن ثيابه أيضاً جزء من الحضارة والثقافة، وهي أيضاً تحمل المجتمع في ثناياها.

لقد ظل مهافير عارياً، وتوقف عن الكلام اثنا عشرة سنة. ذلك أنك إذا واصلت التحدث، فإنك تستخدم لغة المجتمع، وتلك اللغة تحمل جراثيم المجتمع.

عندما تتحدث، فتصبح على الفور جزءاً من المجتمع. غير أن الرجل الصامت ليس جزءاً من أيّ مجتمع. قد يكون جزءاً من الطبيعة، لكنه ليس جزءاً من المجتمع. والحقيقة أن اللغة هي الشيء الوحيد الذي يجعلك إنساناً، وجزءاً من المجتمع الإنساني، ومن العالم الإنساني. ولكن عندما تتخلى عن اللغة، فإنك تتخلى فجأة عن المجتمع الإنساني والحضارة. فتصبح جزءاً من

الأشجار، والصخور، والسماء.

لم يستخدم ماهافير أيّ لغة لاثنا عشر سنة، وبقي صامتاً تماماً.

الحقيقة أنني أحب هذا الرجل، لأنه رجل متديّن. لقد بدأ يتكلّم فقط عندما حل الصمت في داخله بصورة شاملة. لم يتحدث من الكتب المقدسة، بل تحدث من نفسه، ومن صمته: فعندما تولد الكلمة من الصمت العميق، فتكون حيّة، وتنبض بالحياة، والذين يسمعونها مباشرة، هم الأوفر حظاً، لأنها ستموت قريباً. وكل مولود سيموت.

الكلمة هي مولود يعيش لبضعة لحظات. إنها تنبض حولك، فإذا أصغيت لها، فستدخل كيانك، وتصبح جزءاً منه. أما إذا لم تُصغِ لها، وكنت تدون الملاحظات، وتظن أنك ستحاول أن تفهمها لاحقاً في المنزل، فستكون ميتة بالفعل. عندئذٍ ستفهم شيئاً لم يقال أبداً، وتكون قد أوجدت كتابك المقدس الخاص.

ماهافير تحدث من صمته، وكانت كلماته أروع كلمات قيلت. لقد أحببت ذلك الرجل، فقد كان الرجل الأكثر عداءً للمجتمع، والتقاليد. أمّا معلّمو اليانيّة الثلاثة وعشرون الآخرون، فقد كانوا جميعاً يرتدون الثياب. أمّا هذا الرجل فقد أصبح عارياً، والتقاليد تقول إن اليانييّن في تلك الأيام حاولوا التبرّؤ من هذا الرجل، فقالوا: "ما الذي يفعله؟ إن معلمينا الآخرين لم يكونوا عراة أبداً، فلماذا يتنقّل هذا الرجل عارياً؟ لقد فعلوا كل شيء للتبرّؤ من هذا الرجل، وبسبب ذلك التبرّؤ انقسمت اليانيّة إلى قسمين منذ ذلك اليوم. وأصبح لديهم طائفتين: أولئك الذي اتّبعوا ماهافير في عريّه، وهم عدد قليل جداً من الناس، والذين سُمّوا ب ديغامباراس، أي الناس الذين يؤمنون بالعري. أمّا الطائفة الأخرى، الذين حاولوا تجنّب هذا الماهافير، وحاولوا التبرّؤ منه، وهم طائفة السويتامباراس. وهؤلاء يؤمنون باللباس الأبيض، ورهبانهم يرتدون الثوب الأبيض. وقد استمرّ النزاع بينهما.

إذا قال يانيٌّ ما: "نعم، هذا الرجل راجنيش (اوشو) هو يانٍي"، فهو على حق. إنني أحب ماهافير.. تلك الزهرة النادرة، والعبير النادر، بل النادر جداً، والفريد. غير أن الآخرين هم أيضاً على حق عندما يقولون: "هذا الرجل ليس يانيّاً، وإنما ضد اليانييّن، وعدوهم". إنهم محقّون لأنني ضد التقاليد، وضد كل الطقوس والأشكال، وضد النصوص المقدسة، وضد الماضي. إنني مع الدين بالكامل، وضد الطوائف بالكامل.

أمّا إذا سألت الهندوس، فسيقولون: "هذا الرجل يانٍي، وهو يحاول تخريب الهندوسية من الداخل؛ ذلك أنه لا يوجد يانيٌّ تحدث عن الجيتا، ولا يوجد يانٍي علّق على الأبنيشاد. هذا الرجل يحاول تخريب الهندوسية من الداخل". وهذا ما يقوله عنّي رئيس الدير في بوري (مدينة في شرق الهند): "احذروا هذا الرجل! إنه ليس هندوسياً". وهو محقّ في إحساسه، بمعنى أنه هندوسي، وأنا لست كذلك. ولكن بمعنى أنه هندوسي: فإن هذه الهندوسية لا قيمة لها.

إنني هندوسي بمعنى أن باتنجالي هو هندوسي، وبادرايان هو هندوسي، وكذلك كابيل وكاندا هما هندوسيّان.

إن الأشخاص المتدينون حقاً، لا ينتمون إلى المؤسسة، ولا يمكنهم ذلك. ومن المستحيل أن تتبعهم المؤسسة؛ ولكن ربما تتشكل ذات يوم مؤسسة تتعلق بهم. إنهم أحرار، ولا يمكنهم التواجد ضمن مؤسسة، والحرية لا يمكن أن تكون جزءاً من أيّة مؤسسة. عندما تصبح المؤسسة كبيرة جداً، فأن الحرية تموت، وحينها لا يعود العصفور قادراً على التحليق، فقد قُصَّ جناحيه، ومن ثم يُسجَنُ في قفص ذهبي، جميل ومزخرَف، ونفيس. غير أن القفص الآن أصبح أكثر أهمية، وليس العصفور، وشيئاً فشيئاً، ينسى الناس العصفور بالكامل، لأن العصفور سيموت، ويستمرون في عبادة القفص، ثم يمضون في تزيين القفص أكثر، وتنشأ المعابد من حوله، وتنشأ الكثير من التقاليد، والمؤسسات، ولا أحد يكترث قائلاً: "أين العصفور"؟

العصفور جثة هامدة في قفص ذهبي.

إنني هندوسي إذا كنتم تؤمنون بالهندوسية على أنها عصفور بجناحين، مثلما أن الأبنيشاد هندية؛ غير أني لست هندوسياً بمعنى راهب هندوسي.. أي: طير ميّت في قفص ذهبي.

أمّا إذا سألت المسلمين، فسيقولون إنه ليس لدي الحق في التحدّث عن المتصوفة، أو عن القرآن.

ذات مرّة كنت في مدينة صغيرة أتحدث عن المتصوّفة، فاقترب مني صوفي على الطريقة المولوية [7]، وقال: "ليس لديك الحق. إنك لست مسلماً، كما أنك لا تعرف العربية، فكيف تتحدث عن المتصوفة، وعن القرآن"؟

فقلت: "لا علاقة للقرآن بالعربية. إنه شيء له علاقة بالقلب، وليس باللغة". والحقيقة أن القرآن لا علاقة له باللغة، بل بالصمت. القرآن له علاقة بالحقيقة، وليس بالرموز. كما أنني لست مسلماً إذا كنت تظن أنني من أتباع النبي محمّد.. كلاّ، ليست كذلك. إنني لست من أتباع أحد. لكنني مسلم مثلما كان النبي محمد مسلماً؛ وأنا مسيحي مثلما كان المسيح مسيحيّاً. لكنني مسلم ومسيحي مثل محمد والمسيح.

من الذي يراهن بأن الإسلام لم تكن موجودا من قبلُ؟ هل كان المسيح مسيحياً؟ المسيحية لم تكن موجودة من قبل، فكيف يكون المسيح مسيحيّاً. فإذا كان المسيح مسيحيّاً، فأنا مسيحي. وإذا كان محمّد مسلماً، فأنا مسلم. أمّا خلاف ذلك فأنا لست مسلماً، ولا مسيحيّاً.

إن الرجل المتديّن لا ينتمي لأيّة طائفة.

في الحقيقة كل الطوائف تنتمي إلى الرجل المتديّن. غير أن العقل الرسمي يفكّر بهذه الطريقة: يفكر مصطلحات الايدولوجيا، واللغة، والطقوس، حيث نسي تماماً الموضوع برمته: وهو أن الدين لا علاقة له بهذه الأشياء.

إذن ما هو الدين؟

الدين هو شعور عظيم، حيث تتلاشى أنت ويبقى الوجود وحده. إنه موت وانبعاث. تموت كما أنت، ثم تُبعَثُ جديداً تماماً. شيء جديد بالمطلق ينبثق من الموت، ومن القديم. شيء يتبرعم فوق قبر القديم، ويصبح وردة جديدة.

الدين هو ثورة داخلية، وتحوّل داخلي. الدين ليس في المعابد، ولا في الجوامع، ولا في الكنائس، فلا تبحث عن الدين هناك! إذا بحثت هناك فستضيّع وقتك. ابحث عن الدين في الداخل. وكلما مضيت نحو الداخل أكثر، فسوف تجد الأنا هناك في الأعماق، والتي تشكّل عائقاً. تخلى عن ذلك العائق، وستجد نفسك فجأة شخصاً متديّناً. هناك شيء واحد فقط ليس متديّناً وهو الأنا، التي لا يمكن أن تتديّن. كما أن الطوائف لن تقتل الأنا أبداً، بل على العكس من ذلك: سوف تقوّي الأنا.

من خلال الطقوس، والمعابد، والأيديولوجيات، تتقوّى الأنا. تذهب إلى الكنيسة، فتشعر أنك أصبحت متديّناً. وفي الحقيقة، يصعد الزهو الماكر في داخلك، فلا تصبح متواضعاً، بل على العكس: تغدو أكثر أنانية. تؤدي طقساً معيّناً، فتشعر بالرضا، ثم تبدأ بإدانة أولئك الذين لا يمارسون الطقس، وتعتقد أن هؤلاء الآثمين سوف يُلقون في نار جهنّم. فهل جنتك مضمونة فقط من خلال القيام ببعض الطقوس؟ من تظن أنك تخدع؟

يجلس الشخص لمدة ساعة وهو يدوّر المسبحة، ظناً منه أنه ضَمِنَ الجنة، أمّا الآخرين الذين لا يقومون بهذا العمل الأحمق،

فسيذهبون إلى جهنّم. ثم تذهب إلى الجامع، وتسجد، وتخاطب الله قائلاً: "أنت عظيم".. فهل هناك أيّ شك في ذلك؟ لماذا تقول ذلك؟ ... "أنا الخاطئ وأنت الرحيم". ما الذي تفعله؟ هل تدعم الله؟ هل تعتقد أن الله لديه شيئاً يشبه الأنا؟ وبحيث يمكنك أن تقول من أنت: "إنك عظيم جداً"، ونحن وضيعون جداً. أنت رحيم، ونحن آثمون، فاغفر لنا". من تظن أنك تخدع؟

إن الأنا تلعب لعبتها، فتعتقد أن الله أيضاً لديه أنا يمكن تدعيمها. الله ليس شخصاً على الإطلاق، وبالتالي تخاطب نفسك. لا أحد يُصغي لك سوى الجدران، بل الجدران الميتة للجامع، أو المعبد، أو التمثال الحجري. فما من أحد يسمعك.

في الحقيقة أنت تقوم بشيء جنوني. ما عليك إلاّ أن تذهب إلى مشفى المجانين لترى أناساً يتحدثون إلى شخص غير موجود. بل حتى أولئك المجانين، ليسوا مجانين كثيراً، لأن ذلك الشخص الذي يتحدثون معه ربما يكون في مكان ما. ربما لا يكون الشخص الذي يتحدث المجنون معه موجوداً؛ فقد يتحدث المجنون مع زوجته التي قد لا تسمعه في مشفى المجانين، لأنها ربما تكون في مكان آخر..

بيد أن إلهك ليس في أيّ مكان.

إن الجنون هو أعمق وأكثر خطَراً.

كيف يمكن أن تتحدث مع الوجود؟ مع الوجود يجب أن تكون صامتاً. يجب أن تتوقف كل الأحاديث. عليك الاّ تقول شيئاً، بل على العكس من ذلك، لأن الصلاة صمتٌ. عليك أن تصغي إلى الوجود، وأن لا تقول شيئاً. إذا تكلّمت، فمن سيصغ؟ إذا تكلمتَ، وانغمست كثيراً في الكلمات، فمن سيصغ؟ إنه في كل لحظة توجد رسالة.

هناك رسالة لك في كل لحظة من مكان ما، رسالة مكتوبة في كل مكان. إن كل الوجود هو كتاب الله المقدس. الرسالة في كل مكان على كل ورقة نبات يوجد توقيع الإله. ولكن من الذي سيري؟ فعيناك وعقلك، ممتلئان بنفسك. مليئان بالنفاية التي لديك، وتستمر في تدوير تلك النفاية في عقلك. عليك أن تتخلى عنها بالكامل.

هذا ما يجب أن تفهمه، فالصلاة يمكن أن تكون مسيحية، أو هندوسية، أو يهودية.. وبالتالي هي صلاة طائفية، بل هي ليست صلاة على الإطلاق، فالصلاة الحقيقية ليست مسيحية، أو هندوسية، أو بوذية... الصلاة الحقيقية هي صمت فحسب. فكيف يمكنك القول إن الصمت هندوسي، أو مسيحي؟ إن الصمت بكل بساطة هو الصمت! ليس هندوسياً ولا مسلماً. عندما يكون شخصان في صمت مطلق، فهل يمكنك القول من هو الهندوسي ومن هو المسلم؟ في الصمت تختفي كل النحل. في الصمت تختفي كل الجماعات، وكل الحضارات.

في الصمت، تختفي أنت، ويبقى الصمت وحده، ولا يعود لك وجود. إذا كنتَ موجوداً، فلن يكون الصمت موجوداً، لأنك ستفعل شيئاً أو آخر، وسوف تستمر بالثرثرة في الداخل.

عندما لا تكون موجوداً، وكذلك المجتمع، والطوائف؛ فلا كلمات، ولا صلاة؛ لا تقرأ الكتب المقدسة، ولا تمارس التأمّل التجاوزي: "رام، رام، رام"، فكلها ممارسات حمقاء. عندما تكون ببساطة صامتاً، فيحدث اللقاء، والاندماج: فتذوب أنت! تماماً مثلما يذوب الثلج، وتذوب الحدود، وبعدها لا تعرف أين ذهب الثلج... فقد أصبح هو والبحر واحد.

تشرق الشمس، فيذوب الثلج، ويصبح ماءً. يصعد الصمت، فيبدأ العقل، العقل المتجمّد الشبيه بالثلج، بالذوبان، وتذوب الأنا. ثم فجأة يظهر المحيط، ولا يعود لك وجود.

هذه لحظة ولادة الدين؛ الدين الذي يولد في داخلك.

لا أحد يولد في الدين، فالدين يولَدُ في داخلك.

ينبغي أن تصبح أمّاً، ورحماً، لكي يتشرب داخلك الدين، ولكي ينمو فيك، عليك أن تمنحه الحياة. والحق أنك لا تولدُ في الدين، لذا عليك أن تلد الدين. حينها يكون الدين جميلاً، وحينها يكون شيئاً من المجهول، ولا صلة له بالإنسان.

هذا هو معنى الولادة العذرية للمسيح. المعنى برمّته هو بكل بساطة: أن شخصاً كالمسيح لا يولد من إنسان. الوعي الديني لا يولَدُ من الإنسان، بل يولَدُ من المجهول.

إن مريم، أمُّ المسيح، هي امرأة عذراء؛ لم يمسّها رجل. وهذا شيء رمزي. ليس معناه أن المسيح وُلِدَ من عذراء بيولوجياً، فبهذا تنسى المعنى المجازي؛ وتنسى جمال القصة، لتتحول إلى عقيدة مروّعة، وتفقد شاعريتها. كان المسيحيون يجادلون لقرون، ويحاولون بطريقة أو بأخرى إثبات أن المسيح وُلِد بالفعل من أمٍّ عذراء. كيف لرجال اللاهوت أن يكونوا بهذا الغباء الشديد؟ إنه لأمر عجيب! ثم يستمرون في المحاولة والإثبات، وهم أذكياء للغاية، ومولعون بالجدال.. لكنهم عمياناً.

عندما تفقد الشاعرية وتحاول أن تخلق نقاشاً من ذلك، فإنك تحطّم الدين. إنك لا تساعد بشيء، بل تُبعد الناس عن الدين، بعدها تصبح المسيحية برمتها منافية للعقل، بسبب وجود شيء منافٍ للعقل في الأساس. إن هذه حقائق شاعرية، والحقائق الشاعرية ليست حقائق منطقية، فالحقائق المنطقية لا تساوي شيئاً، فهي حقائق عاديّة. الحقائق الشاعرية هي حقائق استثنائية للغاية في نوعيتها بحيث لا تستطيع إقامة جدال حولها. إن الجدال محدود جداً، والحقائق الشاعرية تحتاج إلى مساحة كبيرة، ووحدها الرمزية الشعرية التي يمكنها أن تعطي تلك المساحة.

هذه شاعرية جميلة، فأنا أيضاً أقول إن المسيح وُلِدَ من أم عذراء. ذلك أنه لا توجد وسيلة أخرى، فالوعي الديني لا يُمَسُ، ولا يمكن إفساده من قبل الإنسان.

إن الوعي الديني يعني أن عليك التخلّي عن كل شيء من صنع الإنسان: كالمذاهب، والمعتقدات، والكنائس، والكلمات، واللغة، والصلاة، والأشكال، والطقوس.. عليك التخلي عن كل ما هو من صنع الإنسان.

عندئذٍ، وفي ذلك الصمت، يصبح الله ذاته جزءاً منك. وتصبح حاملاً الله في أحشائك، وينمو الحمل كل يوم، وكلما نما أكثر، كلما أصبح أكثر حياةً، وبدأت تشعر أن الآن لديك شيئاً أكثر قيمة من حياتك.

إن الأم على استعداد دائماً للموت من أجل طفلها. فإذا حلت بها كارثة، ولا يمكن إنقاذ سوى شخص واحد فقط: إمّا الأم أو الطفل، فإن الأم تموت على الفور: إذ لابد أن ينجو الطفل.

هناك حكاية رمزية أيضاً أود أن أرويها لكم:

يقالُ إنه عندما يولد بوذا، فتموت الأم على الفور. وهذا أيضاً ما خلق المشاكل للبوذيين، فهم يقولون إنه إذا كانت مريم حية، ولم تمت، وولد المسيح، فالمسيح لا يمكن أن يكون بوذا، لأنه عندما يولد شخص مستنير: تموت الأم! فقد مات والدة بوذا. وبالتالي لا يمكن لماهافير أن يكون بوذا، وكذلك كريشنا، لأن الشرط الأول لم يتحقق. وهكذا تتحول الرموز الجميلة إلى بشعة. إنها رموز جميلة! وأنا لا أعرف ما إذا ماتت والدة بوذا أم لا، فهذه المسألة لا علاقة لها بالموضوع. سواء عاشت أو ماتت، فذلك ليس بيت القصيد. غير أن المسألة هي: عندما يولد الوعي الديني في داخلك.. عندما تكون حاملاً بالبوذية.

عندما تكون حاملاً بالاستنارة، وتحمل الاستنارة كطفل في داخلك، فسوف تموت، لأن الاثنان لا يمكن أن يعيشا. وهذه هي مجمل رسالة هذه السلسلة من الأحاديث: لا شيء ممكن، حتى تموت.

يجب أن تموت الأم لكي يولد الطفل، لأنه لا يمكن لكلاهما أن يكونا موجودين.. لأنك أنت الأم، وأنت الطفل. إنك لست شخصين. عندما تصبح مستنيراً، فلابد أن يموت القديم على الفور. إذا تشبثت بالقديم، فسوف تجعل استنارتك كسيحة. إذا تشبّثت بالقديم، ستخنق الطفل، وإذا تشبث بالقديم بشكل كبير، فسوف يموت الطفل قبل أن يولد.

تذكّر دائماً: الدين قصيدة شعرية، وليس منطقاً، ولا حتى فلسفة.. إنه فن. والفن ليس جدالاً. الفن لا يعنيه الجدال بشيء. يمكن للفن أن يغويك بدون جدال، فلماذا يهتم للجدال؟ الفن في غاية القوة، ولا يحتاج للجدال لكي يغويك. هناك حاجة للجدال في العوالم المتدنية حيث لا تكون الأشياء من القوة لكي تقنعك.. وعندئذٍ تحتاج للجدال. عندما يكون الشيء بحد ذاته قوياً للغاية، عندما يكون مادة منوّمة قوية، ويستطيع التحويل بقوّة، بحيث يمتصّك فيه على حين غرّة، فلا حاجة لإقناعك.

أنا لا أحاول إقناعك أبداً، فإذا اقتنعت، فهذا جيد، وإذا لم تقتنع، فذلك جيد أيضاً، لكنني لا أحاول إقناعك بأي شيء، لأن الإقناع شيء تافه للغاية. إذا اقتنعت من خلال الجدال، فلن تصبح متديّناً أبداً. ربما تصبح فيلسوفاً، وقد تحمل في رأسك عقيدة، لكنك لن تصبح متديّناً.

الدين يشبه الحب: فأنت تشعر به، ومن دون سبب على الإطلاق. لا يمكنك أن تثبت الحب؛ لأنه لا يحتاج لإثبات.

الإثبات تحتاجه عندما تفكر بالزواج فقط. والجدال تحتاجه في زواج مرتَّب.. بعدها تفكر في العائلة، وبوالدي الفتاة، وبالمال، والمهر، وباحتمالات المستقبل، وبالعلاقات السياسية، وفي كل شيء تفكّر بشأنه. لكنك عندما تقع في الحب، فإن ذلك يحدث فجأة، حيث لا توجد مهلة زمنية.

الأمر نفسه ينطبق على الدين؛ إنك تقع في حب رجل متديّن، ولا تستطيع إثبات ذلك. فإذا جادلك شخص ضد هذا الأمر، فإنه من السهل للغاية أن تُثبت شيئاً ضد ذلك، ولكن من المستحيل تقريباً أن تبرهن بأي شيء عن ذلك الحب. هذا هو السبب في أن الثقة، والإخلاص، هما عمى شديد. ولكن لأول مرة تبدأ عينك الثالثة تعمل في ذلك العمى الشديد؛ فالعمى الشديد من الخارج يصبح بصيرة شديدة من الداخل.

والآن لنحاول أن نفهم هذه القصة:

جاء مريدٌ إلى معروف الكرخي وقال:

"كنت أتحدث للناس عنك. فاليهود يدّعون إنك يهودي؛ والمسيحيون يبجلونك على أنك واحد من قدّيسيهم؛ المسلمون يصرون على أنك أعظم مسلم".

فأجاب معروف: "هذا ما يقوله الناس في بغداد. وعندما كنت في القدس، قال اليهود التي مسيحيّ، والمسلمون قالوا انني يهوديّ، والمسيحيون قالوا إنني مسلمٌ".

فقال الرجل: "ماذا يجب ان نظنك إذن".

فقال معروف: "البعض لا يفهموني، ويبجّلوني. وآخرون ليسوا كذلك، ولذلك يلعنوني، وهذا ما جلت لقوله: يجب ان

تفكّر بي على أنك الشخص الذي قال هذا".

الان: جاء مريدٌ إلى معروف الكرخي وقال...

معروف الكرخي هو أحد المعلمين الصوفيين، ويقال إن مئة شخص أصبحوا مستنيرين من خلاله. لقد طوّر الكثير من الوسائل الجديدة؛ وكان حقاً رجلاً متديناً، لا ينتمي لأية عقيدة متزمتة، ولا لأيّ عرف، أو تقليد. كان شريداً لا جذور له؛ يطوف كالسحابة البيضاء.. بحرية مطلقة في كيانه.

جاء مريدٌ... في الحقيقة، لا يمكن أن يكون المريد مريداً حقاً؛ إذ لابد أن يكون تلميذاً. ذلك أن هناك مشكلة في الترجمة الإنجليزية: لأنك في الإنجليزية لا يمكن أن تميّز كثيراً بين المريد وبين التلميذ؛ ولا يمكن أن تميّز كثيراً بين المعلم وبين المدرّس ولكن في الشرق هناك فارق كبير بين هذه المصطلحات.

المدرّس لديه تلاميذ، وليس مريدين؛ فالمدرّس هو مدرّس. وبالطبع فإن المدرّس يمكن أن يعلّمك ما يمكن تعليمه. الدين لا يمكن تعليمه، أمّا الأشياء التي تدور حول الدين فيمكن تعليمها. وهذا هو اللاهوت: إنه أشياء عن الله، لكن الله نفسه لا يمكن تعليمه. إن المفاهيم عن الله، هي نظريات.. سواء كانت صحيحة أم خاطئة. وهناك الملايين من النظريات.

والواقع أن الإنسان قد اخترع نظريات كثيرة جداً حول الله إلى درجة أن الله ضاع في هذه النظريات بكل معنى الكلمة.

لقد أصبح خالي الجوهر، ذلك أنه عندما تلفظ كلمة "الله" فلن يبقى فيها جوهر، فتبدو مثل فقاعة الهواء التي لا تحمل في داخلها سوى هواء ساخناً. عندما تقول كلمة "الله" فلن تُقرَع الأجراس في القلب. عندما تلفظ كلمة "الله"، فلن تحمل دلالة كبيرة. لقد قتل ما يُسمى بالمفكرين الدينيين الكلمة تماماً. حطموا جمالها.

في اللحظة التي تلفظ فيها كلمة "الله" فإنك تؤخّر الكثيرين. إن الكلمة تحمل الكثير من العنف والبشاعة والنزاع وضيق الأفق لدى ما يسمى برجال الدين. كما لم تعد لهذه الكلمة الآن أية شاعرية. إن المدرّس يستطيع تعليمك كل شيء من الله، ويمكن أن تصبح دكتوراً في اللاهوت يعيش مع مدرّس، والأمر الذي لا يُصَدّق أن اشياء كهذه توجد على هذه الأرض، حيث الأشخاص الذين يحملون شهادة الدكتوراه في اللاهوت.

الله ليس نظرية؛ إنه اختبار، ولا يمكنك أن تتعلّمه.

يقول لاوتسو، الولد الكبير –فكلمة لاوتسو تعني الولد الكبير، وهذه حكاية أخرى: قيل إن لاوتسو وُلِد كبيراً؛ أي عندما كان في الثامنة والأربعين من عمره، أي أنه عاش في رحم أمه ثمان وأربعين سنة.

عندما وُلِد، كان في الأصل قديماً بلا أدنى شك.. كان شَعرُه أبيضاً بالكامل، ومتغضّن الوجه. فما معنى ذلك؟ المعنى هو أنه عندما يولَدُ الوعي الديني، فهو دائماً يكون قديماً وجديداً في أن معاً. ولهذا السبب كان اسم لاوتسو: أي الولد الكبير.. كبير رغم أنه صغير.

يقول لاوتسو: "الحقيقة لا يمكن أن تقال. كما أن كل ما يمكن أن يقال لن يكون صحيحاً".

إن المدرّس هو شخص يعلّم الحقيقة التي لا يمكن تعليمها. فهو يعلّم حول الحقيقة؛ أي أنه يمضي في الدوران حول الحقيقة حولها. يضرب خبط عشواء، ولا يصيب المركز. أمّا التلميذ فهو الشخص الذي يستفسر عن الله، ولا يروم الله؛ أي الشخص الذي جاء لكي يعرف الله، وليس ليكون إلهاً. فبحثه عقليٌّ، وليس شمولياً. التلميذ يحاول أن يجمع المزيد من المعرفة؛ يريد أن

يصبح أكثر معرفة، وأن يكدّس الكثير من المعلومات.

يقال عن أحد تلامذة معروف الكرخي– وقد أصبح مشهوراً جداً، إلى درجة أن الناس أخذوا يأتون إليه ويسألونه عن أشياءَ، حتى عندما كان معروف الكرخي على قيد الحياة. بل إن الكرخي كان يجلس هناك مع التلاميذ أحياناً، وكان الناس لا يأتون إلى معروف الكرخي، بل إلى التلميذ لكي يسألونه عن أشياء معيّنة. لقد أصبح على درجة عالية من الكفاءة في الكتب المقدسة؛ فقد التهم كل الكتب المقدسة، وأصبح بارعاً مثل جهاز الكومبيوتر.

ذات يوم جاءه شخص وسأله سؤالاً يتعلق بتشريع ما في القرآن، فتلا عليه التلميذ السورة المقدسة بأكملها، بعد ذلك تلا كل التفاسير حولها. بدقائق، واستحضر كل ما هو موجود في الكتب المقدسة. كان يناقش بهذه الطريقة أو تلك، وحاول أن يستخلص النتيجة. كان معروف الكرخي يجلس ويستمع. والرجل كان في غاية الذهول لغزارة هذه المعرفة.

فتوجه إلى الكرخي قائلاً: "إنك محظوظ لأن لديك مثل هذا التلميذ، فهو جوهرة نادرة! إنه غزير المعرفة، وأنا لم أصادف من قبل مثل هذا العقل النيّر، ومثل هذا العبقري. فماذا تقول في شأنه"؟

فقال الكرخي: "ينتابني القلق دائماً. ينتابني القلق لأنه يقرأ أكثر من اللازم. كما أنني قلق لأنه ليس لديه الوقت لكي يعرف؛ فكل وقته يمضيه في القراءة. إنني قلق بشأن متى سيعرف، إذا لا وقت لديه".

التلميذ ليس مهتماً بأن يعرف، بل مهتم بالمعرفة. الأستاذ يجذب التلميذ، والمعلّم يجذب المريدين. المريد ليس تلميذاً، ولم يأتِ لكي يعرف عن الله، بل لكي يصبح إلهاً، وليكون إلهاً. لم يأت المريد لأجل المزيد من المعرفة، بل من أجل المزيد من الكينونة. دعوني أكرر: المريد يسأل عن كيفية اكتساب المزيد من الكينونة، والتلميذ يسأل عن كيفية اكتساب المزيد من المعرفة. لقد أتي المريد إلى المعلّم لكي يكون، وهذا استفسار مختلف كلياً، فالبعد مختلف تماماً، وليس مختلفاً وحسب، بل معاكس بكل معنى الكلمة. فالتلميذ يذهب إلى الغرب، والمريد يذهب إلى الشرق. ويقال إن الشرق والغرب لن يلتقيا أبداً...فلست أدري. والحقيقة أنه لابد أن يلتقيا في مكان ما لأن الأرض دائرية. غير أن هناك شيئاً واحداً أعرفه: وهو أن التلميذ والمريد لا يمكن أن يلتقيا، ولن يستطيعا. فما لم يتخلَّ التلميذ عن كونه تلميذاً، فلا يمكنه أن يصبح مريداً. يقال عن معروف الكرخي إنه عندما يأتي شخص... وقد أتي إليه آلاف الأشخاص من أماكن نائية من العالم.

فقد أصبح الكرخي، معهداً، بل جامعة في حد ذاته، لكونه بالطبع ليس رجل معرفة.. كلما أتي إليه تلميذ، أو مريد، أو باحث، فكان أول سؤال يسأله الكرخي: "هل تريد أن تتعلم، أم تريد عدم التعلّم؟ هل تريد أن تكون مريداً، أم تلميذاً؟ لقد كان هذا سؤاله الأول دائماً، لأن ذلك سيقرر كل شيء.

هذا الرجل الذي وصل إلى معروف الكرخي لابد أنه كان تلميذاً، ولم يكن مريداً، لأن المريد هو الشخص الذي وصل بالفعل إلى مرحلة الثقة. أمّا التلميذ فهو يبحث عن الثقة. المريد خلص في كيانه إلى نتيجة مفادها أن: "هذا هو معلّمي"، وبالتالي هو مريد. "هذا هو معلّمي! لقد جئت إلى الشخص الذي أبحث عنه. هذا هو ملجأي، وهذا هو ملاذي". ها هو المريد قد ولِدَ فجأة، ذلك أن المريد يولد من الثقة، فالمريد لا يستفسر عن مثل تلك الأشياء التي يستفسر عنها ذلك الرجل. لقد وقع في الحب، وبلغ حد الإيمان. لقد استسلم، بينما التلميذ لا يستسلم. سوف يتعلّم، ويراقب، ويلاحظ، ويرى، فإن اقتنع– وتذكّروا هذا جيداً – إن اقتنع، فإن الحكم النهائي سينبثق من الرأس.

قبل أيام فقط كنت أقرأ شيئاً سخيفاً للغاية قاله معلّم هندي أصبح مشهوراً في الغرب هوسري شينموي، ويُدرّسُ في الأمم المتحدة في جنيف. وكنت اتعجب مما يفعله هناك. قرأت له تصريحاً أدلى به عندما سأله شخص: "كيف تحكم، وكيف تجد

معلّماً"؟

فقال: "استخدم دماغك".

والآن بت أعرف لماذا هو في الأمم المتحدة: لأن السياسيون، الناس الحمقى، موجودون هناك. " استخدم دماغك"! لكن الأمر يصبح أكثر سخافة عندما يقول: "ضع في ذهنك مئة علامة لكي تعطيها، بعد ذلك راقب المعلّم فيما إذا كان أميناً، ومخلصاً، وصادقاً في كلمته، وأخلاقه، وسلوكه. راقب كل شيء، ثم أعط العلامات في ذهنك. فإذا حصل المعلّم على ثلاثين علامة، فهو لا يصلح لك، واتركه. إذا حصل على ثمانين إلى تسعين علامة، إذن فهو معلمك".

إنه أمر مضحك، لأنك ستحصل على مدرّس، وليس معلّم.. فيما لو استخدمت دماغك. لكنك في نهاية المطاف تبقى العامل الحاسم، فأنت من يقرر. ولكن هل تعرف ما هو الصدق؟ قبل كل شيء، أعط العلامات لنفسك! استخدم عقلك هل تعرف ما هو الصدق؟ هل تعرف ما هي الأخلاق؟ هل أنت متأكد مما هو الجيّد، وما هو السيّئ؟ هل تعرف ما هو الشر، وما هو الذي ليس شرّاً؟ قبل كل شيء أعط علامة لنفسك.. استخدم دماغك! إذا حصلت على ثلاثين علامة، فأسقط نفسك بالكامل، لأنك عديم الفائدة! أمّا إذا استطعت الحصول على ثمانين أو تسعين علامة، فلست بحاجة لمعلّم، لأنك معلّم بالفعل، فاذهب وابحث على مريدين.

أن تستخدم عقلك هو ببساطة أمر لا يُصَدّق! فالمعلّم ليس سلعة في المتجر. إن المعلم، من خلال كيانه ذاته، يشكّل لغزاً، لأنك ستواجه المتناقضات فيه. إن الثنائيات تندمج فيه، فهو يحتويها كلها.

تستطيع أن تجد أستاذاً إذا استخدمت دماغك؛ وعندئذٍ ستكون طالباً. أما إذا استخدمت قلبك، فيمكنك أن تجد معلّماً، وعندئذٍ فقط يمكن أن تصبح مريداً. المريد يكون في حالة حب! والحب كامل دائماً، ليس بنسبة ثمانين أو تسعين بالمئة، وإنّما كامل. إما أن يكون الحب موجوداً، أولا يكون. فإن لم يكن موجوداً، فهو أيضاً غير موجود بشكل كامل. لا يوجد فيه وضع وسطي، فالوسطية غير ممكنة؛ الوسطية هي طريقة العقل، أمّا الكلّية في طريقة القلب.

لأبد وأن هذا الرجل كان تلميذاً. لذلك دعوني أقول:

"جاء تلميذ إلى معروف الكرخي وقال: "كنت أتحدث مع الناس بشأنك".

لابد أن استخدم الدماغ. ولابد أنه كان تلميذ سري شينموي.

"كنت أتحدث مع الناس بشأنك". عليك أن تلتقي بالمعلّم مباشرة، ووجهاً لوجه، وعين مقابل عين، وقلب مقابل قلب. ما هذا الهراء وفي الحديث عن المعلّم لأشخاص آخرين لكي يعرفوا من يكون!

والواقع أن العديد منكم يفعلون الشيء ذاته أيضاً. يتنقلون في كل الأماكن، ويحدثون الناس عني. لماذا لا يأتون مباشرة إليّ؟ لماذا تهدرون وقتكم مع الناس؟ إنها حماقة العقل البشري أنكم لا تعرفون الشخص الذي تتحدثون له عنّي.. إنكم تثقون به ولا تثقون بي. إذا كنتَ شخصاً يقودك الدماغ، إذن تحدَّث عنه للآخرين، وعن هؤلاء إلى أشخاص آخرين غيرهم.

عليك أن تقرر أولاً ما إذا كان ذلك الشخص أميناً ويمكن تصديقه: "هل يمكن تصديق أي شيء يقوله عن المعلم"؟

إنك تسأل عني.. لماذا لا تسأل أولاً A عن B، وبعد ذلك تتحدث عن B إلى C؟ عندها ستكون في حالة نكوص ليس لها حدود. غير أنك إذا قلت شيئاً خاطئاً عني، فسوف تتبناه، وبعد ذلك سيكون جزءاً منك بشكل دائم. أو، إذا قلت شيئاً

جيّداً عني، فسوف تتبناه أيضاً، ويصبح جزءاً منك بصورة دائمة، وذلك سيقرر كل شيء، لذلك لا تسأل عن A، ومن يكون هذا ال A!

لماذا تدور في حلقات ودوائر؟ ... لا توجد نهاية للدوران. هناك طريقة واحدة فقط لكي تأتي إلى المعلم: أن تقابله وجهاً لوجه، وعينٌ لِعَينٍ، وقلب لقلب! ولا تسأل أيّ شخص، لأنك عندها ستضمر تحيّزاً إما مع أو ضد، وذلك التحيّز سيكون دائماً بينك وبين المعلّم، وسيصبح حاجزاً. ستبحث دائماً عما إذا كان ذلك التحيّز صحيحاً أم خاطئاً. سوف يُلَوِّنُ تفكيرك، وسينحاز له أي شخص أحمق. والحقيقة إنك شخص غير واعٍ ابداً، بحيث يمكن لسائق التاكسي الذي يحضرك إلى الأشرم أن يُفسِدَ عقلك. يمكنك أن تسأل عنّي – فكثيرين منكم لابد وأنهم سألوا سائق التاكسي– لأن العقل يستمر في طلب المعلومات، ومعرفة رأي الآخرين، إذ يقول: "لابد أنهم يعرفون". ويجب أن تسأل الجيران: "لابد أنهم يعرفون"، رغم أنهم آخر أناس في العالم يعرفون عنّي.

الجيران لا يمكن أن يعرفوا.

للمسيح قولان، الأول: أحبوا أعداءكم مثلما تحبون أنفسكم. والثاني: أحبوا جيرانكم مثلما تحبون أنفسكم. ويبدو أن الجيران والأعداء هم في الخانة نفسها.

هذا الرجل لابد وأنه كان سائلاً عادياً، فقد قال:

"كنت الحين للناس عنك. اليهود يدّعون أنك يهودي؛ والمسيحيون يبجلونك على أنك واحد من قدّيسيهم، المسلمون يصرون على أنك أعظم مسلم".

لابد أنه التقى بالمريدين، أولئك الذين وقعوا في حب المعلم. لقد عاش معروف الكرخي قرب بغداد، وقد أصبحت بغداد عاصمة الوعي الديني عندما كان الكرخي على قيد الحياة.

إذا كان المريد يهوديّاً، فسيقول: "إن معلمي هو اليهودي الأكثر كمالاً". والحقيقة أن لدي الكثير من اليهود هنا، ويعرفون أنني اليهودي الأكثر كمالاً. ما إن تقع في الحب، مهما كان هذا الحب جميلاً، وعظيماً بالنسبة لك، فسوف تسلطه على المعلم. يوجد بين مريديَّ من كل أصناف البشر تقريباً، الذين ينتمون إلى كل الديانات... اليهودية، الهندوسية، والمحمدية، والمسيحية، واليانية، والبوذية. فإذا أتى إليَّ بوذي وأحبني، فسيعتقد أنني البوذي الأكثر كمالاً، وسيبحث عن كل شيء يقنعه بأن ذلك صحيحاً.

فأجاب معروف "هذا ما يقوله الناس بغداد".

هذا يعني: "اتباعي، وشعبي، وجمهوري. هذا ما يقوله الناس في بغداد.. ما يعني جمهوري، وشعبي".

"وعندما كنت في القدس، قال اليهود انني مسيحيٌ، والمسلمون قالوا إنني يهوديّ، والمسيحيون قالوا إنني مسلمٌ".

إذا أراد المتديّن أن يجد أعداء، فإن أفضل الأمكنة لذلك هي القدس، وكوابا، وكاشي. هذه الأمكنة هي أفضل الأمكنة للبحث عن أعداء، لأن هذه الأمكنة هي معاقل التعصّب: فكاشي للهندوس، والقدس لليهود، وكوابا للمسلمين. إنها معاقل وحصون الطوائف، حيث الدين المتحجّر محمي ومصان؛ حيث تُزَيّن الجثة باستمرار، وتُلوّن للمؤمنين.. ولخداعهم بأن الجسد ليس ميتاً؛ وحيث تُعَدَّل الجثة باستمرار لكي تلائم الأوضاع الجديدة بحيث لا تكون هناك حاجة للتخلّي عنها، وبحيث تدوم

استمرارية الموت، وهنا تكمن المشكلة.

إذا أردت أن تجد أشخاصاً معادين للمتدين، فاذهب إلى هذه الأماكن المقدسة والإلهية. والحقيقة أن هذه أكثر الأماكن لا قداسة في العالم، ويجب أن تكون كذلك، لأن جثة الدين الميتة للدين تفوح رائحتها، فهل يمكن أن تجد مكاناً أكثر قذارة في العالم من كاشي؟ إن كل الروائح الكريهة تفوح من الدين الميّت. لكنك إذا كنت مؤمناً، فلن تصغ لأحاسيسك، ولن تُصغِ لوعيك، وسوف تستمر في رؤية أشياء ليست موجودة.

وتستمر في تصوّر أشياء غير موجودة.

يقول الكرخي: "هذا ما يقوله الناس في بغداد. ولكن عندما كنتُ في القدس، كانت الحالة على النقيض تماماً، فالجميع كانوا يقولون إنني لا أنتمي لهم، بل إنني عدوهم؛ فاليهود اعتقدوا أنني مسلم عدو. والمسلمون اعتقدوا أنني يهودي عدو. والمسيحيون اعتقدوا أنني مسلم عدو. ومن كل هذه الأديان الثلاثة، لم يكن أحد على استعداد لأن يقبلني في جماعته".

الأشخاص المتديّنون لا يمكن أن يُقبّلوا في أية جماعة، ولكن يمكن أن يُقبَلوا فقط في القلب المحب، ولكن ليس في منظّمة، لأن المنظمات ليس لها قلوب. لا يمكن للمتديّن أن يُستَوعب في أيّة مؤسسة، فوحده الشعور الشخصي، والقلب المحب، يمكن أن يصبح مكاناً مقدساً له.

لابد وأن الرجل قد احتار الآن، ذلك أنه جاء للاستفسار عمّن يكون. ربما كان الرجل مسلماً، وأراد أن يقتنع بأن هذا الكرخي كان مسلماً لكي يتبعه. ربما كان الرجل يهودياً، وأراد الاقتناع بأن الكرخي كان يهودياً بحيث يمكن أن يتبعه.

في الحقيقة إنك تتبع نفسك، ولا تتبع أيّ معلّم.

إذا كنت هنا لأنني أقول أشياء تعرف أصلاً أنها صحيحة، فأنت لست معي. وبالتالي فأن أخاطب عقلك فقط. إذا كنت هنا لأنك ترى في شخصاً يانيّاً، فهو لأنك يانيّ.. وعندما أتحدث عن ماهافير، فإنني أستطيع على الفور إحصاء عدد اليانيين هنا، لأن أعينهم تتغير بكل بساطة، وعمودهم الفقري يصبح مستقيماً، وتبدو مشدودة للغاية. لقد انتبهوا للمرّة الأولى، وإلاّ لكانوا يغطّون في نوم عميق. إذا كنت أتحدث عن اليهود فيمكنني في الحال إحصاء اليهود الموجودين هنا. غير أنني إذا لم أحسم من تكون أنت، فعندئذٍ فقط تكون معي، لأنك إذا كنت يهودياً، وكنت تصفي لي، وتشعر بأن أيّ شيء أقوله، هو الدين اليهودي، فستبقى معي. إنني مجرّد داعم لقناعاتك، مجرّد داعم خارجي. لم أدخل إليك، فأنت لم تسمح لي بالدخول.

كثير من الأشخاص يأتون إليّ ويقولون: "كل ما قلته كان جميلاً، لأن هذا ما آمنا به طوال حياتنا، فأنت تقوله على نحو أفضل مما نستطيع قوله نحن". إذن هذا كل شيء، فقد انتهوا منّي، وانتهيت منهم، ولم يكن هناك التقاء.

لقد سمع اليهودي صوته من خلال صوتي. لقد فَسّر عقله، وبقي مومناً بأناه. لم يتخلَّ عن أمتعته قيد أنملة، بل على العكس تماماً، فهو الآن أكثر اقتناعاً بأمتعته القديمة، وسيظل يحملها بقوة أكثر من قبل، وباقتناع أكبر.

كلاّ! وتذكّر هذا: أنا لست هنا لكي أجعلك يهودياً، أو هندوسيّاً، أو مسيحياً. كلاّ. إنني هنا فقط لكي أجعلك شخصاً متديّناً.

لابد وأن الرجل كان في حيرة.

"ماذا يجب ان نظنك إذن؟ قال الرجل. لقد اثَرتَ حيرتي، واربكتني.

كل المتدينين يربكونك بطريقة أو بأخرى. يخلقون التشوش في داخلك، والسبب هو أنه يجب اقتلاعك من الجذور في المقام الأول. اولاً يجب أن يتم هدمك، إذ لا يوجد شخص متدين يهتم بإصلاحك، لأنه مهما جددك فستبقى قديماً، بل شيئاً ميّتاً، وبالطبع معدلاً، ولكن ليس جديداً، وليس شاباً. إن الشخص المتديّن يرغب بهدمك بشكل كامل، وبسحبك من جذورك، لكي يساعدك بعدها للظهور من جديد.

لا يمكن عمل شيء قبل أن تموت. إن المعلّم يُميتك من ناحية، ويعيد بعثك من ناحية أخرى. المعلم يصلبك؛ إنه صليب. إنك تموت في الوضع الذي أنت عليه، ثم تولَدُ مثلما ينبغي أن تولَد.

لهذا كان الرجل مرتبكاً.

"ماذا يجب ان نظنك إذن؟ قال الرجل.

فقال الكرخي: "البعض لا يفهمونني..".

أصغ لهذه الكلمات، فهي ذات مغزى كبير.

"البعض لا يفهمونني، ويبجلوني..".

الناس لا يفهمون، وبالتالي يبجلون. إنهم بالفعل أناس حمقى، فإن لم يفهموا شيئاً، فإنهم يبدأون بتبجيله، ذلك أنهم يعتقون أنه لابد وأن هناك شيء في منتهى الغموض: "عندما لا أستطيع الفهم. في حين أنني ذلك الشخص الذكي والعبقري.. فلابد وأن هناك شيء غامض جداً". وكثيرون يستغلّون هذه المواقف. فإذا قرأت كتب هيغل، فستجد أن هذا ما يفعله. إنه يستمر في جعل كل شيء يبدو صعباً قدر الممكن. لكنها ليست صعبة! بل إنه لتمرين جيد أن تدرس هيغل، ذلك الفيلسوف الألماني، والتي كان يُعتقَدُ في زمنه أنها أعظم كتب، ولكن مع مرور الوقت تتدني أكثر فأكثر، فهي تفقد غموضها عندما تفهمها، ولا يعود موجوداً سوى اللغو. لو أمكنه أن يقول شيئاً بكلمة واحدة، فإنه سيستخدم مئات الصفحات. لو أمكنه أن يقول شيئاً بجملة واحدة، فسوف يلف ويدور، ويلف ويدور حولها في صفحات، ولن تكون قادراً على تذكّر بداية الجملة عندما تصل إلى نهايتها، ذلك أنه يكتب جملاً طويلة، وأحيانا تستغرق جملة واحدة صفحة كاملة. عليك أن تعيد قراءتها مرات عديدة، فيا له من شخص مربك.

هناك كثير من الأشخاص المربكين الذين يستغلّون غباء البشريّة في أنَّ أيّ شيء لا تستطيع فهمه، فيجب أن يكون شيئاً رائعاً، ومهيباً، ومجهولاً، وغامضاً، وهؤلاء هم أشخاص مستغلّون.

الحالة معاكسة تماماً عند من هم حكماء بالفعل، فهم يتحدثون بجمل قصيرة، وبسيطة، وغير معقَّدَة. ويمكن لمن يمتلك ذكاء عاديا أن يفهم أيّ شيء يقولونه، فهم ليسوا أناساً غامضين. كما أن أيّ شيء يعلّمونه، فهو بسيط للغاية مثلما هي الحياة بسيطة، ومثلما هو الوجود بسيط، لأن الأنهار والجبال بسيطة، ومثلها الطيور والأشجار بسيطة.

الحكماء هم رجال بسطاء، غير أنك كلما فهتهم أكثر – وفهمهم أمر بسيط– وكلما تغلغلت أكثر في بساطتهم، كلما وجدت أبعاداً جديدة للألغاز تُفتَح. إن كلماتهم بسيطة، لكن ما يريدون الإشارة إليه هو أمر غامض. إشارتهم بسيطة، لكن المشار إليه غامض.

انظر إلى إصبعي – وهو شيء بسيط – فأنا أشير بإصبعي إلى القمر. القمر هو الغامضُ، وليس إصبعي. الإصبع ظاهرة

بسيطة للغاية، وما من شيء يُقالُ حوله. الكلمات تشبه الأصابع، وهي تشير مثلما تشير الإصبع نحو الشيء الغامض.

"البعض لا يفهمونني، فيبجّلوني..".

لقد بجّلتَ أشخاصاً كثيرين، وبجّلتَ الكثير من المعتقدات، لمجرّد أنك لا تستطيع فهمها.

لدى غورودييف أتباع كثر؛ ولأنهم لا يستطيعون فهمه، فلذلك يتبعونه. غورودييف لا يشبه هيغل، فهو لا يثير الحيرة، ولكن لديه شيء آخر يقوم به.

إنه لا يريد لأشخاص غير مرغوب بهم أن يكونوا بقربه، ولذلك يكتب بمثل هذه الطريقة، بحيث أنك ما لم تكن صبوراً، فلن تكون قادراً على النفاذ إليه. إنه ليس صعباً، بل سهل، لكن منهجه يعمل على إبعادك، حيث لا يمكنك قراءة أكثر من بضع صفحات. والواقع أنني لم أصادف حتى الآن شخصاً قرأ كتاب الكل وكل شيء بالكامل.

لقد غادر الناس بسبب ذلك، وكان غورودييف يعرف أن هذا سوف يحدث، فهو يكتب بأسلوب ممل، ومُضجِر، وهذه هي الطريقة المعتَبَرة بعينها، لأنه يعمل على إبعادك.

عندما نُشِرَ كتاب الكل وكل شيء لأول مرّة، لم تكن الصفحات مُقتطَعَة. فالصفحات التي اقتُطِعت هي صفحات المقدمة التمهيدية فقط، والتي تبلغ مئة صفحة، أمّا باقي الصفحات فلم تُقتَطَع. لقد كانت هناك ملاحظة موضوعة على الكتاب تقول: إذا استطعت أن تقرأ المئة صفحة، فعندئذٍ افتح الصفحات الأخرى، وإلاّ أعد الكتاب إلى المتجر، واسترجع نقودك. حاول أولاً قراءة المئة صفحة الأولى، فإن كنت لا تزال فإن كنت لا تزال مهتمّاً، فافتح الصفحات الأخرى، ثم انزعها من الكتاب، وإلا فلا تتلفه.

لقد أعيدت الكثير من الكتب، كما أن الكثير منها لم تعاد؛ وهذا لا يعني أن الناس قرأوها، فقد كانوا مجرّد أشخاص فضوليين. لقد فكّروا قائلين: "ربما في الأمر خدعة، فهو مملٌّ في أوّل مئة صفحة فقط، أمّا في الداخل فقد لا يكون كذلك". لكنك إذا نزعت الصفحات، فحينها لن تتمكن من إعادة الكتاب.

غير أنني لم أصادف شخصاً واحداً قرأ الكتاب بأكمله. الناس يحذفون، وبعد ذلك يتوهون: لأنه يخفي الجواهر هنا وهناك، والباقي مجرّد تمويه. إنه يخفي الجواهري أجَمَةٍ من الكلمات، وهذه الجواهر يمكن فرزها، ويمكن كتابتها في بطاقة بريدية صغيرة، في حين أن هذا الكتاب يقع في ألف صفحة!

لقد اتبع كثير من الناس غورودييف لأنهم لا يستطيعون الفهم.

عندما لا تستطيع الفهم، فإنك تشعر فجأة أن هناك لغزاً ما. لكن الأمر ليس كذلك، فالحقيقة بسيطة للغاية، وكل شخص لديه القدرة على فهمها. إن الحقيقة بسيطة مثل بساطة أيّ شيء، ولكن عليك أن تكون صامتاً، ومتفهماً، ومستعدا، لكي تُكشفُ لك.

قال الكرخي: "البعض لا يفهمونني، ولذلك يبجّلون. والآخرون ليسوا كذلك، ولذلك يلعنوني".

إذن هناك أشخاص إذا كانوا لا يستطيعون الفهم – حيث لا يمكنهم الإيمان بوجود أيّ شيء لا يستطيعوا فهمه– فلذلك يلعنون. إنه ضد أناهم. ولكن تذكّروا: كلاهما (المبجّلين واللاعنين) ينطلقان وجهات نظر أنانية.

الأنا الأولى تقول: "إنني في غاية الفهم، فإذا لم أتمكّن من الفهم، فلابد إذن من وجود شيء غامض". أمّا الأنا الأخرى فتقول: "إذا لم أتمكن من الفهم، فليس هناك شيء على الإطلاق. وهذا الرجل ببساطة شخص مخادع. لا يوجد شيء لديه. إذا كان لديه شيء، فكيف لا أفهم شيئاً؟ إن عبقرياً مثلي سيفهم أي شيء". كلاهما وجهتي نظر أنانيتين، وعلى المرء أن يتخلى عنهما، وعندئذٍ فقط تستطيع أن تفهم المعلّم.

على المرء أن يُسقط كلتا النظرتين. لا تُبجّل شيئاً، ولا تلعن شيئاً لأنك لا تستطيع فهمه. وفي الحقيقة، لا تحِلُ شيئاً إلى أناك، ولا تجلبه إلى سياق أناك، فذلك لا فائدة منه! أصغ إلى الشيء وحسب، فإذا لم تفهمه، فحاول مجدداً، وتأمل فيه أكثر، وأمعن التفكير فيه أكثر، وكن أكثر صمتاً.

عد إليه مراراً وتكراراً من زوايا مختلفة، وفي نهاية المطاف عد إليه من دون وجهة نظر على الإطلاق، وسوف تفهم، وسينكشف لك السر. إذا لم تستطع الفهم، فلا تبدأ بلَعنِه، لأنك لست من يقرر الفهم، ولا تنتهي القدرة على الفهم عندك، ولست نهاية الفهم. إنك مجرد مبتدئ على أول درجة في السُلَّم، والسلّم واسع وكبير.

ملايين الأشياء تنتظرك. إنك عند الباب تماماً، ولم تدخل المقام المقدّس بعد. ربما تكون على بعد خطوات، أو ربما لازلت على المسار فقط، ولم تصل حتى إلى بعد خطوات، ولا حتى عند الباب.

عليك أن تصغي، وكلما أصغيت إلى الشخص الذي وصل، كلما ستفهم أكثر وأكثر. وكلما فهمت أكثر، كلّما أصبح الأمر غامضاً أكثر. إن لغز الحياة ليس شيئاً يمكن حلّهُ، أو حُلَّ من قبل، وإنَّما هو شيء يجب تعيشه! ليست المشكلة في أن يتم حلّ اللغز، بل في أن تعيشه.

كلما عرفت أكثر، كلما شعرت بالغموض يحيط بك من كل مكان. ذلك أنه في نهاية مطاف المعرفة، تسقط كل معرفة، حيث لا تعرف شيئاً.

إن نهاية المعرفة تشبه الجهل الممتد، والظلام الحالك الممتد. لكن الصباح لا يولد إلاّ من الظلام الحالك.

النور يبزغ من الجهل الممتد.. النور الذي هو المعرفة، والفهم؛ الذي يسمّيه بوذا: براغيا، والذي يسميه باتنجالي: السامادهي، أي الاستنارة.

قال معروف: "البعض لا يفهموني، ويبجّلوني. وآخرون ليسوا كذلك، ولذلك يلعنوني، وهذا ما جئت لقوله، يجب أن تفكّر بي على أنك الشخص الذي قال هذا".

كان الرجل يسأل لكي يُصنِّف الكرخي بطريقة ما: فيما إذا كان يهوديّاً، أم مسلماً، أم مسيحيّاً. والحقيقة أنك ما إن تُصَنَّف حتى تظن أنك فهمت. لكن التصنيف خدعة، لأنك تصنّف شيئاً، ثم تشعر بأنك فهمت.

أُريكَ وردةً، وردة غريبة لم ترَ مثلها من قبل، فتسأل على الفور: "ما هو اسمها"؟

لما تتلهّف لمعرفة الاسم؟ بماذا سيفيدك الاسم؟ سواء كان س أو ع أو ج، أو مهما كان الاسم، بماذا يفيدك الاسم؟ إذا قلت لك س، فستظن أنك عرفتها. لقد صنَّفتَها، والآن تستطيع أن تريها لطفلك على أن هذه وردة س، فقد أصبحت عارفاً. ما الذي تعرفه عن الوردة؟ كلمة س فقط؟ كان يمكن أن أسميها ع، أو ج، وكان يمكن أن يكون الاسم مناسباً مثل س. إذن فكيف تعرفها.

كنت أقرأ كتاب جيرترود شتاين عندما قالت في قصيدتها: "الزهرة هي زهرة، الزهرة هي زهرة"، وقد أصبحت مشهورة عالميّاً. إنها تستمر بذلك الأسلوب في الحديث عن أشياء كثيرة. لم تحدد، ولم تقل أيّ شيء سوى: "الزهرة هي زهرة، الزهرة هي زهرة".

لم تحدد شيئاً، ولم تقل شيئاً في الواقع.

سألها أحدهم: "لماذا قلتِ هذا"؟ فكلنا نعرف أن الزهرة هي زهرة، الزهرة هي زهرة. إن ذلك لا معنى له، ولا يضيف شيئاً إلى معرفتنا".

فقالت شتاين: "لأن الشعراء تحدثوا عن الأزهار لآلاف السنين، وكُتِبَت ملايين القصائد عن الأزهار، كما أن كل شخص قرأ عنها وتغنّى بها، وكل شخص كررها.. لقد فقدت كلمة "زهرة" ألَقَها، ولم تعد توحي بشيء، ولهذا السبب كان عليَّ أن أكرر: " الزهرة هي زهرة، الزهرة هي زهرة".. لكي تستيقظ من نومك، ولكي أصدّع رأسك قليلاً: "ما الذي تقوله هذه المرأة؟ أنه لشيء سخيف!... الزهرة هي زهرة، الزهرة هي زهرة".

إن كل شخص يعرف ما هي الزهرة. ثم قالت: "بتكرار ذلك فإنني أجلب النضارة للزهرة مجدداً".

لا تستطيع الكلمات قول الكثير، فإذا كنت تظن أنك عرفت بمجرّد معرفتك للأسماء والتصنيفات، فستخسر كل شيء.

حاول أن تتجنب الكلمات، ولا تحاول التسمية. إنك سرعان ما تُسمّي! والتسمية هي أكبر العلل. إنها هاجس. ترى شخصاً فتقول: "إنه جميل". ترى امرأةً فتقول: "إنها قبيحة". لماذا تتسرّع؟ تمهّل! للمرأة عدة أوجه. حتى المرأة القبيحة تملك أحياناً وجهاً جميلاً لا يمكن أن تنافسه أيّ امرأة جميلة. لقد شاهدت أبشع امرأة في وضعية معيّنه، وفي حالة مزاجية معيّنة، وفي مناخ معيّن، رأيتها في غاية الجمال إلى درجة أن ملكة جمال الكون ستبدو باهتة أمامها.

كما شاهدت أجمل امرأة، بشعة في حالات مزاجية معيّنه، إذن تمهّل! ولا تصنّف! وإلاّ فإن تصنيفك لن يسمح لك برؤية الحقيقة. فحتى المرأة الجميلة، في ظل مشاعر الغضب، أو الحسد، أو التملّك، تصبح بشعة للغاية. ذلك أن بشاعتهن أعمق من البشاعة العادية للجسد. إن بشاعتهن هي بشاعة روحية، وداخلية، وهي تأتي على جميع أنحاء الجسد، مثل الطفح الجلدي. عندما تكون المرأة غيورة وتملّكية، فربما تكون جميلة من الخارج، ولكن ثمة شيء ينبعث حولها: سامٌّ كالأفعى، يجعلها بشعة. تلمسها في تلك اللحظة فتشعر أنك لمست زاحفة، وليس امرأة. إنها سامّة، وتتصاعد الأبخرة من سمها.

لا تصنّف، فالحقيقة لا تؤمن بالتصنيفات. الحقيقة تستمر في الحركة والتغيّر. إنها تدفّق، إنها نهر، ولا يمكن أن تسير في النهر ذاته مرّتين.. بل ولا حتى مرّة واحدة، لأنه يتحرّك طوال الوقت.

لا تصنّف، فلديك ثقوب حمامة في عقلك: فما إن يظهر شيء على حين غرّة، حتى تضعه في ثقب الحمامة، وانتهى الأمر! فتظن أنك فهمت! هذا الرجل جيّد، وهذا سيّء. ألم يسبق لك أن لاحظت أن السيئ يصبح جيّداً، والجيّد يصبح سيّئاً؟ ألم ترَ الأمين لِصٌّ؟ الم ترى شخصاً مخلصاً جداً على أنه مجرم؟ الم تلاحظ أن الآثم ما هو إلاّ قدّيس؟

إن التصنيفات لا تنتمي للحياة، بل تنتمي إلى العقل. التصنيفات هي ألاعيبك، فلا تُصَنِّف.

هذا الرجل أتى لكي يسأل معروف الكرخي: "كيف أصنفك؟ أين أضعك؟ والكرخي هو رجل حيٌّ.

فلو كان ميّتاً لقال: "إنني مسلم طبعاً، بل مسلم متواضع، ومتصوّف". لكنه ليس شخصاً ميّتاً، ولن يسمح لك بتصنيفه. إنه

حيٌّ، بل حيٌّ بكل معنى الكلمة.

إنه يقول: "تذكرّني من خلال هذه فقط، وليس من خلال أيّ شيء آخر: هذا ما جئت لأقوله: يجب أن تفكّر بي على أنني الشخص الذي قال هذا". تذكّر هذا كثيراً، وهو أن هؤلاء الذين لا يفهمونني، يبجلّوني. يعتقد اليهود في القدس أنني مسيحي، والمسلمون يعتقدون أنني يهودي. وفي بغداد، في جماعتي، حيث يحبني الناس، يعتقد اليهود أنني اليهودي الأكثر كمالاً، والمسيحيون يعتقدون أنني المسيح الجديد، والمسلمون يعتقدون أنني الخلاصة لكوني مسلماً.

لن أقول المزيد، فهذا المزيد قد قلته لكم. إذا أردتم أن تعرفوا كيف تتذكروني، فما عليكم إلاّ أن تقوموا بهذا: يجب أن تفكّر بي على أنني الشخص الذي قال هذا".

يبقى الكرخي غير مصنَّف، وغير قابل للتصنيف. إنه لا يُعطي أية إشارة، وبدلاً من ذلك أصبح أكثر غموضاً. ربما أتى الرجل بشيء ما، ربما جاء ببعض التحيّز، أو بفكرة ما تتعلق بالمعلّم معروف الكرخي.

لقد هدم عقله بالكامل، وتجاوز كل تحيزاته. تركها في الخلاء، وهذا ما يفعله المعلّم: يتركك في الخلاء. غير أن هذه أجمل هديّة يمكن أن تُقدَّم لك.. الفراغ، أو الخلاء، أو الخواء.

فمن ذلك الخلاء يبرز كل شيء، ومن ذلك الفراغ يصعد كل شيء.

في ذلك الفراغ يولدُ الكمال، لكن ذلك غير ممكن.. قبل أن تموت.

** النهاية **

Notes

[1 ←]

الزن: إحدى فروع البوذية.

[2 ←]

الهاسيد: طائفة دينية واجتماعية يهودية أسسها الحاخام إسرائيل بن اليعازر في بولندا في القرن الثامن عشر.

[3 ←]

ابو يزيد بن عيسى البسطامي، اسمه بالفارسية بايزيد، كما عُرف باسم طيفور. كان جدّه زارادشتيّاً ثم أسلم. له أخوين عباد وزهّاد هما آدم وعلي، لكن أبو يزيد كان أجلّهم مقاماً. هو من أهل بسطام، وتوفي سنة مائتان وأربع وستون للهجرة عن عمر يناهز الثلاثة وسبعون سنة.

[4 ←]

لا تحكموا حسب الظاهر بل احكموا حكماً عادلاً (يوحنا 7 : 24)

[5 ←]

السادهانا هي الممارسة الروحية اليومية. إنها أساس كل مسمى روحي. وهي الأداة الرئيسية التي تستخدمها للعمل على نفسك لكي تصل إلى هدفك في الحياة.

[6 ←]

أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، أحد علماء أهل السنة والجماعة، ومن أعلام التصوف السني في القرن الثاني الهجري في بغداد، ومن جملة المشايخ المشهورين بالزهد والورع والتقوى.

[7 ←]

المولوية أحد الطرق الصوفية السنية. مؤسسها الشيخ جلال الدين الرومي (1207م-١٢٧٢ هـ)، وهو افغاني الأصل والمولد، عاش معظم حياته في مدينة قونية التركية، وقام بزيارات إلى دمشق وبغداد. وهو ناظم معظم الأشعار التي تنشد حلقة الذكر المولوية. اشتهرت الطريقة المولوية بتسامحها مع اهل الذمة ومع غير المسلمين ايّا كان معتقدهم وعرقهم، ويعدها بعض مؤرخي التصوف من تفرعات الطريقة القادرية.

اشتهرت الطريقة المولوية بما يعرف بالرقص الدائري لمدة ساعات طويلة، حيث يدور الراقصون حول مركز الدائرة التي يقف فيها الشيخ، ويندمجون في مشاعر روحية سامية ترقى بنفوسهم إلى مرتبة الصفاء الروحي فيتخلصون من المشاعر النفسانية ويستغرقون في وجد كامل يبعدهم عن العالم المادي ويأخذهم إلى الوجود الإلهي كما يرون.